مجموعة مؤلفات فضيلة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي (٤٨)

شروح رسائل

الإمام المجدد

الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

المجموعة الثانية

(فضل الإسلام . كشف الشبهات)

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

شروح رسائل

الإمام المجدد

الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله



بسم الله الرحمن الرحيم

المُقَـدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبدالله ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

أما بعد:

فإن الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ قام بالدعوة إلى الله عز وجل؛ وترسَّم خُطى الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، واقتدى بنبينا صلى الله عليه وسلم في دعوته إلى الله تبارك وتعالى وفي تعليمه للناس وإرشاده، فهو إمام هدى عليه رحمة الله، ولهذا أثمرت دعوته، ونفع الله بها، وانتشرتْ دعوتهُ في مشارق الأرض ومغاربها، وهدى الله على يديه خلقاً كثيراً. وذاك ـ والله أعلم ـ بسبب إخلاصه لربه تبارك وتعالى وصدقه ونصحه لعباد الله، وما زلنا نتفيأ ظِلالَ هذه الدعوة الوارفة وثمارها الطيبة.

وقد دعا رحمه الله الناس إلى ما دعا إليه نبينا صلى الله عليه وسلم وبقية الرسل عليهم السلام، فدعا الناس إلى توحيد الله عز وجل وإخلاص الدين له، والقيام بأمره تبارك وتعالى وأداء حقوقه وحقوق عباده، فكان كلامه من القلب فنفذ إلى القلب، وكان لصدقه وإخلاصه في دعوته أثر الطيب في تقبل الأمة لمؤلفاته

وانتشار دعوته، التي أُلّف فيها المؤلفات القيّمة الكثيرة، الصغيرة في حجمها ومبناها، الكبيرة في معناها، فجاءت قليلة الكلمات، محددة الهدف وجامعة في الأدلة، وهذا هو الأسلوب العلمي بخلاف الأسلوب الأدبي.

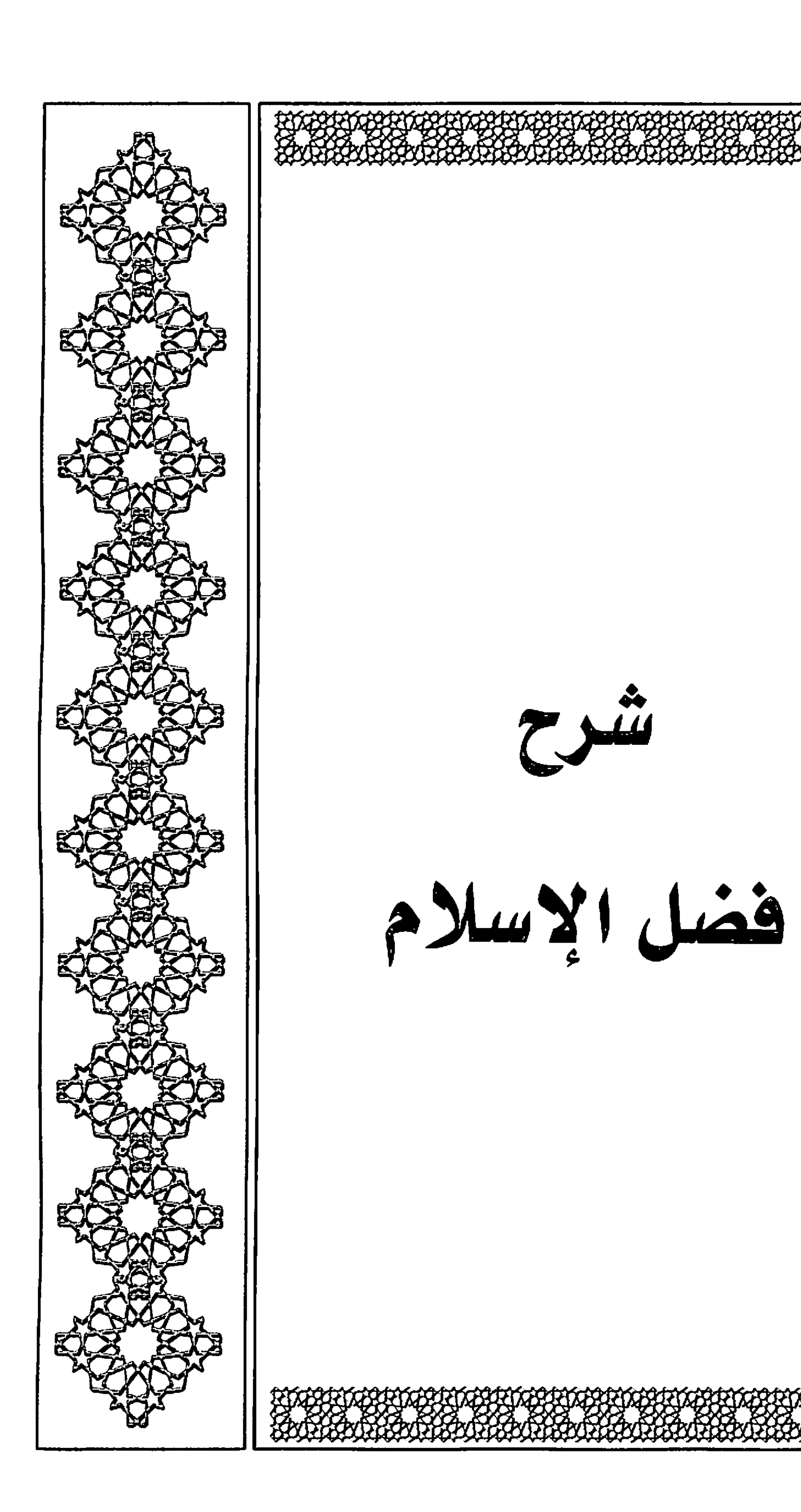
وهذا المجموع هو الثاني من شروح رسائل الإمام المجدد، والذي يضم شروحا لرسائل تأصيلية مناسبة للمبتدئين، وهي: «**فضل الإسلام - كشف الشبهات**»، ولأهمية موضوعاتها، ومناسبة التأليف بينها في هذا المجموع، بشرح متوسط لهذه المتون، مع ذكر بعض التفاصيل والتنبيهات التي أرى الحاجة داعية إليها.

أسأل الله أن ينفع بها، وأن يجعل العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يرزقنا وإخواننا المسلمين الفقه في دينه، والبصيرة في شريعته، وأن يسدد الخطى، ويبارك في الجهود، وأن يوفق الجميع لما يحبه ويرضاه، إنه جواد كريم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

✍ كتبه

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي



شرح

فضل الإسلام

مقدمة الشارح

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإن من المتون المهمة التي على طالب العلم: «كتاب فضل الإسلام»، والذي هو من تأليف الإمام محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللهُ.

وأصل مادة اشتقاق الإسلام «سَلِمَ» السين واللام والميم، ومعظم بابه من الصِّحة والعافية، والإسلام هو الانقياد؛ لأنه يَسْلَمُ مِنَ الْإِبَاءِ والامتناع[١] **وقيل**: الإسلام الدخول في السِّلم، وهو أن يسلم كل واحد منهما أن يناله من ألم صاحبه[٢].

والإسلام: هو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد في الباطن، والانقياد له بالطاعة في الظاهر بالخضوع له بالجوارح وانقيادها، والبراءة من الشِّرك وأهله، فهو يجمع ثلاثة أمور: الاستسلام له في الباطن، أي: إخلاص باطنه لله، فلا يُوجد إلَّا الله، متذلل خاضع مُوحِّد له، والانقياد له في الظاهر، يعني: تنقاد الجوارح له وتُطِيع، والبراءة من الشِّرك وأهله، **قال الإمام محمد بن عبدالوهاب** رَحِمَهُ اللهُ: **«هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشِّرك وأهله»**[٣]، هذا هو دين الله الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه.

---

(١) انظر: «مقاييس اللغة» لابن فارس (٣/ ٩٠).

(٢) «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني (ص ٢٤٠).

(٣) «الثلاثة الأصول» (ص ١٨٩).

وله معنيان:

المعنى العام: أن الإسلام دين الأنبياء جميعًا، ولا يقبل الله من أحد دينًا غيره كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]، فدين الله في الأرض الإسلام، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، فمن ابتغى غير الإسلام دينًا فلن يقبله الله منه مِنْ لَدُن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة؛ فلا يقبل الله إلَّا الإسلام، ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾.

والإسلام بمعناه العام ـ الذي هو دين الأنبياء جميعًا ـ هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة كل نبي في زمانه فيما جاء به من الشريعة، قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، هذا هو دين الإسلام فهو التوحيد والبراءة من الشِّرك وأهله وطاعة كل نبي في زمانه فيما جاء به من الشريعة؛ فالدين واحد لكن الشرائع تختلف، ولكل نبي شريعة، أوامر ونواهي، حلال وحرام كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فالدين واحد والشرائع تختلف.

فقد كانت حواء زوجة **آدم** عليه السلام تحمل في كل بطن ذكرًا وأنثًا بتقدير الله تعالى، فحَرَّمَ الله في شريعة **آدم عليه الصلاة والسلام** على الإنسان أن يتزوج أخته التي جاءت معه في نفس البطن، لكن يجوز له أن يتزوج أخته التي جاءت في بطن سابق أو لاحق له؛ حتى يتكاثر الناس فلم يكن إلَّا آدم وذريته فمن أين يتزوج الناس؟، فصار يجوز للأخ أن يتزوج أخته التي جاءت في بطن سابق أو لاحق له،

أما التي جاءت في بطن واحدة معه فحَرَّمَ الله عليه ذلك، ولَمَّا كثر الناس حَرَّمَ الله تعالى نكاح الأخت، وفي شريعة **يعقوب عليه الصلاة والسلام** يجوز الجمع بين الأختين، **وفي شريعتنا** لا يجوز، فتختلف الشرائع لكن التوحيد واحد.

وفي شريعة التوراة التي أنزلها الله تعالى على **موسى عليه الصلاة والسلام** يجب القصاص في قتل القاتل، وفي شريعة الإنجيل التي أنزلها الله تعالى على **عيسى عليه الصلاة والسلام** يجب العفو والتسامح، **ويقول المسيح**: «**من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن أخذ رداءك فأعطه قميصك**»(١)، وفي شريعة **محمد** التي هي أكمل الشرائع يُخَيَّرُ أولياء المقتول بين القصاص أو الصلح أو العفو، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ﴾ [البَقَرَة: ١٧٨]، فتختلف الشرائع من شريعة إلى شريعة، لكن الدين واحد، وهو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة كل نبي فيما جاء به من الشريعة.

الإسلام في زمن آدم عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **آدم** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن نوح** عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **نوح** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن هود** عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **هود** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن صالح** عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٦٢٥).

من الشِّرك وأهله، وطاعة **صالح** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن إبراهيم** عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **إبراهيم** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن شعيب** عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **شعيب** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن موسى** عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **موسى** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن عيسى** عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **عيسى** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة حتى جاء وبعث الله **نبينا محمد** بالشريعة الخاتمة.

المعنى الخاص: هو توحيد الله والعمل بالشريعة الخاتمة التي بُعِثَ بها **نبينا محمد** والتي نُسِخَت بها جميع الشرائع، فالإسلام بمعناه الخاص هو ما عليه الأمة المحمدية، توحيد الله والعمل بالشريعة التي جاء بها **نبينا محمد**.

والإسلام بمعناه العام يشمل أديان الأنبياء جميعًا، وهو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة كل نبي فيما جاء به من الشريعة، وتختلف الشرائع من نبي إلى آخر، **والإسلام بمعناه الخاص** ليس عليه إلَّا أمة **محمد**.

ويقع النزاع في الإسلام هل هو خاص بهذه الأمة أم يُوصف بها من سبق من الأمم؟.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : «**وقد تنازع الناس** فيمن تقدَّم من أمة **موسى وعيسى** هل هم مسلمون أم لا؟.

وهو نزاع لفظي؛ فإن **الإسلام الخاص** الذى بعث الله به **محمدًا** المتضمن لشريعة القرآن ليس عليه إلَّا أمة **محمد** ، والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا، وأما **الإسلام العام** المتناول لكل شريعة

بعث الله بها نبيًّا فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء»[(١)].

- وقد يسر الله أن أتينا على هذه الرسالة «فصل الإسلام» بالشرح والبيان، والخدمة العلمية للنصوص.

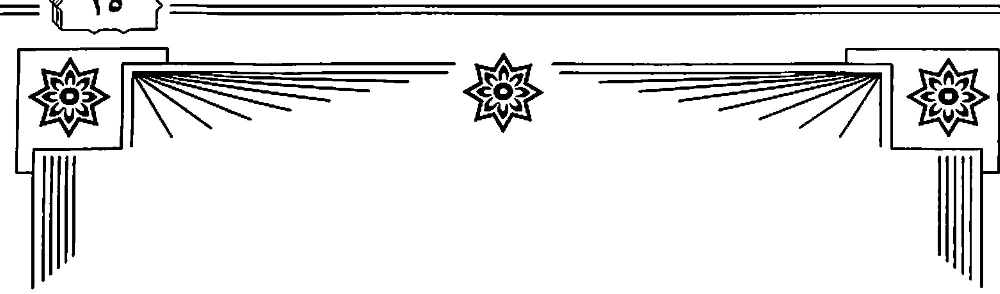
وأسأل الله أن يثبتنا على دينه القويم، وأن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يتوفانا على الإسلام، وبالله التوفيق وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٩٤).



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«باب: فضل الإسلام»

الشَّرْحُ

هذا **الباب الأول** من أبواب هذه الرسالة.

○ قوله: «**باب فضل الإسلام**» فضل الإسلام عظيم، وفضائله على الأفراد والجماعات، ومن فضائله:

١- أن المؤمن يحصل له بالإسلام الأنس والطمأنينة والسرور والراحة في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، فمن فضائل الإسلام الحياة الطيبة في الدنيا، وهي الطمأنينة والأمن والسرور وعدم القلق، ولهذا تجد من لم يُرزق الإسلام في البلدان العربية وغيرها وعندهم التطور التكنولوجي ومظاهر الحياة من البذخ وغيره ومع ذلك ليس عندهم طمأنينة ولا راحة، وينتحرون؛ لأنهم قد فقدوا طمأنينة القلب، وقد أعطى الله المسلمين هذه الطمأنينة.

٢- أن المسلم في الدنيا دمه وماله معصوم، فلا يجوز لأحد أن يعتدي على بدنه بالقتل أو بقطع عضو أو بالجرح، أو حتى الترويع وإشهار السلاح في وجهه، ولا على ماله بالغصب أو السرقة أو السلب والنهب أو الغش أو الخداع أو المعاملات المُحَرَّمَة أو الرشوة، في «**الصحيحين**» عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»[1]، وكذلك عرضه معصوم فلا يجوز للإنسان أن يسخر من أخيه، ولا أن يستهزئ به، ولا أن يهمزه أو يلمزه، ولا أن يغتابه أو ينم عليه، وكذلك حَرَّمَ الله الزنا واللواط، والوسائلَ كالنظر إلى المرأة الأجنبية، والخلوة بها من غير مَحْرَم، والسفر بدونه.

٣- حلول البركة ونزع أضدادها، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٤- أن الإسلام يدعو إلى الأخلاق الرَّفيعة الطيبة، وينهى عن كلِّ فحشاء ومنكر وخُلُق وضيع مع الأهل والأقارب وسائر الناس، وينهى في المعاملات عن الظُّلم والغرر والرِّبا؛ لأنها تُؤدِّي إلى العداوة والبغضاء وأكل المال بالباطل، ويأمر في الحدود بإقامتها ردعًا للفاعل وكفارة له.

٥- أن المسلم تعمه وتشمله دعوة المسلمين.

٦- أن الإسلام يغفر ما قبله من الذنوب.

٧- الثواب العظيم والأجر الكبير، وهو السبب في دخول الجنة، وهذا أعظم فضائل الإسلام أن الإسلام والإيمان سبب في دخول الجنة، وإلَّا فدخول الجنة برحمة الله تعالى، في «**الصحيحين**» عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ**»، قَالُوا: «**وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟**»، قَالَ: «**وَلَا أَنَا،**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]»، رقم (٢٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٢).

إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ»[١] ، فدخول الجنة بالإيمان.

واختلف **العلماء** في الإسلام والإيمان، هل هما شيء واحد أم يختلفان؟، على أقوال أربعة، وهي:

القول الأول: أن **الإسلام** هو الكلمة **والإيمان** هو العمل، وهذا ما رُوِيَ عن **الزهري**، **قَالَ**: «**نَرَى أَنَّ الْإِسْلَامَ الْكَلِمَةُ، وَالْإِيمَانَ الْعَمَلُ**»[٢]، أي: **الإسلام** هو النطق بالشهادتين، **والإيمان** هو العمل.

القول الثاني: أن **الإسلام** هو الأعمال الظاهرة، **والإيمان** هو الأعمال الباطنة كما في حديث جبريل عليه السلام[٣]، ففسَّر **الإسلام** بالأعمال الظاهرة، وهي الشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحجِّ، وفسَّر **الإيمان** بالأعمال الباطنة، وهي الإيمان بالله وملائكته وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ والقدر خيره وشرِّهِ.

القول الثالث: أن **الإسلام والإيمان** مترادفان عند الإطلاق والاقتران لا فرق بينهما، وهذا قول طائفة من أهل السنة، وهو اختيار **البخاري** رحمه الله[٤]، **وهو قول الخوارج والمعتزلة**[٥].

القول الرابع: أن **الإسلام والإيمان** تختلف دلالتهما في الإفراد

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب «القصد والمداومة على العمل»، رقم (٦٤٦٧)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم (٢٨١٨).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه»، رقم (٤٦٨٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، وبيان النبي ﷺ له»، رقم (٥٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) كما نقل عنه ابن حجر ذلك في «فتح الباري» (١/ ٥٥).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧/ ٤١٤).

والاقتران.

إذا أُفرِدَا دخل فيهما الأعمال الظاهرة والباطنة، ويدخل أحدهما في الآخر كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩] فيشمل **الإسلام** الأعمال الظاهرة والباطنة، وكقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحُجرَات: ١٧] فيشمل **الإيمان** الأعمال الظاهرة والباطنة.

وإذا قُرِنَ **الإسلام بالإيمان** اختلف معناه، فيُفسَّر **الإسلام** بالأعمال الظاهرة **والإيمان** بالأعمال الباطنة، مثل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [الأحزَاب: ٣٥]، وكما في حديث جبريل عليه السلام في «**الصحيحين**» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: «**مَا الْإِيمَانُ؟**»، قَالَ: «**الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ**»، قَالَ: «**مَا الْإِسْلَامُ؟**»، قَالَ: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ**»[١]، ففسَّر **الإسلام** بالأعمال الظاهرة، **والإيمان** بالأعمال الباطنة، وهو قول **المحققِّين من أهل العلم**، وهو اختيار **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله[٢]، **وهو الصواب** في هذه المسألة أن الإسلام والإيمان تختلف دلالتهما بالاقتران والإفراد، فإذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

إذا افترقا: جاء الإسلام وحده وجاء الإيمان وحده، **اجتمعا**:

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (٧/ ١٤).

فيدخل فيهما الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، **وإذا اجتمعا افترقا**: فاختلف المعنى، فصار الإسلام الأعمال الظاهرة، والإيمان الأعمال الباطنة.

مثل: **الفقير والمسكين**، إذا أُطلِقَ **الفقير** دخل فيه **المسكين**، وإذا أُطلِق **المسكين** دخل فيه **الفقير**، وإذا اجتمعا كما في آية الصدقة ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] يُفسَّر **الفقير** بأنه أشدُّ حاجة، وهو الذي لا يجد شيئًا أو يجد أقل من نصف الكفاية، **والمسكين** الذي يجد نصف الكفاية إلَّا أنه لا يجد الكفاية الكاملة، والمراد بالكفاية: سنة النفقة والسُّقيا والسُّكنى؛ لأن الزكاة من العام إلى العام.

كذلك **الربوبية والألوهية**، إذا أُطلقت **الربوبية** دخلت فيها **الألوهية**، وإذا أُطلِقت **الألوهية** دخلت فيها **الربوبية**، وإذا اجتمعا فُسِّرَت **الربوبية** بتوحيد أفعال الرَّبِّ، **والألوهية** بتوحيد بأفعال العباد.

فمن أعظم فوائد الإسلام في الآخرة: أنه سبب في دخول الجنة برحمة الله، ثم يتقاسم المؤمنون والمسلمون درجات الجنة بأعمالهم.

٨- أنه سبب في رؤية الله ﷻ يوم القيامة في الجنة، فالمسلم يرى ربَّهُ يوم القيامة، والكافر محجوب عنه، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: ١٥].



✿ **قَالَ المُؤَلِّفُ** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«**وقول الله تعالى**: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨]».

الشَّرْح

ذكر **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب آيات وأحاديث.

○ قوله: «**وقول الله تعالى**: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ﴾ [المائدة: ٣]»، وهي **الآية الأولى**.

وهذه أكبر نِعَم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم فلا يحتاجون إلى دين غيره ولا إلى نبي غير نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، فلما أكمل لهم الدين تمت عليهم النعمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ﴾ أي: فارضوه أنتم لأنفسكم؛ فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه وبعث به أفضل الرُّسُل الكرام وأنزل به أشرف كُتُبِهِ[1].

نزلت هذه الآية الكريمة على الرسول ﷺ وهو واقف في عرفة

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/١٣).

في حجة الوداع، في «**الصحيحين**» عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْيَهُودِ قَالَ لَهُ: «**يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا**»، قَالَ: «**أَيُّ آيَةٍ؟**»، قَالَ: «﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]»، قَالَ عُمَرُ: «**قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ** وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ»[١]، فَهِمَ اليهود المعنى ومع ذلك لم يُوفَّقُوا إلى الإسلام.

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وذلك أن النبي ﷺ حين كان بمكة لم تكن إلَّا فريضة الصلاة وحدها، فلما قدم المدينة أنزل الله الحلال والحرام إلى أن حجَّ، فلَمَّا حجَّ وكمل الدين نزلت هذه الآية ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية كما روي هذا ينحوه عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا[٢].

قوله تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ أي: بإكمال الشرائع والأحكام، وإظهار دين الإسلام كما وعدتكم، إذ قلت: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠] وهي دخول مكة آمنين مطمئنين وغير ذلك»[٣].

بَيَّنَ الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه أكمل لنا الدين، وإذا أُطلِق الدين فهو الإسلام، وهو الإيمان، وهو البِرُّ، وهو التقوى، وهو الهدى، والدين يجمع ثلاثة مراتب كما في حديث جبرائيل لما سأل عن الإسلام، ثم سأل عن الإيمان، ثم سأل عن الإحسان،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «زيادة الإيمان ونقصانه»، رقم (٤٥)، ومسلم، كتاب التفسير، رقم (٣٠١٧).

(٢) «تفسير الطبري» (٢١/ ٢٤٥).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٨/ ٨٣)، و«البغوي» (٣/ ١٣)، و«تفسير القرطبي» (٦/ ٦١، ٦٢) مختصرًا.

فقال رسول الله ﷺ: «**هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ**»(١)، فالدين له ثلاثة مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان.

ولا يحتاج الدين إلى نقص ولا زيادة؛ فهو سبحانه أتم علينا النعمة فهي تامة لا تحتاج إلى زيادة، ورَضِيَ لنا الإسلام دينًا فلا يسخطه أبدًا، وهذا هو الشاهد من الآية، ففضل الإسلام أن الله تعالى رَضِيَ هذا الدين فلا يسخطه أبدًا، فمناسبة هذه الآية لفضل الإسلام ظاهرة.

الأولى: شمول الشريعة الإسلامية لكل متطلبات الحياة بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فدينكم كامل وشامل لكل شيء، سواء كان ذلك في العقيدة، أو الأحكام، أو الأخلاق والسلوك، أو في المنهج.

الثانية: أن من أحدث في هذه الأمور حدثًا لم يرد لا في الكتاب ولا في السنة ولا عن السلف الصالح فقد طعن في القرآن، فمن أحدث حدثًا في العقيدة أو الأحكام أو المنهج أو الأخلاق فقد طعن في القرآن.

الثالثة: أنَّ من أعظم نِعَم الله على المسلمين هذا الكتاب العظيم الذي اجتمع فيه الصِّدقَ في الأخبار والعدل في الأحكام، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] صِدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ﴾ [الأنعام: ٣٤].

الرابعة: أنه لا يجوز نسبة البدع والمُحْدَثات إلى الإسلام، فهي ليست منه، وإن انتسب أصحابها إليه.

❋ ❋ ❋

---

(١) تقدَّم تخريجه.

○ قوله: «وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤]»، وهي **الآية الثانية**.

يُخاطِب الله تعالى نبيه ﷺ فيقول له: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ عمومًا ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ وهذا لا يكون إلَّا من الكفار.

والكفر يكون بالشكِّ والظنِّ، وبالاعتقاد، وبالقول، وبالفعل، يكون **بالشكِّ** كمن شكَّ في البعث أو في الكُتُب المنزَّلة أو في اليوم الآخر، ويكون **بالظنِّ** كالظنِّ الذي ظنَّهُ المنافقون فظنُّوا أنه سيُقضى على هذا الدين ولن تقوم له قائمة وأنه سيقتل أصحاب النبي ﷺ يوم أحد، وهذا ظن السَّوء، قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١٢]، وفي الآية الأخرى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح: ٦]، ويكون **بالاعتقاد** بأن يعتقد أن لله صاحبة أو ولدًا، أو يعتقد أن هذا الدين غير صالح للزمان أو المكان، ويكون **بالقول** كمن سبَّ الله أو الرسول أو الدين، أو استهزأ بالله أو بكتابه، ويكون **بالفعل** كمن عبد غير الله أو طاف بقبر تقرُّبًا إليه، أو ذبح لغير الله، أو استهان بالمصحف أو وطئه بقدميه أو لطَّخه بنجاسة فهذا كفر.

﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس: ١٠٤]وهذا **هو الشاهد**، أن الرسول وأمته مأمورون أن يكونوا من المسلمين الذي هو دين الله، ومحمد ﷺ أول المسلمين من هذه الأمة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «**يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: قل يا أيها الناس إن كنتم في شكٍّ من صحة ما جئتكم به من الدين الحنيف الذي أوحاه الله إليَّ فأنا لا أعبد الذين تعبدون، ولكن أعبد الله وحده لا شريك له، وهو الذي يتوفاكم كما أحياكم ثم إليه مرجعكم، فإن كانت آلهتكم التي تدعون من دون الله حقًّا فأنا لا أعبدها فادعوها فلتضرني فإنها لا تضر ولا تنفع، وإنما الذي بيده الضر والنفع هو الله وحده لا شريك له، وأمرت أن أكون من المؤمنين**»(١).

وقال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله: «**يقول تعالى لنبيه** سيد المرسلين وإمام المتقين وخير الموقنين: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ أي: في ريب واشتباه فإني لست في شكٍّ منه، بل لدي العلم اليقين أنه الحقُّ، وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأنداد والأصنام وغيرهما؛ لأنها لا تخلق، ولا ترزق، ولا تُدبِّر شيئًا من الأمور، وإنما هي مخلوقة مسخَّرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها، ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤] أي: هو الله الذي خلقكم، وهو الذي يميتكم ثم يبعثكم ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي يستحق أن يُعبَد ويُصلَّى له ويُسجَدَ»(٢).

وقال المصنف رحمه الله في تفسيره في ذكر مسائل هذه الآية: «**الحال الثانية**: أن كثيرًا من الناس إذا عرف الشِّرك وأبغضه وتركه لا يفطن لِمَا يُرِيد الله من قلبه من إجلاله وإعظامه وهيبته فذكر هذه

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٣٥).

(٢) «تفسير السعدي» (ص ٣٧٥).

الحال، ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾»[(١)].

والشاهد: في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾؛ وذلك أن هذا الدين الذي جئتُ به وأوحاه الله إليَّ لا يمكن لعاقل مُنْصِف أن يشكَّ في كماله وصحته، وذلك أنه تضمن الدين الحنيف الذي جاءت به كل الرُّسُل من قبلي مع كونه فاق الأديان السابقة بشموليته لجميع متطلبات الحياة.

وهذا يدل على فضل الإسلام، وأن الرسول ﷺ وأمته مأمورون به، ولا شكَّ ولا ريب في فضله وشرفه.

* * *

○ قوله: «**وقوله تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨]»، وهي **الآية الثالثة**.

الخطاب في هذه الآية:

يحتمل: أنه خطاب لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، كما عليه عامة المفسرين، فالله ﷻ يأمرهم أن يتقوا الله، ويصدقوا برسوله محمد ﷺ، فإن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: نصيبين من رحمته، نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ، أو أنه أجر الدنيا وأجر الآخرة.

ويحتمل: أن يكون الأمر عامًّا يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، قال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله: «وهذا هو **الظاهر**،

(١) مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب، القسم الرابع التفسير، (٥/ ١١٤).

وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين ظاهره وباطنه، وأصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم أعطاهم ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلَّا الله تعالى»[1].

والشاهد من هذه الآية : قوله تعالى: ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، وذلك أن المسلمين أجورهم مضاعفة عن أجور غيرهم ممن تقدَّمهم من اليهود والنصارى، فدلَّ ذلك على فضلهم.

ودخول هذه الآية في فضل الإسلام ظاهر وواضح، ثم ذكر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ الحديث الذي يتضمن معنى هذه الآية.



---

(١) انظر: «زاد المسير» (٤/ ٢٣٩)، و«تفسير السعدي» (ص ٨٤٣).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وفي «الصحيح» عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مثلكم ومثل أهل الكِتَابَين كمثل رجل استأجر أجراء، فقال: «من يعمل لي من غُدوة إلى نصف النهار على قيراط؟» فعملت اليهود، ثم قال: «من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟» فعملت النصارى، ثم قال: «من يعمل من صلاة العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟» فأنتم هم، فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: «ما لنا أكثر عملًا وأقل أجرًا؟!»، قال: «هل نقصتكم من حقِّكم شيئًا؟»، قالوا: «لا»، قال: «ذلك فَضْلِي أوتيه من أشاء»».

الشَّرْحُ

هذا الحديث كما **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ رواه البخاري في «**صحيحه**»[1].

مَثَّلَ النبي ﷺ في هذا الحديث هذه الأمة وأهل الكِتَابَين اليهود والنصارى، والمثل ينتقل فيه الإنسان من الأمر الحسي إلى الأمر المعنوي.

وأكثر الله تعالى من ضرب الأمثال في القرآن العظيم[2] وكذلك النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العَنكبوت: ٤٣]، وكان **بعض السلف** إذا مرَّ بِمَثَلٍ لا يفهمه يبكي، ويقول: «**لست من العَالِمِين**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإجارة، باب «الإجارة إلى نصف النهار»، رقم (٢٢٦٨).

(٢) قال ابن القيم: «وفي القرآن بضعة وأربعون مثلًا». «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١).

○ قوله: «**أن رسول الله ﷺ قال: «مثلكم ومثل أهل الكِتَابَين»**» والمراد بأهل الكِتَابَين كما تقدَّم اليهود والنصارى، وسُمُّوا بأهل الكتابين لأن الله ﷻ أنزل عليهم التوراة والإنجيل، التوراة على **موسى** عليه السلام، والإنجيل على **عيسى** عليه السلام، **فاليهود** هم أهل التوراة، **والنصارى** هم أهل الإنجيل.

○ في قوله: «**مثلكم ومثل أهل الكِتَابَين كمثل رجل استأجر أجراء**» حذف، وتقديره: مثلكم مع نبيكم ومثل أهل الكتاب مع أنبيائهم كمثل رجل استأجر أجراء.

○ قوله: «**استأجر أجراء**» يعني: عُمَّالًا كما جاء في لفظ آخر «**كَرَجُلٍ اسْتَعْمَلَ عُمَّالًا**»[1].

○ قوله: «**فقال: «من يعمل لي من غُدوة إلى نصف النهار على قيراط؟**»»، والغُدوة هي أول النهار، والقيراط جزء من الدينار، «**فعملت اليهود**».

○ قوله: «**ثم قال: «من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟» فعملت النصارى، ثم قال: «من يعمل من صلاة العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين؟**» فأنتم هم» عملت **اليهود والنصارى** أكثر، فعملت **اليهود** من أول النهار إلى نصفه، من طلوع الشمس إلى الظهر على قيراط، وعملت **النصارى** من الظهر إلى العصر على قيراط، وعملت هذه **الأمة** من العصر إلى المغرب على قيراطين فهم أقل عملًا وأكثر أجرًا، فأولئك عملوا على قيراط وهؤلاء على قيراطين.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإجارة، باب «الإجارة إلى صلاة العصر»، رقم (٢٢٦٩).

○ قوله: «فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: «ما لنا أكثر عملًا وأقل أجرًا؟!»»، قال: «هل نقصتكم من حقكم شيئًا؟»، قالوا: «لا»، قال: «ذلك فَضْلِي أوتيه من أشاء»» إذا اتفقتَ مع أجير على أجرة في عمل معين واتفقتَ مع ثانٍ على أجرة أكثر فليس للأول أن يعترض؛ لأن لك أن تتفضَّل على هذا بالزيادة، ولا حرج.

❁ **وفيه فوائد:**

الأولى: أن هذه الأمة أفضل من الأمم السابقة؛ لكونها عملت قليلًا وأُجِرَت كثيرًا، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحَديد: ٢١]، **ففيه**: فضل الإسلام.

وسبب تفضيلها على الأمم قبلها: شرف دينها، وقوة إيمانها ويقينها، وشرف نبيها كما **قال عمر** رضي الله عنه: «**إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله**»[1].

الثانية: أن الثواب على الأعمال ليس على قدر النَّصب والتَّعب ولا على جهة الاستحقاق؛ لأن العبد لا يستحقُّ على خدمة مولاه أجرة بل المولى يُعطِيه من فضله، وإلَّا له أن لا يُعطِيه على خدمته أجرًا؛ لأنه عبده يتصرف فيه.

الثالثة: فيه ضرب الأمثال وتقريب المعاني إلى الأذهان، وهو كثير في الكتاب والسنة.

الرابعة: أن هذه الأمة آخر الأمم، ودلَّ عليه ما في «**الصحيحين**» عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ بِإِصْبَعَيْهِ هَكَذَا

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ١٣٠).
وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين لاحتجاجهما جميعًا بأيوب بن عائذ الطائي، وسائر رواته ولم يخرجاه، وله شاهد من حديث الأعمش عن قيس بن مسلم».

بِالْوُسْطَى وَالَّتِي تَلِي الْإِبْهَامَ: «**بُعِثْتُ وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**»[١].

الخامسة: أن أجر **النصارى** كان أكثر من أجر **اليهود**؛ لأن **اليهود** عملوا نصف النهار بقيراط **والنصارى** نحو ربع النهار بقيراط، ولعل ذلك باعتبار ما حصل لمن آمن من **النصارى بموسى وعيسى عليهما السلام** فحصل لهم تضعيف الأجر مرتين، بخلاف **اليهود** فإنهم لما بُعِثَ **عيسى** عليه السلام كفروا به.

السادسة: فيه دليل **لأهل السنة** على أن الثواب من الله على سبيل الإحسان، خلافًا **للمعتزلة** الذين يقولون إن الثواب أجرة على العمل، فالعبد يخلق فعل نفسه، فإذا صلى هو الذي يخلق الصلاة، وإذا زنى هو الذي يخلق الزنا، إذًا يجب على الله أن يُثيبه على الطاعة؛ لأن هو الذي خلق فعلَه فهذا فعلُهُ، ويستحقُّ على الله الثواب والأجر كما يستحقُّ الأجير أجرته[٢] وقالوا: إن الله لا يُثيب الإنسان فضلًا منه وإحسانًا؛ لأنه يكون لله مِنَّة عليه، فيُوجِبون على الله الثواب، كما أنه يجب عليه أن يُعاقب العاصي ولا يعفوا عنه؛ لأن الله توعَّدَه، والله لا يخلف الميعاد[٣].

وهذا من جهلهم وضلالهم؛ فالثواب فضل من الله ومِنَّة منه؛ فهو الذي وَفَّقَ العبد للعمل، وإنما يستحقُّ العبد الثواب بفضل من الله؛ لأن الله هو المتفضِّل على عبده، ولو حاسب الله العبد لأحاطت النعمة الواحدة بجميع عمله، فالثواب من الله على سبيل الإحسان.

۞۞۞

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، «**والنازعات**»، باب (١)، رقم (٤٩٣٦)، ومسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم (٢٩٥٠).

(٢) انظر: «**الكشاف**» للزمخشري (١/ ٥٩٠)، و«التفسير الكبير» للرازي (١١/ ١٣).

(٣) انظر: «المواقف» للإيجي (٣/ ٤٩٠).

(٤) انظر: «جامع الرسائل» لابن تيمية (١/ ١٤٦-١٥٢)، و«مدارج السالكين» (١/ ٣٣٣).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وفيه أيضًا: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وللنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة، وكذلك هم تَبَعٌ لنا يوم القيامة، نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة»».

الشَّرْحُ

هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم[١]، وفي «الصحيحين» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**نَحْنُ الآخِرُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، ثُمَّ هَذَا يَوْمُهُمْ الَّذِي فُرِضَ عَلَيْهِمْ فَاخْتَلَفُوا فِيهِ، فَهَدَانَا اللهُ فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، الْيَهُودُ غَدًا، وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ**»[٢].

○ قوله: «**أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا**» قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «**قال ابن بطال**: «ليس المراد أن يوم الجمعة فُرِضَ عليهم بعينه فتركوه؛ لأنه لا يجوز لأحد أن يترك ما فرض الله عليه وهو مؤمن، وإنما يدل ـ والله أعلم ـ أنه فُرِضَ عليهم يوم من الجمعة وُكِلَ إلى اختيارهم ليُقِيموا فيه شريعتهم فاختلفوا في أي الإيام هو؟،

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، رقم (٨٥٦) من حديث أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب «فرض الجمعة»، رقم (٨٧٦)، ومسلم، كتاب الجمعة، رقم (٨٥٥).

ولم يهتدوا ليوم الجمعة»[١]، ومال **عياض** إلى هذا ورَشَّحَهُ بأنه لو كان فُرِضَ عليهم بعينه لقيل «**فخالفوا**» بدل «**فاختلفوا**»[٢]وقال النووي: «**يمكن أن يكونوا أُمِرُوا به صريحًا فاختلفوا هل يلزم تعينه أم يسوغ إبداله بيوم آخر؟، فاجتهدوا في ذلك فاخطؤا**»[٣]، انتهى»[٤].

وخالفهم **العراقي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: «**فالظاهر الأرجح**: أنه فُرِضَ عليهم يوم الجمعة بعينه فخالف فيه **بعضهم** بغير حقٍّ ما ندري بالإبدال أو غيره؛ فإن أوجه الغلط والمخالفة كثيرة، والله أعلم»[٥].

وظاهر قوله ﷺ: «**أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا**»: أنه فُرِضَ عليهم بعينه، وفُرِضَ عليهم تعظيمه فاختلفوا فعُوقِبُوا بالحرمان، وهدانا الله له[٦].

وفي قوله: «**فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة**»: فضل هذه الأمة، وأنهم هم أهل الهداية والرحمة والمغفرة، وهم الذين تتضاعف أجورهم.

○ قوله: «**نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة**» معناه: الآخرون في الوجود والزمان، والسابقون في الفضل ودخول الجنة، وهذا يدل على فضل هذه الأمة.

---

(١) انظر: شرح «صحيح البخاري» لابن بطال (٢/ ٤٧٦).
(٢) انظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض (٣/ ٢٥٠).
(٣) انظر: شرح النووي على «صحيح مسلم» (٦/ ١٤٣).
(٤) «فتح الباري» (٢/ ٣٥٥).
(٥) «طرح التثريب» (٣/ ١٤٢).
(٦) انظر: «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» لابن رجب (٥/ ٣٣٦).

۞ **وفيه فوائد:**

الأولى: فضيلة هذه الأمة حيث هداهم الله لأفضل أيام الأسبوع وهو يوم الجمعة، وهذا **هو الشاهد** من الحديث.

الثانية: أن الله يهدي من يشاء بفضله، ويُضِلُّ من يشاء بعدله، لا راد لِمَا قضاه، ولا مُعقِّب لأمره، وهو سبحانه وتعالى يتفضَّل على من يشاء، ويهدي من يشاء، والهداية ملكه سبحانه وليس ملكًا للعبد.

الثالثة: فضيلة يوم الجمعة؛ لاختياره تعالى لأمة محمد ﷺ.

ويوم الجمعة له خصائص وفضائل كثيرة ذكر **الإمام ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ في «**زاد المعاد**» ثلاث وثلاثين خاصة[(١)]:

منها: استحباب كثرة الصلاة على النبي ﷺ فيه وفي ليلته.

ومنها: أن فيه ساعة الإجابة، وهي الساعة التي لا يسأل الله عبد مسلم فيها شيئًا إلَّا أعطاه؛ في «**الصحيحين**»[(٢)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَقَالَ: «**فِيهِ سَاعَةٌ لَا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ**»، وَأَشَارَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُهَا، وذكر **الحافظ ابن حجر** في «**فتح الباري**»[(٣)] فيها أربعين قولًا، **قال ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وأرجح هذه الأقوال:** قولان تضمنتهما الأحاديث الثابتة، وأحدهما أرجح من الآخر، **الأول:** أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة، **والقول الثاني:** أنها بعد العصر، وهذا **أرجح القولين**، وهو قول **عبدالله بن سلام وأبي هريرة**

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (١/ ٣٧٥ - ٤٢١)

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب «الساعة التي في يوم الجمعة»، رقم (٩٣٥)، ومسلم، كتاب الجمعة، رقم (٨٥٢).

(٣) «فتح الباري» (٢/ ٤١٦ - ٤٢٠).

والإمام أحمد وخلق»[١].

ومنها: أنه فيه خلق الله آدم، وأهبطه الله إلى الأرض.

ومنها: أنه مُوافِق ليوم الجمع الأكبر والموقف الأعظم يوم القيامة، فإن القيامة تقوم يوم الجمعة، وله خصائص كثيرة.

❁❁❁

(١) «زاد المعاد» (١/ ٣٨٩ - ٣٩٠).

❁ **قَالَ المُؤَلِّفُ** رَحِمَهُ اللهُ:

«وفيه تعليقًا: عن النبي ﷺ أنه قال: «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة». انتهى».

الشَّرْح

○ قوله: «**وفيه تعليقًا عن النبي ﷺ أنه قال «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»**» عَلَّقَهُ البخاري في «**صحيحه**»[(١)] في كتاب الإيمان، باب «**الدين يسر**».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: «**وهذا الحديث المُعلَّق لم يُسنِده المؤلف** في هذا الكتاب؛ لأنه ليس على شرطه، نعم وصله في كتاب «**الأدب المفرد**»[(٢)]، وكذا وصله أحمد بن حنبل[(٣)] وغيره[(٤)] من طريق محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، وإسناده حسن، استعمله **المؤلف** في الترجمة لكونه متقاصِرًا عن شرطه، وقَوَّاهُ بما دل على معناه؛ لتناسب السهولة واليسر»[(٥)].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: «خَرَّجَ الإمام أحمد من طريق ابن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قيل لرسول

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ٢٣).

(٢) «الأدب المفرد» (٢٨٧).

(٣) «مسند أحمد» (١/ ٢٣٦).

(٤) «مسند عبد بن حميد» (٥٦٩).

(٥) «فتح الباري» (١/ ٩٤).

الله ﷺ: «**أي الأديان أحب على الله؟**»، قال: «**الحنيفية السمحة**»[١]، وخَرَّجَهُ الطبراني ولفظه: «**أي الإسلام أفضل؟**»[٢]، وخَرَّجَهُ البزار في «مسنده» ولفظه: «**أي الإسلام ـ أو أي الإيمان ـ أفضل؟**»[٣].

وهذا الإسناد ليس على شرط البخاري؛ لأنه لا يحتج **بابن إسحاق**[٤]، **ولا بروايات داود بن الحصين عن عكرمة**؛ فإنها مناكير عند **ابن المديني**، **والبخاري** لا يُخالف في ذلك وإن كان قد خَرَّجَ لهما منفردين.

وخَرَّجَ البزار هذا الحديث من وجه آخر[٥] لكن إسناده لا يصح، وخَرَّجَه الطبراني من وجه ثالث[٦] ولا يصح إسناده أيضًا.

وخَرَّجَ الإمام أحمد من حديث ابن أبي الزناد، عن أبيه، عن عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال لهم يوم زفن[٧] الحبشة في المسجد: «**لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، إني أُرْسِلت بحنيفية سمحة**»[٨] [٩].

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) «المعجم الأوسط» (١٠٠٦)، و«المعجم الكبير» (١١/ ٢٢٧).

(٣) «كشف الأستار عن زوائد البزار» (١/ ٥٨).

(٤) قال الهيثمي: «رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الأوسط» والبزار، وفيه: ابن إسحاق وهو مدلس، ولم يصرِّح بالسماع». «مجمع الزوائد» (١/ ٦٠)
وقال ابن حجر: «وهكذا رواه عبد الأعلى وعبدالرحمن بن مغراء وعلي بن مجاهد وغيرهم عن محمد بن إسحاق، ولم أره من حديثه إلا مُعنْعَنًا». «تغليق التعليق» (٢/ ٤١).

(٥) «كشف الأستار» (١/ ٥٨).

(٦) «المعجم الكبير» (١١/ ٢٢٧).

(٧) الزَّفْن: شبيه بالرَّقْص، انظر: «جمهرة اللغة» لابن دريد (٢/ ٨٢١).

(٨) «مسند أحمد» (٦/ ٢٣٣).
قال ابن حجر: «هذا الإسناد حسن»، «تغليق التعليق» (٢/ ٤٣)

(٩) انظر: «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» (١/ ١٣٥).

وله شاهد مرسل في «**طبقات ابن سعد**»[١]، وفي الباب: عن أُبي بن كعب، وجابر، وابن عمر، وأبي أمامة، وأبي هريرة، وغيرهم[٢]، فالحديث ضعيف بهذا الإسناد، وله شواهد يتقوَّى بها.

○ قوله: «**الحنيفية**» مِلَّة إبراهيم، والحنيف في اللغة: من كان على مِلَّةِ إبراهيم، وسُمِّيَ إبراهيم حنيفًا لميله عن الباطل إلى الحقِّ؛ لأن أصل الحنف الميل، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧].

○ قوله: «**السمحة**» السهلة، أي: أنها مبنية على السهولة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ [الحج: ٧٨][٣].

والشاهد من الحديث: أن الشريعة الإسلامية مبنيَّة على اليُسر والسُّهولة والسَّماح.

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ﴾ [الحج: ٧٨] أي: مشقة وعسر، بل يسَّره غاية التيسير، وسَهَّلَهُ بغاية السهولة، فأولًا ما أمر وألزم إلَّا بما هو سهل على النفوس، لا يثقلها ولا يؤودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف خفَّفَ ما أمر به إما بإسقاطه أو إسقاط بعضه.

ويُؤخذ من هذه الآية: قاعدة شرعية، وهي «**أن المشقة تجلب التيسير**»، و«**الضرورات تُبيح المحظورات**»، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية شيء كثير معروف في كتب الأحكام»[٤].

---

(١) «الطبقات الكبرى» (٣/ ٣٩٥).
قال ابن حجر: «مرسل صحيح الإسناد»، «تغليق التعليق» (٢/ ٤١)
(٢) «مقدمة فتح الباري» (١/ ٢٠).
(٣) انظر: «فتح الباري» (١/ ٩٤).
(٤) «تفسير السعدي» (ص ٥٤٧).

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

قال الشيخ عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسَّر، لا إصر فيه، ولا أغلال، ولا مشقات، ولا تكاليف ثقال»[١].

وفي «**الصحيحين**»[٢] عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «**مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ أَحَدُهُمَا أَيْسَرُ مِنَ الآخَرِ إِلَّا اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ**».



(١) «تفسير السعدي» (ص ٣٠٥).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب «إقامة الحدود والانتقام لحرمات الله»، رقم (٦٧٨٦)، ومسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٣٢٧) ـ واللفظ له ـ.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وعن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه قال: «عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار، وليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من مخافة الله إلَّا كان كمثل شجرة يبس ورقها إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها، وإن اقتصادًا في سنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة».

الشرح

هو أثر موقوف على أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه.

أخرجه ابن المبارك في «**الزهد**»[(١)]، ومن طريقه ابن أبي شيبة في «**المصنف**»[(٢)]، وأحمد في «**الزهد**»[(٣)]، وأبو داود في كتاب «**الزهد**»[(٤)]، وابن بطة في «**الإبانة**»[(٥)]، واللالكائي في «**شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة**»[(٦)]، وأبو نعيم في «**حلية الأولياء**»[(٧)] جميعهم عن الربيع بن أنس.

واختلفوا في شيخ الربيع؛ فعند أحمد في «**الزهد**» عن أبي

(١) «الزهد» (٨٧).
(٢) «المصنف» (٧/ ٢٢٤).
(٣) «الزهد» لأحمد (ص ١٩٦، ١٩٧).
(٤) «الزهد» لأبي داود (١/ ٢٠٣).
(٥) «الإبانة الكبرى» (٢٥٠).
(٦) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١٠).
(٧) «حلية الأولياء» (١/ ٢٥٢، ٢٥٣).

قتادة، وعند أبي نعيم في «**الحلية**» عن أبي العالية، وعند الباقي عن أبي داود، ثلاثتهم عن أُبَي بن كعب رضي الله عنه.

○ قوله: «**عليكم بالسبيل والسنة**» السبيل: هو الطريق المُوصِل إلى الله ودار كرامته وهي الجنة، وهي طريق الحقِّ، وهي سبيل الرسول ﷺ وسبيل أتباعه، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨].

وهو الصراط المستقيم الذي أُمِرنا في كل ركعة أن نسأل الله تعالى أن يهدينا إياه، قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ونسأل الله أن يجنِّبنا الطريق المنحرف عن الصراط المستقيم، وهو طريق المغضوب عليهم وطريق الضَّالِّين، قال تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ٧].

❁ **قَسَّمَ الله الناس ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: مُنْعَمٌ عليهم: هم الذين مَنَّ الله عليهم بالعلم والعمل.

القسم الثاني: مغضوب عليهم: هم الذين يعلمون ولا يعملون - نسأل الله السَّلامة والعافية - فهم غاوون.

القسم الثالث: ضالون: هم من يعملون بلا علم، يتخبطون في الظلمات.

وهذا الدعاء من أنفع الأدعية وأعظمها وأجمعها، وحاجة العبد إليه أعظم من حاجته إلى الطعام والشراب، بل أعظم من حاجته إلى النفس الذي يتردد بين جنبيه؛ لأن العبد إذا فقد الطعام والشراب والنفس مات الجسم، والجسم لا بُدَّ من موته عاجلًا أو آجلًا، ولا يضره الموت إذا كان مستقيمًا على طاعة الله، لكن إذا فقد الهداية

مات روحه وقلبه، وصار إلى النار، ومن رحمة الله بنا أن أوجب علينا أن ندعو بهذا الدعاء في اليوم والليلة سبع عشرة مرة في الفرائض دون النوافل، وكذا في النوافل كل ركعة، وعلَّمنا ربنا قبل ذلك الثناء عليه سبحانه وتمجيده، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٢-٤] ثناء وتمجيد، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، ثم بعد ذلك الدعاء ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

وإذا أراد المسلم الدعاء فليثني على الله ويمجده ويصلي على النبي ثم يدعو، عَنْ أَبِي عَلِيٍّ عَمْرِو بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ سَمِعَ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيْدٍ صَاحِبَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَقُولُ: سَمِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو فِي صَلَاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللهَ تَعَالَى وَلَمْ يُصَلِّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَجِلَ هَذَا»، ثُمَّ دَعَاهُ، فَقَالَ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ: «**إِذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَمْجِيدِ رَبِّهِ جَلَّ وَعَزَّ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، ثُمَّ يَدْعُو بَعْدُ بِمَا شَاءَ**»(١).

وهو الصراط المستقيم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب «الدعاء»، رقم (١٤٨١)، والترمذي، كتاب الدعوات، باب «ما جاء في جامع الدعوات عن النبي ﷺ»، رقم (٣٤٧٧)، والنسائي، كتاب السهو، باب «التمجيد والصلاة على النبي ﷺ في الصلاة»، (٣/ ٤٤)، وأحمد (٦/ ١٨).
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه». «المستدرك» (١/ ٣٥٤).

○ قوله: «والسنة» هي هدي النبي ﷺ وطريقته.

يحث أُبَيٌّ رضي الله عنه الناس على الطريق المُوصِل إلى الله وعلى هدي النبي ﷺ، والمعنى: الزموا طريق الحقِّ باتباع النبي ﷺ وسنته وهديه.

○ قوله: «فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار» وهذا ما دلت عليه الأحاديث.

منها: ما في «الصحيحين»[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**»، وذكر منهم «**وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**».

ومنها: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[2].

○ قوله: «**وليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من مخافة الله إلَّا كان كمثل شجرة يبس ورقها إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها**» وفيه: فضل لزوم الحقِّ والاستقامة على المعتقد الصحيح، وأن صاحب المعتقد الصحيح ومَنْ لزم السنة واقتدى بالنبي ﷺ تُغْفر ذنوبه بالعمل اليسير، ولهذا قال: «**عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الآذان، باب «من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد»، رقم (٦٦٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٣١).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب فضائل الجهاد، باب «ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله»، رقم (١٦٣٩).

وقال: «وحديث ابن عباس حديث حسن غريب».

الله ففاضت عيناه من خشية الله فتمسه النار، وليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الرحمن فاقشعر جلده من مخافة الله إلَّا كان كمثل شجرة يبس ورقها إلا تحاتت عنه ذنوبه كما تحات عن هذه الشجرة ورقها»؛ لأنه على معتقد سليم وطريق مستقيم.

وفيه: فضل لزوم السنة والاستقامة على الحقِّ، وأن الله يُضاعف الثواب لمن لزم الحقَّ ولو كان العمل قليلًا، بخلاف من فسدت عقائدهم وانحرفت سُبُلهم فإنهم لا تشملهم هذه الفضيلة، فالذي على سبيل السنة يُثيبه الله على العمل القليل أجرًا كثيرًا وتُغْفَر ذنوبه، والذي على البدعة لا تناله هذه المغفرة والفضيلة.

○ قوله: **«وإن اقتصادًا في سنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة»** وهذا قول ابن مسعود[1] وأبي الدرداء[2] رضي الله عنهما كذلك.

وفيه: دليل على أن العمل القليل المُوافِق للسنة خير من الكثير المُخَالِف للكتاب والسنة، العمل القليل المُوافِق للسنة لا يُقارَن بالعمل الكثير الذي يُخَالِف السنة.

وقد أخذ **أُبَيٌّ** رضي الله عنه هذا المعنى من النصوص، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ولم يقل **«أيكم أكثر عملًا»**.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أصوبه وأخلصه، **قال الفضيل بن عياض**: «أخلصه وأصوبه»، قالوا: «يا أبا علي ما أخلصه

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠/ ٢٠٧).
قال الهيثمي: «**رواه الطبراني في «الكبير»**، وفيه: **محمد بن بشير الكندي**، قال يحيى: «**ليس بثقة**»». «مجمع الزوائد» (١/ ١٧٣)

(٢) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (١١٥).

وأصوبه؟»، قال: «إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة، وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ۝١١٠﴾ [الكهف: ١١٠]»[١].

يتبيَّن من هذا أن أُبيًّا ﷺ أخذ هذا المعنى من النصوص؛ **فالصحابة** ﷺ تتلمذوا على يد النبي ﷺ، ولزموه عليه الصلاة والسلام.



(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ٣٣٣).

﴿ قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «يا حبذا، نوم الأكياس وإفطارهم، كيف يَغْبِنُونَ سهر الحمقى وصومهم، ولمثقال ذرة من بِرٍّ مع تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من عبادة الْمُغْتَرِّينَ».

الشَّرح

هذا الأثر أخرجه أحمد في **«الزهد»**[1] قال: حدثنا يزيد، أنبأنا أبو سعيد الكندي، عمن أخبره، عن أبي الدرداء قوله.

والأثر ضعيف؛ ففيه مجهول[2]، ولكن معناه صحيح، ويُؤيِّده أثر أُبَيٍّ رضي الله عنه المتقدِّم.

○ قوله: **«يا حبذا»** مدح.

○ قوله: **«نوم الأكياس وإفطارهم»** الأكياس جمع كَيِّس، وهو العاقل، ومنه: قوله ﷺ **«الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ»**[3] **«الْكَيِّسُ»**

---

(١) «الزهد» (ص ١٣٧)، ومن طريقه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢١١).
وأخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» رقم (٨) عن يعقوب بن عبيد، نا يزيد به.
وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٧/ ١٧٥) من طريق ابن أبي الدنيا به.

(٢) قال العراقي: «رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «اليقين» من قول أبي الدرداء بنحوه، وفيه انقطاع، وفي بعض الروايات «أبي الورد» موضع «أبي الدرداء»، ولم أجده مرفوعًا». «المغني عن حمل الأسفار» (٢/ ١٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب «٢٥»، رقم (٢٤٥٩)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب **«ذكر الموت والاستعداد له»**، رقم (٤٢٦٠)، وأحمد (٤/ ١٢٤) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه. =

يعني: اللبيب الحازم الفطن «**مَنْ دَانَ نَفْسَهُ**» أي: مَنْ حاسب نفسه.

والإنسان الكَيِّسُ خلاف الأخرق والأحمق؛ لأن الكَيِّسَ مجتمع الرأي والعقل، والكَيِّسُ هو اللبيب الحازم الفطن صاحب الرأي والعقل السليم.

○ قوله: «**يا حبذا، نوم الأكياس**» أي: يا حبذا نوم الأكياس العقلاء الذين أرشدتهم عقولهم إلى الاستقامة والعمل بالسنة «**وإفطارهم**» يعني: ولو كانوا يُفطِرُون ولا يصومون، فهم لا يُصلُّون من الليل ولا يصومون النهار لكنهم على السنة والاستقامة، فإذا عملوا قليلًا آجرهم الله كثيرًا.

○ قوله: «**كيف يَغْبِنُونَ سهر الحمقى وصومهم**» الحمقى جمع أحمق، وهو ضعيف العقل الذي يتبع الأهواء المُضِلَّة، أما الكيِّس العاقل والحازم فهو الذي يلزم السنة.

فالأكياس والعقلاء الذين لزموا السنة يَغْبِنُونَ الحمقى ضعفاء العقول الذين يتبعون الهوى والبدع، أي: يسبقونهم، **فالحمقى** الذين يتَّبِعون الهوى والبدع فيُصلُّون كثيرًا من الليل ويصومون كثيرًا لكن على غير سنة، **والأكياس** يُصلُّون بعض الليل وينامون فهم أقل منهم، ويصومون قليلًا لكن إذا صلُّوا أو صاموا فعلى السنة، **فالحمقى** يتَّبعوا الأهواء المُضِلَّة، **والأكياس** على سبيل وسنة.

○ قوله: «**ولمثقال ذرة من بِرٍّ مع تقوى ويقين أعظم وأفضل وأرجح من عبادة الْمُغْتَرِّينَ**» هؤلاء يصومون النهار ويُصلُّون الليل

= **قال الترمذي**: «هذا حديث حسن».

قال ابن طاهر المقدسي: «رواه أبو بكر بن أبي مريم، عن ضمرة بن حبيب، عن شداد بن أوس، **وأبو بكر** ضعيف». «ذخيرة الحفاظ» (٤/١٩٢٨).

فيغترون، لكن عملهم هذا فيه نقص ومخالفة؛ فهم ليسوا على سبيل وسنة، فيغبنهم ويفوق عليهم **الأكياس** بعملهم القليل.

وهذا وإن كان فيه ضعف لكن تُؤيِّدُه النصوص الأخرى.

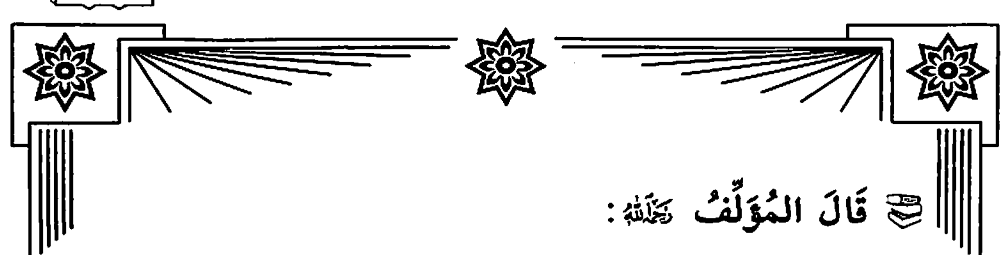
وفي هذا الأثر: فضل الإسلام، فمن كان على الإسلام والسنة فإن الله يضاعف له الأجور ولو كان العمل قليلًا، ومن كان على استقامة وسبيل وطريق صحيح وإخلاص لله وبراءة من الشِّرك وأهله وابتعد عن البدع وانقاد بجوارحه بحسب ما يرسمه الله له فإنه يغبن أصحاب العمل الكثير الذين ليسوا على هذا الوصف.

وفيه: الحذر من الإعجاب بالنفس؛ لأن هذا سبب حبوط العمل وعدم قبوله، مثل: هؤلاء الحمقى الذي يسهرون ويُصلُّون الليل ويصومون النهار ويُعجَبُون بأنفسهم ويغترون.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا من جواهر الكلام وأدلة على كمال فقه الصحابة وتقدُّمِهم على من بعدهم في كل خير رضوان الله عليهم، فاعلم أن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح»[1].



(١) «الفوائد» (ص ١٤١).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«باب: وجوب الإسلام

«وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، قال مجاهد: «**السبل: البدع والشبهات**»».

الشَّرْح

هذا الباب الثاني من أبواب هذه الرسالة، الباب الأول: باب فضل الإسلام، والباب الثاني: باب وجوب الإسلام.

فلَمَّا ذكر **المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ فضل الإسلام ذكر وجوبه وفرضيته، فالإسلام الذي هذا فضله واجب.

○ قوله: «**باب وجوب الإسلام**» فهو فرض لازم؛ لأنه الدين الذي ارتضاه الله لجميع الناس، ويجب على كل أحد أن يُسلِمَ ويدخل فيه، ليس له خيار.

○ «**وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾**» هذه **الآية الأولى** التي ذكرها **المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ في وجوب الإسلام.

وهي دليل على وجوبه؛ لأن الله تعالى أخبر أن من ابتغى دينًا غير الإسلام فلا يُقبل منه وهو في الآخرة خاسر، فدلَّ على وجوب

الإسلام، **قال الحافظ ابن كثير** رحمه الله عن هذه الآية: «**أي: من سلك طريقًا سوى ما شرعه الله فلن يُقبل منه،** ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(١)] [(٢)].

وفي هذه الآية: دليل ظاهر على وجوب الدخول في الإسلام والتزام تعاليمه ظاهرًا وباطنًا، وأن ما سواه من الأديان باطلة مردودة غير مقبولة.

○ «**وقوله تعالى:** ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]»

وهي **الآية الثانية**، وأخبر الله تعالى فيها بأن الدين عنده والذي رضيه هو الإسلام، فيجب على كل إنسان أن يدين بدين الإسلام، **قال الحافظ ابن كثير** رحمه الله عن هذه الآية: «وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] إخبارًا منه تعالى بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوى الإسلام، وهو إتباع الرُّسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى خُتِمُوا بمحمد ﷺ الذي سدَّ جميع الطرق إليه إلَّا من جهة محمد ﷺ، فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين على غير شريعته فليس بمتقبل كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] الآية»[(٣)].

وفيه: دليل على أن الأديان التي عليها اليهود والنصارى وغيرهما باطلة مردودة غير مقبولة، ويتوهَّم اليهود والنصارى أنهم على حقٍّ ودينٍ مقبولٍ، وهذا وهم باطل، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾

---

(١) يأتي تخريجه قريبًا.
(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٨٠).
(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٥٥).

[البَقَرَة: ١١٣]، فهم يتوهَّمون أنهم على دين مقبول مع تكذيبهم لمحمد ﷺ، فهذا من باب الأماني؛ فليسوا على شيء، وليسوا على دين.

○ «وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]» وهي **الآية الثانية**، قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «فالصراط المستقيم: هو سبيل الله الذي دعا إليه، وهو السنة، والسُّبل: هي سُبُل أهل الاختلاف الحائدين عن الصراط المستقيم، وهم أهل البدع، وليس المراد سُبُل المعاصي؛ لأن المعاصي من حيث هي معاصٍ لم يضعها أحد طريقًا تسلك دائمًا على مضاهاة التشريع، وإنما هذا الوصف خاص بالبدع المحدثات»[١].

○ قوله: «**قال مجاهد: «السبل: البدع والشبهات»** أخرجه الطبري في «**تفسيره**»[٢] وقيل: أي: الطرق المختلفة التي عدا هذا الطريق، مثل: اليهودية والنصرانية وسائر المِلَلِ[٣].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً﴾ [البَقَرَة: ٢٠٨] أي: ادخلوا في الإسلام، وهذا أمر، والأمر على الوجوب.

والإسلام هنا الإسلام الخاص، وهو ما جاء به محمد ﷺ وما عليه أمته، فيجب اتباعه والتزامه واعتقاده، وأنه ناسخ لجميع الأديان، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المَائدة: ٤٨]، وفي «**صحيح مسلم**»[٤]

---

(١) «الاعتصام» (١/ ٥٧).
(٢) «تفسير الطبري» (٨/ ٨٨).
(٣) انظر: «تفسير البغوي» (٢/ ١٤٢).
(٤) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٥٣).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلَا نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».**

وكان مناسبًا **للمؤلف** رحمه الله أن يأتي بهذه الآية والحديث في هذا الباب، ولكنه لم يأتِ بهما.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» أخرجاه، وفي لفظ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»».

الشَّرْح

○ قوله: **«وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» أخرجاه»** رواه الشيخان البخاري ومسلم[١].

○ قوله: **«وفي لفظ: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد»** هذا لفظ مسلم[٢]، فكل عمل ليس عليه أمر الله ورسوله ﷺ فهو مردود على صاحبه.

وهذا حديث عظيم، يُعتبر من الأحاديث الذي يدور عليها الإسلام، **قيل**: أن حديث: **«إنما الأعمال بالنيات»**[٣] نصف؛ لأنه ميزان للأعمال الباطنة، وحديث **«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»** النصف الثاني؛ لأنه ميزان الأعمال الظاهرة، ولهذا قيل: **«هو نصف الدين»**، **وقيل**: ثلثه، **وقيل**: ربعه[٤].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب «إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود»، رقم (٢٦٩٧)، ومسلم، كتاب الأقضية، رقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، رقم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم (١)، ومسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص ٩، ١٠).

قال الإمام النووي رحمه الله: «وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ؛ فإنه صريح في ردِّ كل البدع والمخترعات»(١).

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام كما أن حديث: «**الأعمال بالنيات**» ميزان للأعمال في باطنها وهو ميزان للأعمال في ظاهرها، فكما أن كل عمل لا يُراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، وكل من أحدث في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء»(٢).

ومن فوائد هذا الحديث ودلالاته وأحكامه: كمال هذا الدين؛ لقوله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»، وقد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: «**تَرَكْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ إلا وَهُوَ يُذَكِّرُنَا مِنْهُ عِلْمًا**»(٣).

وفيه من الفوائد: أن من شرط قبول العمل أن يكون المرء مُتبِعًا للنبي ﷺ، فمِنْ شرط قبول العمل موافقته للشريعة وأن يكون مُتبِعًا فيه للرسول ﷺ، فالعمل لا يُقبل إلَّا بشرطين: الإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ، وقد دل على هذين الشرطين قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ يعني: أخلص، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يعني: مُتَّبع لرسول الله ﷺ.

---

(١) شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٢/ ١٦).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص ٥٩).
(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٥٥).

﴿ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وللبخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلَّا من أبى»، قيل: «ومن يأبى؟!»، قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»».

الشَّرح

هذا الحديث أخرجه البخاري رحمه الله في «صحيحه»[1].

وفي هذا الحديث من الفوائد: وجوب طاعة النبي ﷺ والانقياد لأمره؛ لأن طاعته من طاعة الله كما قال الله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وطاعة النبي ﷺ من تمام تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله؛ لأن شهادة أن محمدًا رسول الله ليست كلمة يقولها الإنسان بلسانه، بل لا بُدَّ من معرفة المعنى.

وطاعة الرسول ﷺ تكون بطاعة أوامره، واجتناب ما نهى عنه وحَرَّمَ، وتصديقه في أخباره، وأن لا يُعبَد الله إلَّا بما شرع.

وفيه: أن من عصى النبي ﷺ وامتنع عن طاعته فقد أبى دخول الجنة.

والذي يأبى هل هو الكافر أو العاصي؟

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب «الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ»، رقم (٧٢٨٠).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والموصوف بالإباء وهو الامتناع إن كان كافرًا فهو لا يدخل الجنة أصلًا، وإن كان مسلمًا فالمراد منعه من دخولها مع أول داخل إلَّا من شاء»[١].



(١) «فتح الباري» (١٣/ ٢٥٤).

﴿ **قَالَ المُؤَلِّفُ** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وفي «الصحيح» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: مُلْحِدٌ في الْحَرَمِ، وَمُبْتَغٍ في الإسلام سنة جاهلية، وَمُطَّلِبُ دم امرئ مسلم بغير حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دمه». رواه البخاري.

قال ابن تيمية: «قوله «سنة جاهلية» يندرج فيها كل جاهلية مطلقة أو مقيَّدة، أي في شخص دون شخص كتابية أو وثنية أو غيرهما، من كل مخالفة لما جاء به المرسلون»».

الشَّرْح

هذا الحديث رواه البخاري في «صحيحه»[1].

○ قوله: «**أبغض الناس إلى الله ثلاثة**» فيه: إثبات صفة البغض لله، وهي صفة كمال تليق بجلال الله وعظمته كما هو **مذهب أهل السنة والجماعة**، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المَائدة: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبَة: ٤] **فيهما**: إثبات صفة المحبة لله.

○ قوله: «**مُلْحِدٌ في الْحَرَمِ**» وهو الأول، وأصل الإلحاد: الميل والعدول عن الشيء، والمُلْحِد: هو المائل عن الحقِّ، وهذه الصيغة تُستعمل للخارج عن الدين، فإذا وُصِفَ بها من ارتكب المعصية كان ذلك إشارة إلى عظمها.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الديات، باب «من طلب دم امرئ بغير حق»، رقم (٦٨٨٢).

العزم المصمم يؤاخذ به[١].

وفي هذا الحديث: أن هؤلاء الثلاثة ـ المُلْحِدِ في الْحَرَمِ، وَالمُبْتَغِي في الإسلام سنة جاهلية، وَالمُطَّلِبِ دم امرئ مسلم بغير حَقٍّ لِيُهَرِيقَ دمه ـ يبغضهم الله تعالى، **والشاهد منه**: «وَمُبْتَغٍ في **الإسلام سنة جاهلية**».

وتحديد العدد بثلاث غير مراد، فهناك من يبغضهم الله ﷿ غير هؤلاء الثلاثة، فليس هذا بحصر، وإنما ذكرهم النبي ﷺ لغرض.



(١) «فتح الباري» (١٢/ ٢١١).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وفي «الصحيح» عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «**يا معشر الْقُرَّاءِ، استقيموا، فقد سَبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا**»، وعن محمد بن وضَّاح أنه كان يدخل المسجد فيقف على الحلق فيقول: ... فذكره».

الشَّرْحُ

هذا الأثر رواه البخاري في «**صحيحه**»(١)، وهو موقوف على حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

○ قوله: «**يا معشر الْقُرَّاءِ**» والْقُرَّاءُ جمع قارئ، والمراد بهم: العلماء بالقرآن، يحفظونه ويتعلمون معانيه ويعملون بها، عَنْ أَبِي عَبْدِالرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ: قَالَ: «**حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقْرِئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقْتَرِئُونَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: «فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ»**»(٢).

○ قوله: «**استقيموا**» أي: الزموا طريق الاستقامة على الكتاب والسنة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ [فُصِّلَت: ٣٠].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب «**الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ**»، رقم (٧٢٨٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤١٠).

○ قوله: «**فقد سَبقتم**» بفتح السين، وحكاها **بعضهم** بضمها، والمعتمد الأول[١].

○ قوله: «**فقد سَبقتم سبقًا بعيدًا**» يعني: سبقتم غيركم، **قال الحافظ ابن حجر** ﷺ: «أي: ظاهرًا، ووصفه بالبعد لأنه غاية شأو السابقين، والمراد: أنه خاطب بذلك من أدرك أوائل الإسلام، فإذا تمسك بالكتاب والسنة سبق إلى كل خير؛ لأن من جاء بعده إن عمل بعمله لم يصل إلى ما وصل إليه من سبقه إلى الإسلام، وإلَّا فهو أبعد منه حِسًّا وحُكمًا»[٢].

○ قوله: «**فإن أخذتم يمينًا وشمالًا**» أي: انحرفتم عن الجادة.

○ قوله: «**لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا**» أي: قويًا متمكنًا.

○ قوله: «**وعن محمد بن وضَّاح أنه كان يدخل المسجد فيقف على الحلق فيقول:... فذكره**» كذا عنده في «**البدع والنهي عنها**»[٣] عن همام بن الحارث قال: كان حذيفة يدخل المسجد فيقف على الحلق، فيقول: «**يا معشر الْقُرَّاءِ، اسلكوا الطريق، فلئن سلكتموها لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن أخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا**».

وفيه: إغراء وحثٌّ لهؤلاء الْقُرَّاءِ للتمسك بتعاليم الإسلام واقتفاء آثار النبي ﷺ ظاهرًا وباطنًا في الاعتقاد والسلوك والمعاملات.

وكلام **حذيفة** ﷺ مُنتزَعٌ من قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

❁❁❁

(١) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٢٥٧).
(٢) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٢٥٧).
(٣) «البدع» (ص ١٤).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقال: أنبأنا ابن عيينة، عن مجالد، عن الشعبي، عن مسروق قال: قال عبدالله ـ يعني: ابن مسعود ـ: «ليس عام إلَّا والذي بعده شر منه، لا أقول عام أمطر من عام، ولا عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، لكن ذهاب علمائكم وخياركم، ثم يحدث أقوام يقيسون الأمور بآرائهم فيهدم الإسلام ويثلم».

الشَّرْحُ

«وقال» أي: ابن وضَّاح في **«البدع»**[1]: **«أنبأنا ابن عيينة، عن مجالد، عن الشعبي، عن مسروق قال: قال عبدالله ـ يعني: ابن مسعود ـ: «ليس عام إلا والذي بعده شر منه، لا أقول عام أمطر من عام، ولا عام أخصب من عام، ولا أمير خير من أمير، لكن ذهاب علمائكم وخياركم، ثم يحدث أقوام يقيسون الأمور بآرائهم فيهدم الإسلام ويثلم»**.

وكذا أخرجه الطبراني في **«المعجم الكبير»**[2] من طريق سفيان به.

○ قوله: **«ليس عام إلَّا والذي بعده شر منه»** فيه: إشارة إلى سنة من سنن الله الكونية، أنه كُلَّما تقدَّم الزمان كُلَّما عظم الشَّرُّ والفساد.

---

(١) «البدع» (ص ٨١).

(٢) «المعجم الكبير» (٩/ ١٠٥).

قال ابن حجر: «وبهذا اللفظ أخرج الطبراني بسند جيد عن ابن مسعود نحو هذا الحديث موقوفًا عليه، قال: «ليس عام إلا والذي بعده شر منه،....»». «فتح الباري» (١٣/ ٢٠).

ويدل على هذا ويُؤيِّده: ما في **«صحيح البخاري»**[(١)] عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنَ الْحَجَّاجِ، فَقَالَ: **«اصْبِرُوا؛ فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ»**، سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ، **قال ابن بطال** رَحِمَهُ اللهُ: **«حديث أنس من علامات النبوة؛ لإخبار النبي ﷺ بتغير الزمان وفساد الأحوال، وذلك غيب لا يُعْلَم بالرأي وإنما يُعْلَم بالوحي»**[(٢)].

وفي الجملة: لا يأتي عام إلَّا والذي بعد أشر منه، وإلَّا قد يأتي زمان خير من الذي قبله، فقد يكون الزمان الذي فيه **الإمام أحمد وغيره** خيرًا من الزمان الذي سبقه، والزمان الذي فيه الدُّعاة والمصلحون **كمحمد بن عبدالوهاب وأئمة الدعوة** خيرًا من الزمان الذي سبقه، وقد يكون ما قاله ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُبيِّن فيه هذا الأمر الذي فهمه من النبي ﷺ كما فهمه أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

○ قوله: **«لا أقول عام أمطر من عام، ولا عام أخصب من عام»** مراده: أن الشَّرَّ لا يرتبط بالقطر ولا بالجدب، فقد يكون جدب ولا يكون شرٌّ، وقد يكون فقر ولا يكون شرٌّ.

○ قوله: **«ولا أمير خير من أمير»** وكذلك لا يكون مرتبطًا بأشخاص كما في **«الصحيحين»**[(٣)] عَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: **«فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»**.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب «لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه»، رقم (٧٠٦٨).

(٢) شرح «صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ١٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب «شهود الملائكة بدرًا»، باب (١٢)، رقم (٤٠١٥)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦١).

○ قوله: «**لكن ذهاب علمائكم وخياركم، ثم يحدث أقوام يقيسون الأمور بآرائهم فيهدم الإسلام ويثلم**» يعني: ليس الشَّرُّ مرتبطًا بالفقر ولا بالجدب ولا بالأشخاص ولا بالحُكَّام، وإنما يكون بموت العلماء الربَّانيين الذين يقيسون الأمور بميزان الشرع؛ فإن ذهابهم ذهاب العلم، ومن ثمَّ ذهاب الخير الذي في المسلمين، لأن المسلمين تميزوا عن غيرهم من الأمم بالعمل بالوحي المُنزَّل من السماء، فإذا فقدوه حصل من الشَّرِّ بمقدار ما فقدوه من الوحي كما حدث لغيرهم من الأمم.

ويدل على ذلك: ما في «**الصحيحين**»[1] عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرِو ابْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ الْعِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**»، وإلى هذا أشار ابن مسعود رضي الله عنه بقوله «**ثم يحدث أقوام يقيسون الأمور بآرائهم فيهدم الإسلام ويثلم**».

فإذا مات العلماء والأخيار لا بُدَّ أن يحل محلهم غيرُهم، يتولى العلماء الإفتاء والقضاء والحسبة فإذا ماتوا يتولاها من ليس أهلًا لها، ويضطرون إلى الفتوى، ولا يقولون «**لا ندري**»؛ لأنه وُضِعَ للإفتاء، فيسألهم الناس فيُفتون بغير علم فيَضِلُّون ويُضِلُّون.

وفيه: دليل على التحذير من الدعوة إلى الله على غير هدى وبصيرة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

---

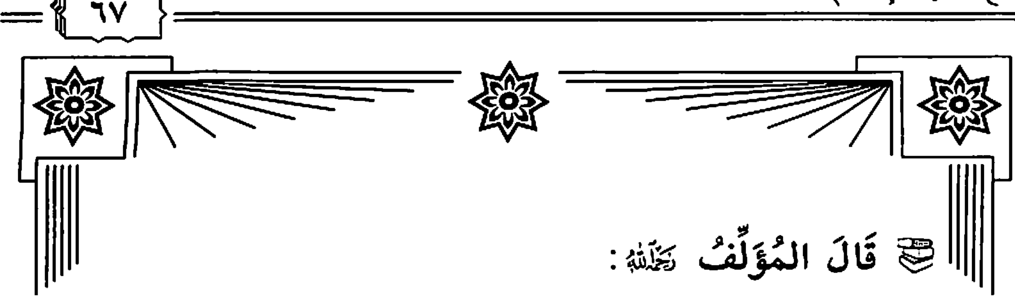
(١) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب «كيف يُقبض العلم؟»، رقم (١٠٠)، ومسلم، كتاب العلم، رقم (٢٦٧٣).

وفيه: دليل على التحذير من القول على الله بغير علم؛ فهو من أكبر الكبائر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

والقول على الله بلا علم من إرادة الشيطان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

وفيه: دليل على وجوب الإسلام، وأنه يجب على الإنسان أن يدخل في الإسلام حتى يكون من العلماء والأخيار؛ فإنه إذا ذهب الإسلام حدث أقوام يقيسون الأمور بآرائهم فيهدم الإسلام ويثلم.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«باب: «تفسير الإسلام

وقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ [آل عمران: ٢٠].

وفي «الصحيح» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا».

وفيه: عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده»».

الشرح

هذا الباب الثالث من أبواب هذه الرسالة.

ذكر المؤلف رحمه الله «باب فضل الإسلام»، وأن من دخل في الإسلام كُفِّرَت ذنوبه، والإسلام يَجُبُّ ما قبله فتغفر ذنوبه السابقة، وأن المسلم أتى بالسبب الذي رحمه الله به، فيدخل الجنة برحمة الله.

وذكر المؤلف رحمه الله «باب وجوب الإسلام»، وأن الله تعالى أوجب على عباده أن يعبدوه، والإسلام هو العبادة، وهو توحيد الله وإخلاص الدين له، وأداء حقوقه، وهذا أوجبه الله على الناس، بل على الثقلين الجنِّ والإنس؛ لأن الله خلقهم لذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

وذكر **المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب «**تفسير الإسلام**» وما المراد به، وتقدَّم أن الإسلام له معنيان: معنى عام ومعنى خاص.

المعنى العام: هو دين الأنبياء جميعًا، وهو توحيد الله وإخلاص الدين له، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة كل نبي في زمانه فيما جاء به من الشريعة، فالإسلام هو دين **آدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد** عليهم الصلاة والسلام.

المعنى الخاص: هو توحيد الله والعمل بالشريعة الخاتمة التي جاء بها محمد ﷺ كما في «**الصحيحين**»[1] عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**».

صَدَّرَ **المؤلف** رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا الباب بـ«**وقول الله تعالى**: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ [آل عِمرَان: ٢٠]».

قال الإمام البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ أي: خاصموك يا محمد في الدين، وذلك أن اليهود والنصارى قالوا: «**ألسنا على ما سميتنا به يا محمد، وإنما اليهودية والنصرانية نسب، والدين هو الإسلام، ونحن عليه؟!**»، فقال الله تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي: انقدت لله وحده بقلبي ولساني وجميع جوارحي، وإنما خُصَّ الوجه لأنه أكرم الجوارح للإنسان، وفيه بهاؤه، فإذا خضع وجهه للشيء فقد خضع له جميع جوارحه، **وقال الفرَّاء**: معناه: «**أخلصت عملي لله**»، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ أي: ومن اتبعني، فأسلم كما أسلمتُ»[2].

---

(١) يأتي قريبًا.

(٢) «تفسير البغوي» (١/ ٢٨٧).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «**وتوجيه وجهه إليه يتضمن إقباله بالكلية على ربِّهِ، وإخلاص القصد والإرادة له، وإقراره بالخضوع والذل والانقياد، قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾** [آل عمران: ٢٠] وذكر الوجه إذ هو أشرف ما في الإنسان ومجمع الحواس، وأيضًا ففيه معنى التوجه والقصد من قوله:

استغفر الله ذنبًا لست محصيه ... رب العباد إليه الوجه والعمل[(١)]

والآية واضحة في تفسير الإسلام، فقوله تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ تفسير للإسلام، فإسلام الوجه لله يعني: إخلاص العمل له، والانقياد بالجوارح ظاهرًا، والبراءة من الشِّرك وأهله، فالإسلام يشمل أمور ثلاثة: الإخلاص في الباطن، وانقياد الجوارح في الظاهر، والبراءة من الشِّرك وأهله.

○ قوله: «وفي «**الصحيح**» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**»» رواه الشيخان ولكن من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما[(٢)]، بلفظ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ**».

وفيه: فَسَّرَ الإسلام بالشهادتين، والصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وهو ظاهر في مناسبته الترجمة.

---

(١) «زاد المعاد» (٤/ ٢٤٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «دعاؤكم إيمانكم»، رقم (٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٦).

وأصل الإسلام وأساسه: الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولنبيه محمد ﷺ بالرسالة، «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله**» هذا أصل الدين والمِلَّةِ، ولا إسلام بدونهما.

وإقامة الصلاة بعدهما، وهي عمود الإسلام، قال: «**وَإِقَامِ الصَّلَاةِ**» ولم يقل «**وتصلي**»؛ لأن هناك فرق بين الصلاة وبين إقامتها، فقد يُصلِّي العبد صلاة صورية يركع فيها ويسجد ويقف، ويأتي بأركانها وشروطها لكنها صلاة صورية ليست حقيقية، فالصلاة الحقيقية أن يُقيمها كما أمر الله تعالى ورسوله ﷺ، فيقيمها بشروطها وخشوعها وهيأتها وإخلاصها، فإقامة الصلاة إقامتها ظاهرًا وباطنًا، ظاهرًا بأداء الشروط والأركان والواجبات، وباطنًا بحضور القلب والإخلاص فيها.

«**وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ**» يعني: تُؤديها إلى مستحقيها عن طيب نفس.

«**وَالْحَجِّ**» فتحج البيت في العمر مرة مع الاستطاعة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عِمرَان: ٩٧].

«**وَصَوْمِ رَمَضَانَ**» وهو أن يصوم هذا الشهر من كل عام.

وفي هذا الحديث من الفوائد: بيان أركان الإسلام الخمسة، وأنها دعائم وقواعد لا يقوم الإسلام إلَّا بها، وأن أصلها وأساسها الشهادة لله تعالى بالوحدانية وللنبي محمد ﷺ بالرسالة.

وفيه: دليل على أن من ترك شيئًا من هذه الأركان جاحدًا لوجوبها فهو كافر **بالإجماع**، فإذا جحد وحدانية الله أو رسالة النبي ﷺ أو الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج فهو كافر **بإجماع المسلمين**، فلا بُدَّ من الإتيان بالشاهدتين، ومن لم يأتِ بهما لم يدخل في الإسلام، وما عداهما من الأركان الخمسة إذا ترك واحدًا

منها جاحدًا فهو كافر **بالإجماع**.

واختلف **العلماء** في كفره إذا تركها تهاونًا وكسلًا مع الإقرار بها.

مِنَ العلماء مَنْ قال: إذا ترك الصلاة أو الزكاة أو الصوم أو الحج تهاونًا وكسلًا كفر، **وقال آخرون**: إذا ترك الزكاة تهاونًا لا يكفر، لكن تُؤخذ منه ويُعزِّره الحاكم بالحبس أو بالضرب[(١)]؛ بدليل ما في «**صحيح مسلم**»[(٢)] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا مِنْ صَاحِبِ كَنْزٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهُ إِلَّا أُحْمِيَ عَلَيْهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُجْعَلُ صَفَائِحَ فَيُكْوَى بِهَا جَنْبَاهُ وَجَبِينُهُ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَ عِبَادِهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ يَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ وَإِمَّا إِلَى النَّارِ،...**» فدل على أنه ليس بكافر؛ لأنه لو كان كافرًا لم يكن له سبيل إلى الجنة، **فالصواب** أنه لا يكفر إذا تركها تهاونًا وكسلًا، وكذلك الصوم والحج، أما الصلاة **فالصواب** أنه إذا تركها كسلًا وتهاونًا يكفر[(٣)]؛ لأدلة كثيرة.

منها: ما رواه مسلم في «**صحيحه**»[(٤)] عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ**»، والمعنى بينه وبين الشرك ترك الصلاة: أن الذى يمنع من كفره كونه لم يترك الصلاة، فإذا تركها لم يبقَ بينه وبين الشرك حائل، بل دخل فيه[(٥)]، وعَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا**

---

(١) انظر: «المغني» (٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الزكاة، رقم (٩٨٧).

(٣) انظر: «المجموع» (٣/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٨٢).

(٥) شرح النووي على «صحيح مسلم» (٢/ ٧١).

فَقَدْ كَفَرَ»[١].

ومنها: ما رواه البخاري في «**صحيحه**»[٢] عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ قَالَ: كُنَّا مَعَ بُرَيْدَةَ فِي غَزْوَةٍ فِي يَوْمٍ ذِي غَيْمٍ[٣]، فَقَالَ: بَكِّرُوا بِصَلَاةِ الْعَصْرِ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ تَرَكَ صَلَاةَ الْعَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ**»، والذي يُحْبَط عمله هو الكافر.

ومنها: ما رواه مسلم في «**صحيحه**»[٤] عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ، وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ، وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ**»، قِيلَ: «**يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟**»، فَقَالَ: «**لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلَاةَ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلَاتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلَا تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ**»، فدل على أنهم إن لم يقيموا الصلاة فهم كفار فننابذهم بالسيف.

ومنها: الإجماع، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ شَقِيقٍ الْعُقَيْلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: «**كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الْأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ**

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب «ما جاء في ترك الصلاة»، رقم (٢٦٢١)، والنسائي، كتاب الصلاة، باب «الحكم في تارك الصلاة»، (١/ ٢٣١)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب «ما جاء فيمن ترك الصلاة»، رقم (١٠٧٩)، وأحمد (٥/ ٣٤٦).
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».
وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد لا تعرف له علة بوجه من الوجوه، ولهذا الحديث شاهد صحيح على شرطهما جميعًا». «المستدرك» (١/ ٤٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب «من ترك العصر»، رقم (٥٥٣).

(٣) قيل: خص يوم الغيم بذلك لأنه مظنة التأخير إما لمتنطع يحتاط لدخول الوقت فيبالغ في التأخير حتى يخرج الوقت، أو لمتشاغل بأمر آخر فيظن بقاء الوقت فيسترسل في شغله إلى أن يخرج الوقت. «فتح الباري» (٢/ ٣٢).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٥٥).

الصَّلَاةِ»[١].

وقال مالك والشافعي وأحمد: يقتل، إجماعًا منهم، **وقال أبو حنيفة:** يُحبس أبدًا حتى يصلي من غير قتل[٢]، ثم اختلف في مُوجِب قتله، **والصواب:** أنه يُقتل كفرًا.

وهل يُقتل بترك صلاة واحدة أو أكثر؟، **محل خلاف**[٣].

«وفيه» يعني: في «**الصحيح**» «**عن أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده»**» وهو في «**الصحيحين**»[٤] من حديث عبدالله بن عمرو، وفيهما[٥] من حديث أبي موسى الأشعري، و«**صحيح مسلم**»[٦] من حديث جابر ﷺ جميعًا، وأما حديث أبي هريرة ﷺ فأخرجه الترمذي وغيره[٧].

○ قوله: «المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده» يعني: أن المسلم الأفضل إسلامًا هو من أدَّى حقوق الله من التوحيد ـ وهذا هو الأصل والأساس ـ والصلاة والزكاة والصوم والحج ثم أدَّى

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب «**ما جاء في ترك الصلاة**»، رقم (٢٦٢٢).
قال النووي: «رواه الترمذي في كتاب الإيمان بإسناد صحيح». «المجموع» (٣/ ١٨)

(٢) «اختلاف الأئمة العلماء» لابن هبيرة (١/ ٨٠).

(٣) انظر: «المغني» (٢/ ١٥٧)، و«المجموع» (٣/ ١٦).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، رقم (١٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٤٠).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «أي الإسلام أفضل؟»، رقم (١١)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٤٢).

(٦) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٤١).

(٧) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب «ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، رقم(٢٦٢٧)، والنسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، باب «صفة المؤمن»، (٨/ ١٠٤)، وأحمد (٢/ ٣٧٩).
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

حقوق العباد، ومن حقوق العباد: سلامتهم من لسانه ويده.

وقال بعض العلماء: المراد من الحديث: بيان علامة المسلم التي يُسْتَدَلُّ بها على إسلامه، وهي سلامة المسلمين من لسانه ويده، كما ذكر في علامة المنافق عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**»[1] وقال بعض العلماء: المراد من هذا الحديث: الحثُّ على حسن معاملة العبد مع ربِّهِ؛ لأنه إذا أحسن المعاملة مع إخوانه المسلمين من الأولى والأحرى أن يُحْسِنَ المعاملة مع ربِّهِ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، **وقيل**: أراد أن يُبيِّن أن المسلم الإسلام الخاص في معاملة الغير من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، وأما من أدَّى أركان الإسلام الخمسة فهذا مسلم إسلامًا عامًّا.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ**»[2]، ففَسَّرَ المؤمن بأمر باطن، وهو أن يأمنه الناس على دمائهم وأموالهم، وهذه الصفة أعلى من ذلك، فإنه من كان مأمونًا في الباطن فيأمنه الناس على دمائهم وأموالهم سَلِمَ المسلمون منه في الظاهر، وليس كل من سَلِمَ المسلمون منه في الظاهر يكون مأمونًا

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «علامة المنافق»، رقم (٣٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب «ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، رقم (٢٦٢٧)، والنسائي، كتاب الإيمان وشرائعه، باب «صفة المؤمن»، (٨/ ١٠٤)، وأحمد (٢/ ٣٧٩).

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

قال الحاكم: «قد اتفقا على إخراج طرف حديث «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، ولم يخرجا هذه الزيادة، وهي صحيحة على شرط مسلم». «المستدرك» (١/ ٥٤).

في الباطن، فدلَّ على أن الإيمان أعلى؛ لأنه قد يكون ترك أذاهم وهم لا يأمنون إليه خوفًا من أن يكون ترك أذاهم لرغبة أو لرهبة كخوف من السلطان أن يُقيم عليه الحدَّ لا لإيمان في قلبه.

وقوله ﷺ: «**الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ**» خرج مخرج الغالب، وإلَّا فإن غير المسلم أيضًا كالكفار الذين لديهم عهد وذمة أو من دخلوا بأمان وعهد لا بُدَّ أن يسلموا من لسانه ويده، ولا يجوز أن يعُتدى على أموالهم.

الكفار نوعان:

الأول: محارِب، وهو الذي يُقاتل المسلمين، وهذا دمه وماله حلال.

الثاني: غير محارِب.

وهو إما يكون **ذميًّا** وهم اليهود والنصارى الذين تحت حكم الدولة الإسلامية فيدفعون الجزية ودمهم ومالهم معصوم، أو **مستأمنًا** وهو الذي دخل بعهد وأمان ولو كان قومه محاربين، فهذا دمه وماله معصوم؛ روى البخاري في «**صحيحه**»[1] عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**».

والمحارِب دمه وماله حلال، ولا يُطعم ولا يُسقى، أما **الذمي والمستأمن** فيُطعم ويُسقى ويُحسن إليه، وقد يكون هذا دعوة إلى الإسلام، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب «إثم من قتل معاهدًا بغير جرم»، رقم (٣١٦٦).

يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [المُمتحنَة: ٨] هؤلاء الحربيون، ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [المُمتحنَة: ٩]، فبيَّن الله تعالى أنه لا ينهى عن برٍّ من لم يُقاتِل.

وقد كان الصحابة ﷺ يُحسنون إلى الذميين، في «**الصحيحين**»[1] عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ ﵄ قَالَتْ: قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قُلْتُ: «**وَهِيَ رَاغِبَةٌ، أَفَأَصِلُ أُمِّي؟**»، قَالَ: «**نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ**»؛ لأن ذلك في الوقت الذي عقد فيه النبي ﷺ الصلح بينه وبين المشركين.

وخصَّ النبي ﷺ اللسان واليد بالذكر لأن اللسان هو المُعبِّر والمُترِّجم عما في النفس، واليد هي التي يُباشر بها أكثر الأفعال.

وفي الحديث: الحثُّ على حفظ اللسان واليد من الاعتداء على الناس أو على أموالهم بالسرقة والغصب حتى يسلم دينه وإسلامه من النقص.

والحديث ظاهر في ترجمة «**باب تفسير الإسلام**»؛ ففَسَّرَ المسلم بأنه من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده.

۞۞۞

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الهبة، باب «الهدية للمشركين، وقول الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾»، رقم (٢٦٢٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٠٣).

﴿ قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال: «أن تُسْلِمَ قلبك لله، وأن تولي وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة» رواه أحمد.

وعن أبي قلابة، عن رجل من أهل الشام عن أبيه أنه سأل رسول الله ﷺ «ما الإسلام؟»، قال: «أن تُسْلِمَ قلبك لله، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك»، قال: «أي الإسلام أفضل؟»، قال: «الإيمان»، قال: «وما الإيمان؟»، قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت»».

الشَّرْح

○ قوله: «وعن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام فقال: «أن تُسْلِمَ قلبك لله، وأن تولي وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة» رواه أحمد» في «المسند»[١] وكذا النسائي[٢]، وإسناد حسن كما هو المعروف في إسناد بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده.

○ قوله: «وعن أبي قلابة، عن رجل من أهل الشام عن أبيه أنه سأل رسول الله ﷺ «ما الإسلام؟»، قال: «أن تُسْلِمَ قلبك لله، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك»، قال: «أي الإسلام أفضل؟»»،

---

(١) «مسند أحمد» (٥/ ٤).

(٢) النسائي، كتاب الزكاة، باب «من سأل بوجه الله ﷻ»، (٥/ ٨٢).

قال: «**الإيمان**»، قال: «**وما الإيمان؟**»، قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت**» أخرجه عبدالرزاق في «**المصنف**»[١] عن معمر، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عمرو بن عبسة قال: قال رجل: «**يا رسول الله، ما الإسلام؟**» الحديث، ومن طريقه أحمد في «**المسند**»[٢].

ورجاله ثقات، إلَّا أن **أبا قلابة** ـ وهو عبدالله بن زيد الجَرْمي ـ روايته عن **عمرو بن عبسة** مرسلة[٣]، ولكن الحديث له شواهد.

فَسَّرَ الإسلام في **الحديث الأول** بأن تُسْلِمَ قلبك لله، وأن تولي وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة.

وإسلام القلب وتولية الوجه لله معناه: إخلاص العمل لله، وتصلي الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة هذا هو العمل، فهو إخلاص في الباطن وعمل في الظاهر.

وفَسَّرَ الإسلام **في الحديث الثاني** بأن تُسْلِمَ قلبك لله، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك.

أن تُسْلِمَ قلبك لله هذا الإخلاص، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك هذا العمل.

○ قوله: «**قال: «أي الإسلام أفضل؟»، قال: «الإيمان»**» فجعل الإيمان أفضل الإسلام، وكما تقدَّم إذا أُطلِق «**الإسلام**» دخل فيه الإيمان، وإذا أُطلِق «**الإيمان**» دخل فيه الإسلام، فجعل هنا الإيمان

(١) «مصنف عبدالرزاق» (١١/ ١٢٧).
(٢) «مسند أحمد» (٤/ ١١٤).
(٣) «تهذيب الكمال» (٢٢/ ١٢٠).

أفضل خصال الإسلام.

○ قوله: قال: «وما الإيمان؟»، قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت**»، فَسَّرَ الإيمان بالأعمال الباطنة.

وهذان الحديثان كلاهما يدلان على أن الإسلام يتضمن أمرين: إخلاص في الباطن وانقياد في الظاهر، فالإسلام في الباطن هو إسلام القلب لله وتولي الوجه له، وهذا يتضمن الخضوع والذل والإقبال على الله بالكلية والإخلاص في القصد له والإرادة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن حديث أبي قلابة**: «ففي هذا الحديث: جعل الإيمان خصوصًا في الإسلام والإسلام أعم منه، كما جعل الهجرة خصوصًا في الإيمان والإيمان أعم منها، وجعل الجهاد خصوصًا من الهجرة والهجرة أعم منه، فالإسلام أن تعبد الله وحده لا شريك له مخلصًا له الدين، وهذا دين الله الذى لا يُقبل من أحد دينًا غيره لا من الأولين ولا من الآخرين، ولا تكون عبادته مع إرسال الرسل إلينا إلَّا بما أمرت به رسله لا بما يضاد ذلك؛ فإن ضد ذلك معصية، وقد ختم الله الرُّسُل بمحمد فلا يكون مسلمًا إلَّا من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، وهذه الكلمة بها يدخل الإنسان في الإسلام فمن قال الإسلام الكلمة وأراد هذا فقد صدق، ثم لا بُدَّ من التزام ما أمر به الرسول من الأعمال الظاهرة كالمباني الخمس، ومن ترك من ذلك شيئًا نقص إسلامه بقدر ما نقص من ذلك كما في الحديث «**من انتقص منهن شيئًا فهو سهم من الإسلام تركه**»[1]، وهذه الأعمال إذا عملها

(١) أخرجه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٤٠٥)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٤٢٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الإنسان مخلصًا لله تعالى فإنه يُثِيبه عليها ولا يكون ذلك إلّا مع إقراره بقلبه أنه لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فيكون معه من الإيمان هذا الإقرار»[١].

يتبيَّن من كلام **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لا بُدَّ أن يجتمع مع الإسلام إيمان وإقرار بالقلب، وإلّا فلا يصح الإسلام.

وفيه من الفوائد: أنه إذا اجتمع الإسلام والإيمان صار المراد بالإسلام الأعمال الظاهرة والإيمان الأعمال الباطنة، أما إذا انفردا فيشمل كل منهما الآخر، وهذا هو **الصواب وعين الحقِّ**، فإذا أُطلِق «**الإسلام**» دخل فيه الإيمان، وإذا أُطلِق «**الإيمان**» دخل فيه الإسلام، وإذا انفرد كل منهما دخل فيه الآخر، وهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا.

وفيه: أن أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلاة والزكاة، حيث نصَّ عليهما في حديث بهز[٢].

وفيه: بيان أركان الإيمان، وهي دعائمه وقوائمه وقواعده، والإيمان له أركان، وهي مذكورة في هذا الحديث، وله شعب كما في «**الصحيحين**»[٣] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً**»، معنى الحديث: بضع وسبعون خصلة[٤].

واختلف **العلماء** رحمهم الله في هذه الشُّعب، منهم من قال

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٢٦٩، ٢٧٠).

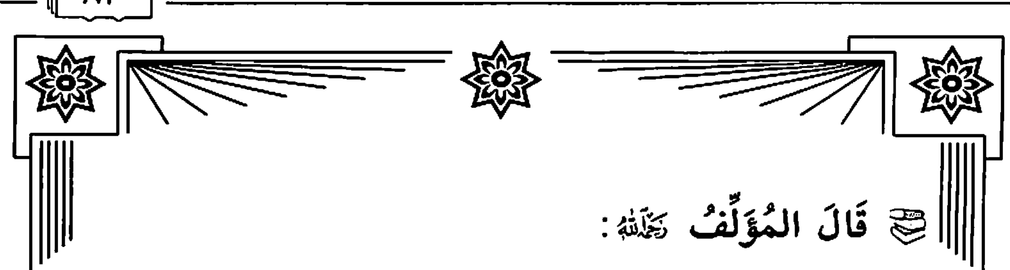
(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «أمور الإيمان»، رقم (٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٣٥).

(٤) شرح النووي على «صحيح مسلم» (٢/ ٤).

إنها معدودة بهذا العدد بضع وستون شعبة، وصاروا يستنبطونها من الكتاب والسنة، وعلى هذا أَلَّفَ **الإمام البيهقي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا سَمَّاهُ «**شعب الإيمان**»، وتتبع الشُّعب التي وردت في الأحاديث، **ومن العلماء** من قال إنها غير محدودة بحدٍّ وضابط، وإنما ضابطها كل عمل اجتمع فيه الإخلاص والمتابعة فهو من شُعب الإيمان.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«باب: قوله تعالى:

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: «يا رب، أنا الصلاة»، فيقول: «إنك على خير»، ثم تجيء الصدقة فتقول: «يا رب، أنا الصدقة»، فيقول: «إنك على خير»، ثم يجيء الصيام فيقول: «يا رب، أنا الصيام»، فيقول: «إنك على خير»، ثم تجيء الأعمال على ذلك فيقول: «إنك على خير»، ثم يجيء الإسلام فيقول: «يا رب، أنت السلام وأنا الإسلام»، فيقول: «إنك على خير، بك اليوم آخذ، وبك أُعْطِي»، قال الله تعالى في كتابه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ رواه أحمد.

وفي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد» رواه أحمد»».

الشَّرْحُ

هذا الباب الرابع من أبواب هذه الرسالة.

○ قوله: «باب قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]» مناسبة هذا الباب لما قبله: **أن المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ ذكر فضل الإسلام، ثم ذكر وجوب الدخول فيه، ثم ذكر تفسيره، ثم ذكر في هذا الباب ما يضاده ويناقضه، وهو الإعراض عن الإسلام واتخاذ غيره دينًا ومنهجًا ومسلكًا، وترتيب المؤلف ترتيبٌ حسنٌ.

○ قوله: «**وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول: «يا رب، أنا الصلاة»، فيقول: «إنك على خير»، ثم تجيء الصدقة فتقول: «يا رب، أنا الصدقة»، فيقول: «إنك على خير»، ثم يجيء الصيام فيقول: «يا رب، أنا الصيام»، فيقول: «إنك على خير»، ثم تجيء الأعمال على ذلك فيقول: «إنك على خير»، ثم يجيء الإسلام فيقول: «يا رب، أنت السلام وأنا الإسلام»**، فيقول: «**إنك على خير، بك اليوم آخذ، وبك أُعْطِي**»، قال الله تعالى في كتابه ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٥] رواه أحمد» هذا الحديث فَسَّرَ آية الترجمة، والحديث قدسي، أي: من كلام الله تعالى.

رواه الإمام أحمد كما ذكر **المؤلف** ﷺ في «**المسند**»[1] قال: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عباد بن راشد، حدثنا الحسن، حدثنا أبو هريرة فذكره.

وأخرجه أبو يعلى في «**المسند**»[2] من طريق عباد بن راشد، عن الحسن، قال: حدثنا أبو هريرة فذكره إلى قوله «**فيقول الله: «إنك على خير، بك آخذ اليوم، وبك أُعْطِي**»، ثم قال **الحسن**: «﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴿٨٥﴾﴾»، فجعل الآية من قول الحسن.

والحديث ضعيف؛ وعلته الانقطاع؛ فإن الحسن البصري لم

---

(١) «مسند أحمد» (٢/ ٣٦٢).

(٢) «مسند أبي يعلى» (٦٢٣١).

يسمع من أبي هريرة[١]، وكذا عباد بن راشد وَثَّقَهُ العجلي وأحمد بن حنبل، وضَعَّفَهُ يحيى القطان وأبو داود والنسائي[٢]، لكن له شواهد كثيرة يرتقي بها إلى درجة الحسن.

○ قوله: «**ثم يجيء الإسلام فيقول: «يا رب، أنت السلام وأنا الإسلام»، فيقول: «إنك على خير، بك اليوم آخذ، وبك أُعْطِي»**» فيه: دليل على أن الإسلام هو الدين المطلوب عقيدة وقولًا وعملًا، وهذا **هو الشاهد**، وغير الإسلام لا يُقبل، ولهذا قال: «**إنك على خير، بك اليوم آخذ، وبك أُعْطِي**».

وفيه: أن الله تعالى يأخذ بالإسلام ويُعْطِي به، وهذا حقٌّ، وظهرت مناسبة الترجمة من قوله تعالى: «**إنك على خير، بك اليوم آخذ، وبك أُعْطِي**».

ومجيء الصلوات والأعمال يوم القيامة حقيقيٌّ على ظاهره، مثل ما في «صحيح مسلم»[٣] عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا**» يعني: العمل بهما يأتي ظلٌّ لصاحبه، وإلَّا معروف أن القرآن كلام الله، وكما وقع في صفة المسألة في القبر عند أحمد[٤] عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي

---

(١) انظر: «سنن الترمذي» (٤/٦١٧)، و«سنن النسائي» (٦/١٦٨)، و«علل الحديث» لابن أبي حاتم (١/٢٤٦).

(٢) «مقدمة فتح الباري» لابن حجر (ص ٤١٢).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٨٠٤).

(٤) أخرجه أحمد (٤/٢٨٧).

=

جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ وَكَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: «**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ...، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ فَيَقُولُ**: «**أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ**»، فَيَقُولُ لَهُ: «**مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ؟**»، فَيَقُولُ: «**أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ**»،....، قَالَ: «**وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ...، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ**: «**أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ**»، فَيَقُولُ: «**مَنْ أَنْتَ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟**»، فَيَقُولُ: «**أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ**».

○ قوله: «وفي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**» رواه أحمد»» في «**المسند**»[1] بل رواه الشيخان البخاري ومسلم[2].

وتقدَّم **كلام ابن رجب** رحمه الله أن هذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام كما أن حديث «**الأعمال بالنيات**»[3] ميزان للأعمال في باطنها وهو ميزان للأعمال في ظاهرها، فكما أن كل عمل لا يُراد به وجه الله تعالى فليس لعامله فيه ثواب، فكذلك كل عمل لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على عامله، وكل من أحدث

= **قال المنذري**: «ورواه أحمد بإسناد رواته محتج بهم في «الصحيح»». «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٩٦).
وقال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح». «مجمع الزوائد» (٣/ ٥٠).

(١) «مسند أحمد» (٦/ ١٨٠).
(٢) تقدَّم تخريجه.
(٣) تقدَّم تخريجه.

في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله فليس من الدين في شيء»[١].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه ﷺ؛ فإنه صريح في ردِّ كل البدع والمخترعات»[٢].

ومن فوائد هذا الحديث:

الأولى: كمال هذا الدين؛ لقوله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»، وقد قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فهو لا يحتاج إلى زيادة ولا نقص، وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: «**تَرَكْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا طَائِرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ فِي الْهَوَاءِ إلا وَهُوَ يُذَكِّرُنَا مِنْهُ عِلْمًا**»[٣].

الثانية: دليل على أن من شروط العمل أن يكون متبعًا لرسول الله عليه الصلاة والسلام.

الثالثة: تحريم البدع، وأن كل عمل ليس عليه أمر الله والرسول ﷺ فهو مردود.

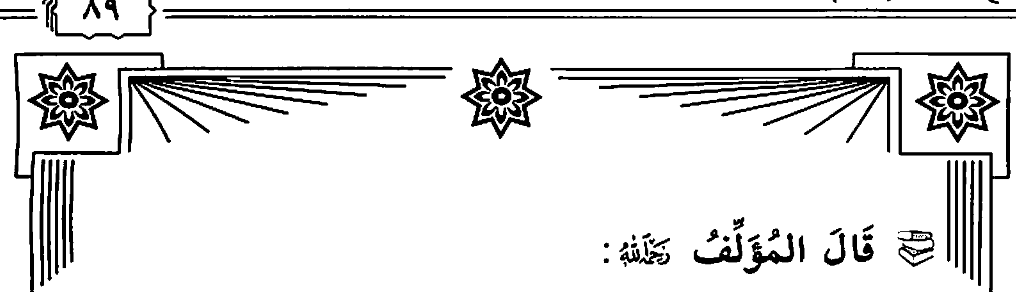
الرابعة: وجوب الدخول في الإسلام، وأن أعمال العاملين ينبغي أن تكون تحت أحكام الشريعة، فتكون أحكام الشريعة حاكمة عليها بأمرها ونهيها، وهذا **هو الشاهد**.



(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ٥٩).

(٢) شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٦/١٢).

(٣) تقدَّم تخريجه.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«باب: وجوب الاستغناء بمتابعته

يعني: القرآن.

وقول الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]

روى النسائي عن النبي ﷺ أنه رأى في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورقة من التوراة فقال: «أَمُتَهَوِّكُونَ يا ابن الخطاب؟!؛ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حيًّا واتبعتموه وتركتموني ضللتم»، وفي رواية: «لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلَّا اتباعي»، فقال عمر: «رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا»».

الشرح

هذا الباب الخامس من أبواب هذه الرسالة.

○ قوله: **«باب: وجوب الاستغناء بمتابعته، يعني: القرآن»**، والقرآن كلام الله، مُنزَّل غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، وتَكلَّم الله به حقيقة، وهذا القرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة لا كلام غيره، وهو كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف كما ذكر **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله في **«العقيدة الواسطية»**[(١)].

القرآن هو كلام الله لفظه ومعناه، مُنزَّل غير مخلوق، قال

(١) «العقيدة الواسطية» (ص ٣٠).

تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ [الشُّعَرَاء: ١٩٢-١٩٤]، وسمعه جبرائيل من الله ﷻ، ونزل به على قلب محمد ﷺ.

وهو كلام الله لفظه ومعناه خلافًا **للمعتزلة** القائلين بأن القرآن مخلوق لفظه ومعناه، وخلافًا **للأشاعرة** الذين قالوا لفظه مخلوق ومعناه غير مخلوق، يقول **الأشاعرة** الحروف والألفاظ مخلوقة ليست بكلام الله[1]، وقالوا لم يتكلم الله بحرف ولا بصوت، فجعلوا الرَّبَّ أبكمًا ـ نعوذ بالله ـ.

إذا قيل لهم: «إن كان الله لا يتكلم فكيف سُمِعَ هذا القرآن؟!»، قالوا: «لم يسمع جبريل كلام الله»، **قيل لهم**: «كيف وصل هذا القرآن إلى جبريل؟!»، قالوا: «اضطر الله تعالى جبريل اضطرارًا ففَهِمَ المعنى القائم بنفسه فعَبَّرَ بهذا القرآن»، فهذا القرآن عَبَّرَ به جبريل عَمَّا في نفس الرَّبِّ، ولم يسمع جبريل لا حرفًا ولا صوتًا من الله تعالى، فجعلوا الرَّبَّ لا يتكلم ـ تعالى الله عما يقولون عُلُوًّا كبيرًا ـ، وقالت طائفة أخرى: الذي عَبَّرَ عَمَّا في نفس الرَّبِّ محمد ﷺ.

استدلت **الطائفة الأولى** بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١﴾ [التكوير: ١٩-٢١]، إذًا قول جبريل هو قول الله، واستدلت **الطائفة الأخرى** بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [الحاقة: ٤٠-٤١]، إذًا قول محمد ﷺ هو قول الله.

نقول: هؤلاء متناقضون، من قال: «**إن القول قول جبريل**»

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٢/ ١٦٣، ١٦٤).

يَبْطُل بقول من قال: «**إنه قول محمد**»، ومن قال: «**إن القول قول محمد**» يَبْطُل بقول من قال: «**إنه قول جبريل**»، ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ يعني: أنه بَلَّغَ عن الله، فقول الرسول أي: تبليغ عن الله.

وقالت طائفة ثالثة من الأشاعرة: أخذه جبريل من اللوح المحفوظ ولم يسمع من الله كلمةً[1].

وكل هذه الأقوال فاسدة، **والصواب**: أن القرآن كلام الله لفظه ومعناه، حروفه ومعانيه، سمعه جبرائيل من الرَّبِّ ﷻ فنزل به على النبي محمد ﷺ، ومن تَدبَّر القرآن طالبًا الهدى منه فإنه يتبيَّن له طريق الحقِّ كما ذكر **العلَّامة ابن القيم** رحمه الله:

فتدبر القرآن إن رمت الهدى فالعلم تحت تدبر القرآن[2]

وقول **المؤلف** رحمه الله في الترجمة «**باب «وجوب الاستغناء بمتابعته»**»، يعني: القرآن» أي: بمتابعة القرآن، يعني: وجوب الاستغناء بالقرآن عَمَّا سواه من الآراء الفاسدة والعقائد المنْحرِفة من علم الكلام ونحوه.

ولقد أصاب **أهل الكلام** حيرة في آخر حياتهم، وهذا **إمام الحرمين أبو المعالي الجويني** رحمه الله ترك ما كان ينتحله ويُقرِّرُهُ، واختار مذهب **السلف**، وكان يقول: «يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام؛ فلو أني عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به»، وقال عند موته: «لقد خضت البحر الخضم، وخليت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت فيما نهوني عنه، والآن إن لم يتداركني

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٢/٥١٩ - ٥٢٢).

(٢) «نونية ابن القيم» (ص ٤٩).

ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنذا أموت على عقيدة أمي»، أو قال: «عقيدة عجائز نيسابور»[(١)]، أي: على الفطرة[(٢)].

وكما قال الرازي رحمه الله: «**لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلًا ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات** ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وأقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه: ١١٠]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]»، ثم قال: «**ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي**»[(٣)].

وبَوَّبَ **الإمام البخاري** رحمه الله في «**صحيحه**»[(٤)] باب «**من لم يتغنَّ بالقرآن، وقوله تعالى:** ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]»، وأورد فيه حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ**»[(٥)] قال البخاري: «**قَالَ سُفْيَانُ: «تَفْسِيرُهُ: يَسْتَغْنِي بِهِ»**».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وقال ابن التين: يُفهم من الترجمة: أن المراد بالتغني الاستغناء؛ لكونه أتبعه الآية التي تتضمن الإنكار على من لم يستغنِ بالقرآن عن غيره، فحمله على الاكتفاء به

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٧٣).

(٢) قال الذهبي: «هذا معنى قول بعض الأئمة «عليكم بدين العجائز» يعني: أنهن مؤمنات بالله، على فطرة الإسلام، لم يدرين ما علم الكلام؟». «العلو للعلي الغفار» (ص ٢٥٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٤/ ٧٢، ٧٣).

(٤) «صحيح البخاري»، كتاب فضائل القرآن، (٤/ ١٩١٨).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب «**من لم يتغنَّ بالقرآن**»، رقم (٥٠٢٤)، وكذا أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، رقم (٧٩٢).

وعدم الافتقار إلى غيره، وحملُه على ضد الفقر من جملة ذلك»[1]، فحمله **بعضهم** على ضد الفقر، يعني: يستغني به من الغني، وحمله **بعضهم** على الاكتفاء من الإغناء، وقد ارتضى **أبو عبيد** تفسير يتغنى بيستغني، **وقال**: «**إنه جائز في كلام العرب**»[2].

○ قوله: «**وقول الله تعالى**: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]» قال ابن مسعود: «قد بَيَّنَ لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء»[3] وقال مجاهد: «كل حلال وكل حرام»[4]، **قال الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ اللهُ: «وقول **ابن مسعود** أعم وأشمل؛ فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وكل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم»[5]، وهذا إما مشروح مفصل وإما مجمل يتلقى بيانه من السنة كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وقال الشيخ عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ اللهُ: «**وقوله**: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مُبيَّن فيه أتم تبيين بألفاظ واضحة ومعان جلية، حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها، ويبديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة؛ لتستقر في القلوب فتثمر من الخير

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٦٨).
(٢) «فتح الباري» (٩/ ٦٩)، وانظر: «غريب الحديث» لأبي عبيد (٢/ ١٤٢).
(٣) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٤/ ١٦٢).
(٤) أخرجه الطبري في «التفسير» (١٤/ ١٦١).
(٥) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٨٣).

والبِرِّ بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس»[١].

ومناسبة هذه الآية الكريمة: أنه إذا كان القرآن تبيانًا لكل شيء إذًا يُستغنَى به عن كل شيء، ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] بأصول الدين وفروعه وأحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، إذًا يُستغنى بالقرآن عن غيره، وهو ظاهر في الترجمة.

○ قوله: «**روى النسائي عن النبي ﷺ أنه رأى في يد عمر بن الخطاب ﷺ ورقة من التوراة فقال: «أَمُتَهَوِّكُونَ يا ابن الخطاب؟!؛ لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حيًّا واتبعتموه وتركتموني ضللتم**» كذا عزاه **المؤلف** ﷺ للنسائي، بل أخرجه أحمد في «**المسند**»[٢].

قال الحافظ ابن حجر ﷺ: «ورجاله موثوقون إلَّا أن في مجالد[٣] ضعفًا، وأخرج البزار[٤] أيضًا من طريق عبدالله بن ثابت الأنصاري أن عمر نسخ صحيفة من التوراة، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء**»، وفي سنده **جابر الجعفي** وهو ضعيف[٥] [٦].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص٤٤٧).

(٢) «مسند أحمد» (٣/ ٣٨٧).

(٣) هو **مجالد بن سعيد الهمداني، قال ابن معين وغيره:** «لا يُحتجُّ به»، **وقال أحمد:** «يرفع كثيرًا مما لا يرفعه الناس، ليس بشيء»، **وقال النسائي**: «ليس بالقوي»، وذكر **الأشج** أنه شيعي، وقال الدارقطني: «ضعيف»، **وقال البخاري**: «كان **يحيى بن سعيد** يُضعِّفه، وكان **ابن مهدي** لا يروي عنه». «ميزان الاعتدال» للذهبي (٦/ ٢٣).

(٤) «كشف الأستار» (١٢٥).

(٥) قال ابن حجر: «جابر بن يزيد الجعفي ضَعَّفَه **الجمهور**، ووصفه **الثوري والعجلي وابن سعد** بالتدليس»، «تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس» (ص ٥٣).

(٦) «فتح الباري» (١٣/ ٣٣٤).

وذكر **الحافظ** رَحِمَهُ اللَّهُ طرقًا أخرى له، ثم **قال**: «وهذه جميع طرق هذا الحديث، وهي وإن لم يكن فيها ما يُحتجُّ به لكن مجموعها يقتضي أن لها أصلًا»[1].

○ قوله: «**أَمُتَهَوِّكُونَ يا ابن الخطاب**» قال أبو عبيد: «يقول: أمتحيرون أنتم في الإسلام لا تعرفون دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى؟!، فمعناه: أنه كره أخذ العلم من أهل الكتاب.

○ وأما قوله: «**لقد جئتكم بها بيضاء نقية**» فإنه أراد الملة الحنيفية فلذلك جاء التأنيث كقول الله ﷻ: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البَيِّنَة: ٥]، إنما هي فيما يفسر الملة الحنيفية»[2].

وقال ابن الأثير: «التَّهَوُّكُ كالتهور، وهو الوقوع في الأمر بغير روية، المتهوك الذي يقع في كل أمر»[3].

○ قوله: «وفي رواية: «**لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلَّا اتباعي**»، فقال عمر: «**رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا**»» أخرجه أحمد في «**المسند**»[4]، وفي سنده **جابر الجعفي**، وتقدَّم.

وفي الحديث من الفوائد: أنه يحرم اقتناء شيء من الكتب السابقة على القرآن من الإنجيل أو التوراة أو الزبور؛ لأن النبي ﷺ أنكر على عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما رأى في يده ورقة من التوراة بأمرين:

الأول: أن ما كان نافعًا منها فقد بَيَّنَهُ تعالى في القرآن، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العَنكبوت: ٥١].

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٥٢٥).

(٢) «غريب الحديث» لأبي عبيد (٣/ ٢٩).

(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٥/ ٢٨١).

(٤) «مسند أحمد» (٣/ ٤٧٠).

الثاني: أن في القرآن ما يغني عن كلِّ هذه الكتب.

وروى البخاري في «**صحيحه**»[١] عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ**»، **قال الحافظ ابن كثير** رحمه الله: «ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذكر للاستشهاد لا للاعتضاد؛ فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح.

الثاني: ما علمنا كذبه مما عندنا مما يخالفه.

الثالث: ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نُكذِّبه، وتجوز حكايته»[٢].

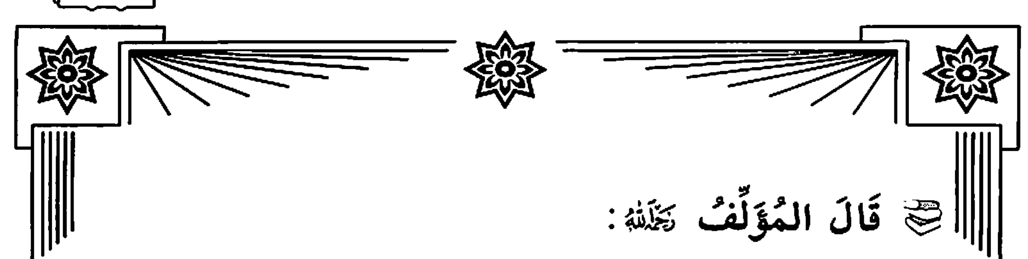
ولا يجوز الاطلاع على التوراة والإنجيل إلَّا لعالم يُرِيد الردَّ عليهم من كتبهم.

وفيه: دليل على أن شرع من قبلنا إذا خالف شرعنا فإنه باطل ولا يجوز اتباعه.



(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب «ما ذُكِرَ عن بني إسرائيل»، رقم (٣٤٦١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

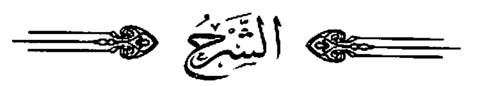
«باب: ما جاء في الخروج عن دعوى الإسلام

وقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨].

عن الحارث الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة؛ فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جُثَا جهنم»، فقال رجل: «يا رسول الله، وإن صلى وصام؟»، قال: «وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سَمَّاكم المسلمين والمؤمنين، عباد الله» رواه أحمد والترمذي، وقال: «حديث حسن صحيح».

وفي «الصحيح»: «من فارق الجماعة شبرًا فميتته جاهلية»، وفيه: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!».

قال أبو العباس: «كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية، بل لما اختصم مهاجري وأنصاري، فقال المهاجري: «يا للمهاجرين»، وقال الأنصاري: «يا للأنصار»، قال ﷺ: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!»، وغضب لذلك غضبًا شديدًا». انتهى كلامه»».



الشَّرْحُ

هذا الباب السادس من أبواب هذه الرسالة.

ذكر **المؤلف** رحمه الله فيه شيئًا مما يُضاد الإسلام، وهو الخروج عن دعوى الإسلام إلى دعاوى أخرى جاهلية باطلة.

○ قوله: «وقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨]» **قال مجاهد:** «الله سمَّاكم المسلمين ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الكتب كلها والذكر، ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ يعني: القرآن»(١).

قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا﴾ فكيف يخرج الإنسان عن دعوى الإسلام والله سَمَّانا مسلمين من قبل في الكتب المتقدِّمة في التوراة والإنجيل، وفي اللوح المحفوظ القرآن؟!

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وهذا هو **الصواب**؛ لأنه تعالى قال: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ثم حثَّهم وأغراهم على ما جاء به الرسول صلوات الله وسلامه عليه بأنه مِلَّة أبيهم الخليل، ثم ذكر مِنَّتَهُ تعالى على هذه الأمة بما نَوَّه به من ذكرها والثناء عليها في سالف الدهر وقديم الزمان في كتب الأنبياء يُتْلَى على الأحبار والرهبان، فقال: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هذا القرآن»(٢).

وفي الآية: إشارة أن من انتسب إلى غير الإسلام كاليهودية والنصرانية أو فارق جماعة المسلمين فقد خرج عن دعوى الإسلام، وهذا وجه الاستدلال من هذه الآية.

وفيها: بيان فضل هذه الأمة، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا

---

(١) «تفسير الطبري» (١٨/ ٦٩٢-٦٩٣).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٣٧).

عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج: ٧٨]، قوله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ أي: يا هذه الأمة الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم، وفضلكم، وشرَّفكم، وخصَّكم بأكرم رسول وأكمل شرع[١]، فلا خروج للمسلمين عن دعوى الإسلام.

○ قوله: «**عن الحارث الأشعري ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة؛ فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جُثَا جهنم»، فقال رجل: «يا رسول الله، وإن صلى وصام؟»، قال: «وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سمَّاكم المسلمين والمؤمنين، عباد الله» رواه أحمد والترمذي، وقال: «حديث حسن صحيح»**»، أخرجه أحمد في «المسند»[٢] والترمذي في «السنن»[٣] وقال ابن كثير: «هذا حديث حسن»[٤].

○ قوله: «**فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه**» مفارقة الجماعة: ترك السنة واتباع البدعة، والرِّبْقة في الأصل: عُروة في حبل تُجعل في عُنُق البهيمة أو يدها تُمسِكها فاستعارها للإسلام، يعني: ما يَشدُّ به المسلم نفسَهُ من عُرَى

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٣٧).

(٢) «مسند أحمد» (٤/ ١٣٠).

(٣) كتاب الأمثال، باب «ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة»، رقم (٢٨٦٣).

(٤) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٩).

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». «المستدرك» (١/ ٥٨٢).

الإسلام أي: حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه، وتجمع الرِّبْقة على رِبَق مثل كِسْرة وكِسَر[١].

○ قوله: «**ومن دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جُثَا جهنم**» الجُثَا: جمع جُثْوَة - بالضم -، وهو الشيء المجموع[٢].

○ قوله: «**فقال رجل: «يا رسول الله، وإن صلى وصام؟»**، **قال: «وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سمَّاكم المسلمين والمؤمنين، عباد الله»** يعني: يا عباد الله، **وفيه**: إغراء وحثٌّ على الالتزام بدعوى الله بكونهم عباد الله.

وفي هذا الحديث من الفوائد: الحثُّ على لزوم الجماعة، والسمع والطاعة لولاة الأمور في غير معصية الله، والهجرة والجهاد.

وفيه: التحذير من معارضة النصوص تعصُّبًا للأحزاب والمذاهب والطوائف؛ لأن في ذلك مفسدة رد الحقِّ من غير الجماعة التي ينتمي إليها، كما وقع لليهود، قال الله تعالى عنهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ٧٣].

○ قوله: «**وفي «الصحيح»: «من فارق الجماعة شبرًا فميتته جاهلية»**» في «**صحيح مسلم**»[٣] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**»، وفي «**الصحيحين**»[٤] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ

---

(١) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ١٩٠).

(٢) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ٢٣٩).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٤٨).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب «قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أمورًا تنكرونها»»، رقم (٧٠٥٣)، ومسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٤٩).

قَالَ: «**مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً**».

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وقوله «شِبْرًا»** بكسر المعجمة وسكون الموحدة، وهي كناية عن معصية السلطان ومحاربته، **قال ابن أبي جمرة**: المراد بالمفارقة: السعي في حلِّ عقد البيعة التي حصلت لذلك الأمير ولو بأدنى شيء، فكَنَّى عنها بمقدار الشبر؛ لأن الأخذ في ذلك يؤول إلى سفك الدماء بغير حقٍّ»، ثم **قال**: «والمراد بالميتة الجاهلية ـ وهي بكسر الميم ـ حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال وليس له إمام مطاع؛ لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافرًا بل يموت عاصيًا، **ويحتمل**: أن يكون التشبيه على ظاهره، ومعناه: أنه يموت مثل موت الجاهلي وإن لم يكن هو جاهليًا، أو أن ذلك ورد مورد الزجر والتنفير، وظاهره غير مراد»[(١)].

قال الإمام ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**في هذه الأحاديث**: حجة في ترك الخروج على أئمة الجور، ولزوم السمع والطاعة لهم، **والفقهاء مجمعون** على أن الإمام المتغلِّب طاعته لازمة ما أقام الجمعات والجهاد، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، ألَّا ترى قوله ﷺ لأصحابه «**سترون بعدي أثرةً وأمورًا تنكروها**»[(٢)] فوصف أنهم سيكون عليهم أمراء يأخذون منهم الحقوق، ويستأثرون بها، ويؤثرون بها من لا تجب له الأثرة،

---

(١) «فتح الباري» (١٣/٦، ٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب «قول النبي ﷺ «**سترون بعدي أمورًا تنكرونها**»»، رقم (٧٠٥٢)، ومسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٤٣) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

ولا يعدلون فيها، وأمرهم بالصبر عليهم، والتزام طاعتهم على ما فيهم من الجور»[١].

فيه: الحثُّ على لزوم الجماعة، وأن من خرج على ولاة الأمور فقد ارتكب جريمة كبيرة من كبائر الذنوب؛ لأن الخروج على ولاة الأمور يترتب عليه مفاسد، **منها**: إراقة الدماء، واختلال الأمن والأحوال والتعليم والزراعة والتجارة، وتدخل الأعداء، وحصول الفُرقة والاختلاف، وحلول الفتن تأتي على الأخضر واليابس، أما الصبر على جورهم وظلمهم فهذه مفسدة صغرى، وهناك **قاعدة عند أهل العلم «إذا تعارضت مفسدتان دُفِعَ أعظمهما بارتكاب أخفهما»**، فنرتكب المفسدة الصغرى لدفع الكبرى، **والمفسدة الصغرى** الصبر على جور السلطان، **والمفسدة الكبرى** الخروج عليه؛ لما يترتَّب عليه من إراقة الدماء، واختلال الأمن، وتدخل الأعداء، وشرور وفتن لا أول لها ولا آخر، ثم إن النصيحة مبذولة لهم من قِبل **أهل العلم**، فإن قبلوها فالحمد لله، وإن لم يقبلوا فحسابهم على الله.

○ قوله: «وفيه: **«أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!»** في **«الصحيحين»**[٢] عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ[٣] نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ فَكَسَعَ[٤] أَنْصَارِيًّا فَغَضِبَ الأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: **«يَا لَلأَنْصَارِ»**، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: **«يَا لَلْمُهَاجِرِينَ»**،

---

(١) شرح «صحيح البخاري» لابن بطال (٨/١٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب «ما ينهى من دعوة الجاهلية»، رقم (٣٥١٨)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٥٨٤).

(٣) أي: اجتمع. «فتح الباري» (٦/٥٤٧)

(٤) بفتح الكاف والمهملتين، أي: ضربه على دبره. «فتح الباري» (٦/٥٤٧)

فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟!**»، ثُمَّ قَالَ: «**مَا شَأْنُهُمْ؟**»، فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيَّ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**دَعُوهَا؛ فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ**»، أي: دعوى الجاهلية، **وقيل**: الكسعة، والأول هو **المعتمد**[1].

وفي الحديث: النهي عن دعوى الجاهلية، وهي كما فَسَّرَها **الحافظ ابن حجر** رحمه الله: «الاستغاثة عند إرادة الحرب، كانوا يقولون: «**يا آل فلان**» فيجتمعون فينصرون القائل ولو كان ظالمًا فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك»[2].

○ قوله: «قال أبو العباس» وهو **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: «**كل ما خرج عن دعوى الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية، بل لما اختصم مهاجري وأنصاري فقال المهاجري: «يا للمهاجرين»، وقال الأنصاري: «يا للأنصار»، قال ﷺ: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!»، وغضب لذلك غضبًا شديدًا». انتهى كلامه**» ذكر هذا في «**مجموع الفتاوى**»[3].

○ قوله: «**فقال المهاجري: «يا للمهاجرين**»، وقال الأنصاري: «**يا للأنصار**»، قال ﷺ: «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!**» والمهاجرين والأنصار أسماء إسلامية ومع ذلك أنكرها النبي ﷺ لِمَا فيها من التحزُّب والتقسيم والفُرقة والاختلاف، فكيف لو أنها أسماء كفرية كأن يدعو بدعوى القومية العربية، أو بالحزبية، أو بحزب

(١) «فتح الباري» (٦/ ٥٤٧).

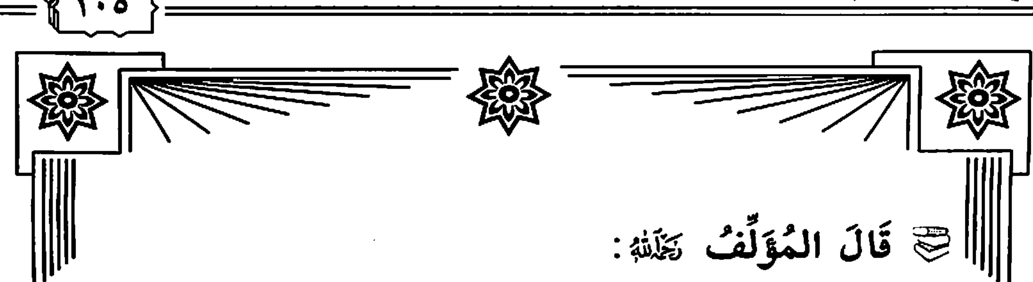
(٢) «فتح الباري» (٦/ ٥٤٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٣٢٨، ٣٢٩).

البعث، أو بالاشتراكية، أو بالشيوعية؟!، فهي أعظم وأعظم.

وهذا الحديث وكذلك الحديث الأول «ومن دعا بدعوى **الجاهلية فإنه من جُثَا جهنم**» ظاهران في الترجمة، وأن دعوى الجاهلية ومفارقة الجماعة فيهما خروج عن دعوى الإسلام.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«باب: وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ﴾ [النساء: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ [آل عمران: ١٠٦]: «**تبيض وجوه أهل السنة وَالِائْتِلَافِ، وَتَسْوَدُّ وجوه أهل البدعة والاختلاف**»».

الشَّرْحُ

هذا الباب السابع من أبواب هذه الرسالة.

ذكر **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الباب «**وجوب الدخول في الإسلام كله وترك ما سواه**»، ولهذا صَدَّرَ **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ الباب بهذه الآية.

○ قوله: «**وقول الله تعالى**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨]» **قال الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول الله تعالى آمرًا عباده المؤمنين به المُصدِّقين برسوله أن يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك، قال العوفي عن **ابن عباس ومجاهد وطاوس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد** في قوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ يعني: الإسلام، وقوله ﴿كَآفَّةً﴾ قال ابن عباس ومجاهد

وأبو العالية وعكرمة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة والضحاك: جميعًا، ومن المفسِّرين من يجعل قوله ﴿كَآفَّةً﴾ حالًا من الداخلين، أي: ادخلوا في الإسلام كلكم، **والصحيح** الأول، وهو أنهم أُمِرُوا كلهم أن يعملوا بجميع شُعب الإيمان وشرائع الإسلام، وهي كثيرة جدًّا ما استطاعوا منها»[1].

ووجه مناسبة الآية لما قبلها كما **قال الإمام القرطبي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَمَّا بَيَّنَ الله سبحانه الناسَ إلى مؤمن وكافر ومنافق فقال: كونوا على ملة واحدة، واجتمعوا على الإسلام، واثبتوا عليه»[2].

﴿ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ﴾ أي: في الإسلام، فالسِّلم والإسلام بمعنى واحد، وهذا أمر لجميع المؤمنين أن يدخلوا في جميع شرائع الإسلام وجميع شُعب الإيمان.

* * *

○ قوله: «**وقوله تعالى**: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [النساء: ٦٠]» وهذا هي **الآية الثانية**.

نزلت هذه الآية في المنافقين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ أي: يدَّعون ﴿أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾، والطاغوت: كل ما خالف شرع الله، ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ فكيف هذا؟!، يَدَّعون الإيمان وهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت؛ أمران متناقضان، ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠] فجعل تعالى حكمَ غير حكم الله من إرادة الشيطان، وهو ضلال مُبين؛ فهؤلاء عدلوا عن

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٤٨، ٢٤٩) باختصار يسير.

(٢) «تفسير القرطبي» (٣/ ٢٢).

حكم الله إلى حكم الطاغوت وهو من إرادة الشيطان وهو ضلال مبين، ومع ذلك يَدَّعون الإيمان، وهذا لا يكون.

يُنْكِر الله تعالى في هذه الآية على من يَدَّعي الإيمان بما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى الأنبياء من قبله وهو مع ذلك يُرِيد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قال الإمام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «**في سبب نزولها أربعة أقوال**:

أحدها: أنها نزلت في رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودي خصومة، فقال اليهودي: «انطلق بنا إلى محمد»، وقال المنافق: «بل إلى كعب بن الأشرف»، فأبى اليهودي فأتيا النبي ﷺ فقضى لليهودي، فلما خرجا، قال المنافق: «**ننطلق إلى عمر بن الخطاب**»، فأقبلا إليه فقصَّا عليه القصة، فقال: «رويدًا حتى أخرج إليكما»، فدخل البيت فاشتمل على السيف، ثم خرج فضرب به المنافق حتى برد، وقال: «هكذا أقضي بين من لم يرضَ بقضاء الله ورسوله» فنزلت هذه الآية، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

الثاني: أن أبا بردة الأسلمي كان كاهنًا يقضي بين اليهود فتنافر إليه ناس من المسلمين فنزلت هذه الآية، رواه عكرمة عن ابن عباس.

الثالث: أن يهوديًا ومنافقًا كانت بينهما خصومة، فدعا اليهودي المنافق إلى النبي ﷺ؛ لأنه لا يأخذ الرشوة، ودعا المنافق إلى حُكَّامِهم؛ لأنهم يأخذون الرشوة، فلما اختلفا اجتمعا أن يُحكِّمَا كاهنًا فنزلت هذه الآية، هذا قول **الشعبي**.

الرابع: أن رجلًا من بني النضير قتل رجلًا من بني قريظة فاختصموا، فقال المنافقون منهم: «انطلقوا إلى أبي بردة الكاهن»، فقال المسلمون من الفريقين: «بل إلى النبي ﷺ»، فأبى المنافقون

فانطلقوا إلى الكاهن فنزلت هذه الآية، هذا قول **السدي**»[١].

والآية عامة في ذلك كله، فإنها ذامَّة لمن عدل عن الكتاب والسنة وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت.

والشاهد من الآية: وجوب الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور.

* * *

○ قوله: «**وقوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]» وهي **الآية الثالثة.**

قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمراد: اليهود والنصارى في قول **مجاهد وقتادة والسدي والضحاك**، وقد وُصِفُوا بالتفرُّق، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾ [البيِّنة: ٤]، وقال: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٠]، **وقيل:** عنى المشركين عبد بعضهم الصنم وبعضهم الملائكة، **وقيل:** الآية عامة في جميع الكفار وكل من ابتدع وجاء بما لم يأمر الله عَزَّ وَجَلَّ به فقد فَرَّقَ دينه»[٢]، وهذا هو **الصواب**، واختاره **الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «**والظاهر:** أن الآية عامة في كل من فارق دين الله وكان مُخَالِفًا له؛ فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ أي: فِرَقًا كأهل الملل والنحل والأهواء والضلالات فإن الله تعالى قد بَرَّأ رسوله ﷺ مما هم فيه»[٣].

---

(١) «زاد المسير» (٢/ ١١٨ - ١٢٠)، وانظر: «فتح الباري» (٥/ ٣٧، ٣٨).

(٢) «تفسير القرطبي» (٧/ ١٤٩).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٩٧).

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣] وهو ما جاءت به الرُّسُل من عبادة الله وحده لا شريك له والتمسك بشريعة الرَّسُول المتأخِّر ﷺ، فما خالف ذلك فضلالات وجهالات وآراء وأهواء، والرُّسُل بُرَآءُ منها كما قال تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وفي هذه الآية: دليل على أن الدين يأمر بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التَّفرُّق والاختلاف في أصل الدين وفي سائر مسائله الأصولية والفرعية، وهذا **هو الشاهد** من الآية.

* * *

○ قوله: «**قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى**: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٦] «**تبيض وجوه أهل السنة وَالِائْتِلَافِ، وتَسْوَدُّ وجوه أهل البدعة والاختلاف**»» أخرج هذا الأثر ابن أبي حاتم في «**التفسير**»[١] من طريق مجاشع بن عمرو، عن عبد الكريم الجزري، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وإسناده ضعيف جدًّا؛ فيه **المجاشع بن عمرو، قال العقيلي**: «حديثه منكر غير محفوظ»، **وقال يحيى بن معين**: «مجاشع بن عمرو قد رأيته أحد الكذَّابين»، **وقال أبو حاتم**: «متروك الحديث، ضعيف، ليس بشيء»[٢].

وهذا القول من ابن عباس رضي الله عنهما تفسير للآية في بعض ما دلت عليه.

○ قوله: «**تبيض وجوه أهل السنة وَالِائْتِلَافِ**» يعني: أهل السنة وأهل الحقِّ المسلمون تبيضُّ وجوههم، «**وتَسْوَدُّ وجوه أهل البدعة**

---

(١) «تفسير ابن أبي حاتم» (٣/ ٧٢٩).

(٢) «ضعفاء العقيلي» (٤/ ٢٦٤)، و«الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٨/ ٣٩٠).

والاختلاف» ومن باب أولى الكفرة.

تشمل الآية أهل البدع والكفار فتَسْوَدُّ وجوههم، أما المؤمنون أهل الحقِّ فتبيضُّ وجوههم.

يتبيَّن مناسبة هذا الأثر للترجمة بأن الذين تبيضُّ وجوههم هم أهل الإسلام الذين عملوا بشرائعه، وهم أهل الحقِّ.



﴿ قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَأْتِيَنَّ على أُمَّتِي ما أتى على بني إسرائيل حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حتى إن كان منهم من أتى أُمَّهُ عَلَانِيَةً كان في أُمَّتِي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين مِلَّةً، وتفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا مِلَّةً واحدة»، قالوا: «من هي يا رسول الله؟»، قال: «ما أنا عليه وأصحابي».

وليتأمل المؤمن الذي يرجو لقاء الله كلام الصادق الصدوق في هذا المقام، خصوصًا قوله «ما أنا عليه وأصحابي» يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة، رواه الترمذي.

ورواه أيضًا من حديث أبي هريرة وصَحَّحَهُ، لكن ليس فيه ذكر النار، وهو في حديث معاوية عند أحمد وأبي داود، وفيه: «أنه سيخرج من أُمَّتِي قوم تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَب بصاحبه، فلا يبقى مِنْهُ عِرْقٌ ولا مَفْصِلٌ إلا دخله»، وتقدَّم قوله «ومبتغ في الإسلام سنة جاهلية»».

الشَّرْحُ

حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ: «رواه الترمذي»، وهو كما قال أخرجه في «سننه»[1] من طريق سُفْيَانَ

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب «ما جاء في افتراق هذه الأمة»، رقم (٢٦٤١).
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب مفسر، لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه».

الثَّوْرِيِّ، عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ زِيَادٍ الْأَفْرِيقِيِّ، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ يَزِيدَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو به.

وفيه: عبدالرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي، وهو ضعيف عند **أهل الحديث، ضَعَّفَهُ يحيى بن سعيد القطان وغيره، قال أحمد:** «لا أكتب حديث الأفريقي»[١]، لذا قال الحاكم: «وقد رُوِيَ هذا الحديث عن عبدالله بن عمرو بن العاص وعمرو بن عوف المزني[٢] بإسنادين، تفرَّد بأحدهما عبدالرحمن بن زياد الأفريقي، والآخر كثير بن عبد الله المزني[٣] ولا تقوم بهما الحجة»[٤].

وفي الحديث: أن هذه الأمة تحذو حذو بني إسرائيل، كما في «الصحيحين»[٥] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ**»، قُلْنَا: «**يَا رَسُولَ اللهِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟**»، قَالَ: «**فَمَنْ؟!**»، **والذي يظهر:** أن التخصيص إنما وقع لجُحْرِ الضَّبِّ لشدة ضيقه ورداءته، ومع ذلك فإنهم لاقتفائهم آثارهم واتباعهم طرائقهم لو دخلوا في مثل هذا الضيق الرديء لتبعوهم[٦].

ومن المعلوم أن جُحْرَ الضَّبِّ لا يُدخَل فيه، لكنه من باب

---

(١) «سنن الترمذي» (١/ ٣٨٤)، وانظر: «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٥/ ٢٣٤).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٢١٩).

(٣) قال أحمد بن حنبل: «منكر الحديث، ليس بشيء»، وقال يحيى بن معين: «كثير ضعيف الحديث»، وقال في موضع آخر: «ليس بشيء»، وقال النسائي والدارقطني: «متروك الحديث». ترجمته في: «تهذيب الكمال» للمزي (٢٤/ ١٣٦ - ١٤٠).

(٤) «المستدرك» (١/ ٢١٨).

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب «ما ذكر عن بني إسرائيل»، رقم (٣٤٥٦)، ومسلم، كتاب العلم، رقم (٢٦٦٩).

(٦) «فتح الباري» (٦/ ٤٩٨).

المبالغة كما في حديث جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللهِ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ بَنَى مَسْجِدًا للهِ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ أَوْ أَصْغَرَ بَنَى اللهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**»[1] ومَفْحَصُ قَطَاةٍ لا يكون مسجدًا، **قال الحافظ ابن حجر** رحمه الله: «وحمل أكثر العلماء ذلك على المبالغة؛ لأن المكان الذي تفحص القطاة عنه لتضع فيه بيضها وترقد عليه لا يكفي مقداره للصلاة فيه»[2].

وهذا الافتراق الوارد في الحديث صحيح مشهور، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ أُمَّتِي سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً**»[3] وهي الفرقة الناجية، أهل السنة والجماعة، الذين على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه، وهم أهل الحقِّ، وهم الطائفة المنصورة.

وفيه: حثٌّ على لزوم الإسلام والدخول في شرائعه؛ حتى يكون الإنسان من الفرقة الناجية.

وهذا **هو الشاهد** من الترجمة، وهو التحذير من الفرق المنحرفة، والحثُّ على أن يكون المرء من الفرقة الناجية أهل

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب المساجد والجماعات، باب «من بنى لله مسجدًا»، رقم (٧٣٨).
قال النووي: «رواه ابن ماجه بإسناد صحيح». «**خلاصة الأحكام**» (١/ ٣٠٣).
وقال البوصيري: «**هذا إسناد صحيح**». «**مصباح الزجاجة**» (١/ ٩٤)

(٢) «فتح الباري» (١/ ٥٤٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب «افتراق الأمم»، رقم (٣٩٩٣)، وأحمد (٣/ ١٢٠).
قال ابن كثير: «وهذا إسناد جيد قوي على شرط الصحيح». «البداية والنهاية» (١٩/ ٣٧).
ولَمَّا سُئِلَ شيخ الإسلام ابن تيمية عن الحديث **قال**: «الحديث صحيح مشهور». «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٤٥).

الحقِّ، وهم الطائفة المنصورة، أهل السنة والجماعة.

○ قوله: **«وليتأمل المؤمن الذي يرجو لقاء الله»** فهذا هو الذي يستفيد **«كلام الصادق الصدوق في هذا المقام، خصوصًا قوله «ما أنا عليه وأصحابي»»** يعني: الفرقة الناجية.

○ قوله: **«يا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة»** القلب الحي يتأثَّر وينتفع ويستفيد ويُغيِّر حاله إلى حال أحسن.

○ قوله: **«رواه الترمذي»** وتقدَّم.

○ قوله: **«ورواه أيضًا من حديث أبي هريرة وصحَّحَهُ، لكن ليس فيه ذكر النار»**، ولفظه: **«تَفَرَّقَتْ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ أَوْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَالنَّصَارَى مِثْلَ ذَلِكَ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»**[(١)].

○ قوله: **«وهو»** يعني: هذا الحديث السابق **«في حديث معاوية عند أحمد وأبي داود، وفيه: «أنه سيخرج من أُمَّتِي قوم تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَب بصاحبه، فلا يبقى مِنْهُ عِرْقٌ ولا مَفْصِلٌ إلا دخله»»** أخرجه أحمد في **«المسند»** وأبو داود في **«السنن»** من حديث معاوية بن أبي سفيان ﵄[(٢)]، وفيهما: **«تَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ»**.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب «ما جاء في افتراق هذه الأمة»، رقم (٢٦٤٠)، وكذا أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «شرح السنة»، رقم (٤٥٩٦)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب «افتراق الأمم»، رقم (٣٩٩١)، وأحمد (٢/ ٣٣٢).

قال الترمذي: «حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح».

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وله شواهد». «المستدرك» (١/ ٢١٧)

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «شرح السنة»، رقم (٤٥٩٧)، وأحمد (٤/ ١٠٢).

وقال الحاكم وقد ساقه عقب حديث أبي هريرة المتقدِّم: «هذه أسانيد تُقام بها الحجة في تصحيح هذا الحديث»[١]، والحديث أورده **الحافظ ابن كثير** ﷺ في «تفسيره»[٢] من رواية أحمد، ولم يتكلم على سنده بشيء، ولكنه أشار إلى تقويته بقوله: «**وقد ورد هذا الحديث من طرق**».

○ قوله: «**أنه سيخرج من أُمَّتِي قوم تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَب بصاحبه، فلا يبقى مِنْهُ عِرْقٌ ولا مَفْصِلٌ إلا دخله**»» الكَلَبُ - بالتحريك -: داء يَعْرِض للإنسان من عَضِّ الكَلْبِ فيُصِيبه شبه الجنون، فلا يَعَضُّ أحدًا إلَّا كَلِب، وتَعْرِض له أعراض رديئة، ويمتنع من شُرْب الماء حتى يموت عطشًا[٣]، ويسري هذا الداء فيه فلا يبقى منه عرق ولا مفصل إلَّا دخله.

قال الإمام الشاطبي ﷺ: «وذلك أن معنى هذه الرواية: أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بما سيكون في أمته من هذه الأهواء التي افترقوا فيها إلى تلك الفِرق، وأنه يكون فيهم أقوام تداخل تلك الأهواء قلوبهم حتى لا يمكن في العادة انفصالها عنها وتوبتهم منها، على حدِّ ما يداخل داء الكَلَب جسم صاحبه فلا يبقى من ذلك الجسم جزء من أجزائه ولا مفصل ولا غيرهما إلَّا دخله ذلك الداء، وهو جريان لا يقبل العلاج، ولا ينفع فيه الدواء، فكذلك صاحب الهوى إذا دخل قلبه وأُشْرِب حُبَّهُ لا تعمل فيه الموعظة، ولا يقبل البرهان، ولا يكترِث بمن خالفه»[٤].

---

(١) «المستدرك» (١/ ٢١٨).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٩١).

(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٤/ ١٩٥).

(٤) «الاعتصام» (٢/ ٢٦٧، ٢٦٨).

يعني: إن صاحب البدعة إذا أُشْرِب قلبه حُبَّها لا يستوعب موعظة، ولا يسمع نصيحة، ولا يُبالي بمن خالفه، كما أن الكَلَب إذا أصابه لا يبقى جزء من أجزائه ولا عرق ولا مفصل إلَّا دخله ذلك الداء، فلا يمكن أن يتخلص منه في جميع أجزائه ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.

○ قوله: «**وتقدَّم قوله «ومبتغ في الإسلام سنة جاهلية»**» رواه البخاري في «**الصحيح**»[1] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذه الأحاديث التي ذكرها **المؤلف** رحمه الله واضحة في افتراق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة وما سيقع فيها من اتباع خطوات بني إسرائيل حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ[2].

وهذه الفرق الاثنين والسبعون فرقة أو الثلاث والسبعون فرقة تكلَّم عنهم **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله وفي تفسير معتقدها وعَدَّهَا رحمه الله في «الفتاوى» في الجزء الثالث، **وقال**: «وأما الفرق الباقية فإنهم أهل الشذوذ والتفرق والبدع والأهواء، ولا تبلغ الفرقة من هؤلاء قريبًا من مبلغ الفرقة الناجية فضلًا عن أن تكون بقدرها، بل قد تكون الفرقة منها في غاية الْقِلَّةِ.

وشعار هذه الفرق: مفارقة الكتاب والسنة والإجماع، فمن قال بالكتاب والسنة والإجماع كان من أهل السنة والجماعة.

وأما تعيين هذه الفرق فقد صَنَّفَ الناس فيهم مصنفات، وذكروهم في كتب المقالات، لكن الجزم بأن هذه الفرقة الموصوفة

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) قال ابن الأثير: «القذذ: ريش السهم، واحدتها قذة.
«**حذو القذة بالقذة**» أي: كما تُقَدَّر كل واحدة منهما على قَدْر صاحبتها وتُقْطَع، يُضرب مثلًا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان» .«**النهاية في غريب الحديث والأثر**» (٤/ ٢٨).

هي إحدى الثنتين والسبعين لا بُدَّ له من دليل»[١].

۞ **تنبيه:**

مسألة ينبغي أن يُهتمَّ بها، **بعض الناس** ـ خصوصًا في هذا الزمن ـ يُنزِّل الحديث على الواقع بغير دليل، فتجده يقول: «**جماعة كذا من الاثنتين والسبعين فرقة**»، نقول له: «**لا تستطيع أن تجزم بهذا إلَّا بدليل**»، فتنزيل الأحاديث على الواقع لا بُدَّ له من دليل.

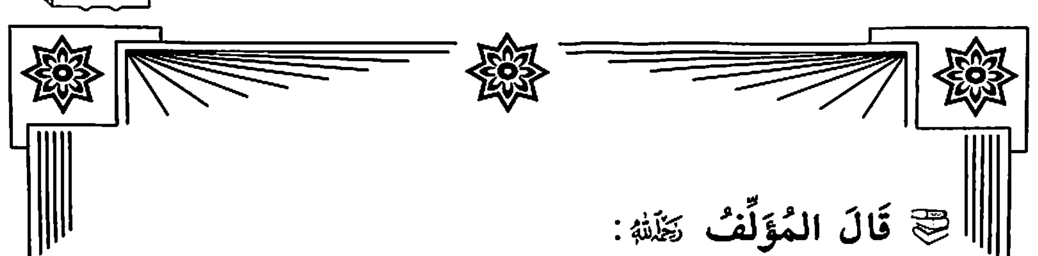
ثم **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وأما تعيين الفرق الهالكة فأقدم من بلغنا أنه تكلَّم في تضليلهم: يوسف بن أسباط، ثم عبدالله بن المبارك**، وهما إمامان جليلان من أجلاء أئمة المسلمين، **قالا**: «**أصول البدع أربعة: الروافض، والخوارج، والقدرية، والمرجئة**»، فقيل لابن المبارك: «**والجهمية؟**»، فأجاب: «**بأن أولئك ليسوا من أمة محمد**»، **وكان يقول: «إنا لنحكي كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية»** وهذا الذي قاله اتبعه عليه طائفة من العلماء من **أصحاب أحمد وغيرهم، قالوا: «إن الجهمية كفار فلا يدخلون في الاثنتين والسبعين فرقة، كما لا يدخل فيهم المنافقون الذين يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام وهم الزنادقة»، وقال آخرون من أصحاب أحمد وغيرهم: «بل الجهمية داخلون في الاثنتين والسبعين فرقة»**، وجعلوا أصول البدع خمسة، فعلى قول هؤلاء يكون كل طائفة من المبتدعة الخمسة اثنا عشر فرقة، وعلى قول الأولين يكون كل طائفة من المبتدعة الأربعة ثمانية عشر فرقة»[٢].

۞۞۞

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٤٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٥٠، ٣٥١).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«باب: ما جاء أن البدعة أشدُّ من الكبائر

لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، وقوله تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل: ٢٥].

وفي «الصحيح» أنه ﷺ قال في الخوارج: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم»، وفيه: أنه نهى عن قتل أمراء الجور ما صلوا، عن جرير ابن عبدالله رضي الله عنه أن رجلًا تصدق بصدقة ثم تتابع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «من سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سَنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» رواه مسلم، وله مثله من حديث أبي هريرة، ولفظه: «من دعا إلى هدى»، ثم قال: «ومن دعا إلى ضلالة»».



الشَّرْحُ

هذا الباب الثامن من أبواب هذه الرسالة.

وأصل مادة بدع للاختراع على غير مثال سابق، ومنه: قول الله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧] أي: مخترعهما من غير مثال سابق مُتقدِّم، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾

[الأحقاف: ٩] أي: ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله إلى العباد، بل تقدَّمني كثير من الرُّسل، ويُقال: «**ابتدع فلان بدعة**» يعني: ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق، و«**هذا أمر بديع**» يُقال في الشيء المستحسن الذي لا مثال له في الحُسن فكأنه لم يتقدَّمه ما هو مثله ولا ما يُشبِهه[1].

وفي «**الصحيحين**»[2] عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**»، فالبدعة: ما أُحْدِثَ في الدين على خلاف ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من عقيدة أو عمل.

وقيل: البدعة عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تُضاهي الشرعية يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التَّعبُّد لله سبحانه، وهذا على رأي من لا يُدخِل العادات في معنى البدعة وإنما يَخُصُّها بالعبادات، وأما على رأي من أدخل الأعمال العادية في معنى البدعة فيقول: البدعة: طريقة في الدين مخترعة تُضاهي الشرعية يُقصد بالسلوك عليها ما يُقصد بالطريقة الشرعية[3].

والكبائر كالسرقة وشرب الخمر وعقوق الوالدين والتعامل بالربا، والبدعة أشدُّ منها؛ لأن صاحب الكبيرة يعلم أنه مذنب وعاصٍ ومخطئ فحَرِيٌّ به أن يتوب، وصاحب البدعة لا يعترف بأنه مخطئ، بل يقول: «**إنه على الصواب والحقِّ، وأنتم على الباطل**»، فلا يفكر - في الغالب - في التوبة فيبقى على ما هو عليه، ولهذا كانت البدعة أحب إلى الشيطان من الكبيرة، وأشد من الكبائر.

---

(١) «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٣٦).

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) وهو تعريف الشاطبي في «الاعتصام» (١/ ٣٧).

وقول **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ «**ما جاء أن البدعة أشدُّ من الكبائر**»؛ لأن البدعة إحداث أمر لم يشرعه الله ولا رسوله ﷺ، وأما الكبيرة فهي ارتكاب ما نهيا عنه، فلذلك يتفرقان.

○ قوله: «**لقوله**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]» يُخبِر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ أي: أنه لا يغفر لعبدٍ لقِيَهُ وهو مُشْرِك به، ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: من الذنوب ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده.

قال بعض العلماء: أن الآية يدخل فيها **الشِّرك الأصغر**؛ لعموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾، وإذا مات المرء على **الشِّرك الأكبر** يُخلَّد في النار، أما **الشِّرك الأصغر** فيدخل صاحبه تحت الموازنة بين الحسنات والسيئات، فإذا رجحت السيئات دخل النار وعُذِّبَ بهذا الشِّرك ثم يخرج منها إلى الجنة، وإن رجحت الحسنات يسقط منها ما يقابلها بالشِّرك ولا يدخل النار، فإذا رجحت الحسنات فلا يُعذَّب بالشِّرك الأصغر، وإذا رجحت السيئات عُذِّبَ به ثم أُخرِج إلى الجنة، **وقال بعض أهل العلم**: أنه لا يدخل فيها، وأن حكمه حكم الكبائر، يدخل تحت قوله تعالى ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، لكن ظاهر النصوص: التأدب مع القرآن، وأنه يدخل في العموم.

والآية في غير التائبين؛ لأن الله تعالى خصَّ الشِّرك بأنه لا يُغفر، وعَلَّقَ ما دونه بالمشيئة فدل على أنه في غير التائبين، وأما آية الزمر وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] فهي في حقِّ التائبين؛ لأن الله تعالى عممَّ وأطلق بقوله ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ فهذا

للتائبين، بخلاف آية النساء فهي لغير التائبين؛ لأن خصَّ الشِّرك بأنه لا يُغفر، وعَلَّقَ ما دونه بالمشيئة.

والشِّرك تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه، والشِّرك ثلاثة أنواع: شرك في الربوبية، وشرك في الأسماء والصفات، وشرك في الألوهية.

شرك في الربوبية كأن يعتقد أن هناك مُدبِّر مع الله في هذا الكون، وأن لله صاحبة أو ولدًا.

وشرك في الأسماء والصفات كأن يعتقد أن لله شريكًا له مماثل في أسمائه وصفاته.

وشرك في الألوهية والعبادة وهو أنواع، **قد يكون بالقول** كأن يدعو غير الله أو أن يسبَّ الدين، **ويكون بالفعل** كأن يؤمن بالصنم أو يستهين بالمصحف فيطأه بقدميه أو يُلطِّخه بالنجاسة، **ويكون بالاعتقاد** كأن يعتقد أن لله صاحبة أو ولدًا، **ويكون بالشكِّ** كأن يشكَّ في ربوبية الله، أو في البعث أو الجنة أو النار، **ويكون بالرفض والترك** كأن يرفض دين الله فلا يتعلمه ولا يعبد الله كقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣]، **ويكون بالظنِّ السيء** كأن يظن أن هذا الدين لن يبقى أو لن تقوم له قائمة وهو ظنُّ المنافقين كقول الله تعالى: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١٢]، فالشِّرك يكون بالقول، وبالفعل، وبالاعتقاد، وبالشكِّ، وبالرفض والترك، وبالظن السيء، ستة أنواع كل هذا شرك في الألوهية.

وأصل الشِّرك أن يجعل المُشرِك لله ندًّا، يعني: مثيلًا لله في

الرجاء أو المحبة أو الخوف، **ولهذا يقول ابن القيم** رحمه الله:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ... ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن ... أيًّا كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ... ويحبه كمحبة الدَّيَّان[(١)]

فمن جعل لله ندًّا ومثيلًا يحبه كما يحب الله، ويرجوه كما يرجو الله، ويخافه كما يخاف الله فهذا هو الشِّرك.

والآية ظاهرة في أن الشِّرك لا يُغفر، وأن ما دونه تحت المشيئة، ومما دون الشِّرك البدعة والكبيرة، والصغائر تُغْفر باجتناب الكبائر وفعل الفرائض.

* * *

○ قوله: «وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٤]» وهذه الآية ذكرها الله تعالى في آخر الآيات الواردة في بيان ما أحلَّ الله لعباده من الأنعام وما حَرَّمَهُ المشركون على أنفسهم منها.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والاستفهام بمعنى النفي، «**من أظلم**» بمعنى: لا أحد أظلم ممن افترى على الله كذبًا ليُظِلَّ الناس بغير علم، يعني: مع كذبه وافترائه على الله قصده بذلك إضلال عباد الله عن سبيله بغير بَيِّنَة ولا برهان ولا عقل ولا نقل - نعوذ بالله -، فيفتري على الله الكذب ليضلَّ الناس بغير علم ولا بينة فهذا من أظلم الناس.

والشاهد من الآية: أن البدعة هي افتراء على الله؛ حيث شرع المبتدع ما لم يشرعه الله على ألسنة رُسُلِهِ.

* * *

---

(١) «نونية ابن القيم» (ص ٢٢٠).

○ قوله: «**وقوله تعالى**: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ [النحل: ٢٥]»، قال تعالى قبلها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤﴾ [النحل: ٢٤]، ثم قال: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ فهم يحملون آثامهم وآثام الذين يُضِلُّونهم، والمعنى: أن عليهم خطيئة ضلالهم في أنفسهم وخطيئة إغوائهم لغيرهم واقتداء أولئك بهم، كما جاء في «**صحيح مسلم**»[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**».

وهذه الآية دليل ظاهر على أن البدعة أشدُّ من الكبائر؛ لأن فيها إضلال لعباد الله وصدهم عن دينهم.

* * *

ذكر **المؤلف** رحمه الله حديث الخوارج، **قال** رحمه الله: «**وفي «الصحيح» أنه ﷺ قال في الخوارج: «أينما لقيتموهم فاقتلوهم»**»، أخرجه البخاري ومسلم من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه[2].

قال الإمام ابن عبدالبر رحمه الله: «بُويعَ لعلي رضي الله عنه بالخلافة يوم قتل **عثمان** رضي الله عنه، **واجتمع على بيعته المهاجرون والأنصار**، وتخلَّف عن بيعته منهم نفر فلم يهجهم ولم يكرههم، وسُئِلَ عنهم **فقال**: «أولئك قوم قعدوا عن الحقِّ ولم يقوموا مع الباطل»، وفي رواية أخرى:

---

(١) يأتي تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب «علامات النبوة في الإسلام»، رقم (٣٦١١)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٦٦).

«أولئك قوم خذلوا الحقَّ ولم ينصروا الباطل»، وتخلف أيضًا عن بيعته **معاوية** ومن معه في جماعة أهل الشام فكان منهم في صِفِّينَ بعد الجمل ما كان ـ تغمد الله جميعهم بالغفران ـ، ثم خرجت عليه **الخوارج** وكَفَّرُوه وكل من كان معه إذ رضى بالتحكيم بينه وبين أهل الشام، وقالوا له: «**حكمت الرجال في دين الله، والله تعالى يقول:** ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعَام: ٥٧]؟!»، ثم اجتمعوا وشقُّوا عصى المسلمين، ونصبوا راية الخلاف، وسفكوا الدماء، وقطعوا السُّبل، فخرج إليهم بمن معه ورام مراجعتهم فأبوا إلَّا القتال فقاتلهم بالنهروان فقتلهم، واستأصل جمهورهم ولم ينجُ إلَّا اليسير منهم»[١].

ومذهبهم البراءة من **عثمان وعلي** ﵄، ويرون الخروج على الإمام إذا فعل كبيرة أو معصية.

ويرون تكفير فاعل الكبيرة، فالزاني والسارق والمرابي كافر عندهم، ويستحلون دمه وماله، ويرون خلوده في النار ـ نعوذ بالله ـ.

ويوافقهم **المعتزلة** في الحكم على مرتكب الكبيرة في الدنيا، فيقولون: «**خرج من الإيمان، لكنه لم يدخل في الكفر**»، ولا يستحلون دمه وماله، ويوافقونهم في تخليده في النار في الآخرة، **فالخوارج والمعتزلة** كلٌّ منهما يرى أن مرتكب الكبيرة خالد في النار في الآخرة، ويختلف **الخوارج** بأنهم يقولون: «خرج فاعل الكبيرة من الإيمان ودخل في الكفر» فاستحلوا دمه وماله، **والمعتزلة** يقولون: «خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر»، **قالوا**: هو في منزلة بين منزلتين لا مؤمن ولا كافر، يُسمَّى فاسقًا، وهذه المنزلة بين المنزلتين أحدثها **المعتزلة** فجعلوها من أصول الدين.

---

(١) «الاستيعاب» (٣/ ١١٢١).

والمعتزلة لهم أصول خمسة استبدلوها بأصول الدين عند **أهل السنة**، فأصول الدين عند **أهل السنة** ستة، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشرِّه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأصولهم خمسة، يُسمُّونها: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

لكن معنى «التوحيد» عندهم يتضمن نفي الصفات، ولهذا سَمَّى **ابن التومرت** أصحابه «**المُوحِّدين**»، وهذا إنما هو إلحاد في أسماء الله وآياته.

ومعنى «**العدل**» عندهم يتضمن التكذيب بالقدر، وهو خلق أفعال العباد وإرادة الكائنات والقدرة على شيء، **ومنهم**: من يُنكِر تقدُّم العلم والكتاب...

وأما «**المنزلة بين المنزلتين**» فهي عندهم أن الفاسق لا يُسمَّى مؤمنًا بوجه من الوجوه كما لا يُسمَّى كافرًا، فَنَزَّلُوهُ بين منزلتين.

و«**إنفاذ الوعيد**» عندهم معناه أن فُسَّاق الْمِلَّةِ مخلدون في النار لا يخرجون منها بشفاعة ولا غير ذلك كما تقوله **الخوارج**.

و«**الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**» يتضمن عندهم جواز الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف»[١].

ونشأة **الخوارج** وأصلهم رجل يُقال له «**ذُو الْخُوَيْصِرَةِ**»، في «**الصحيحين**»[٢] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب «علامات النبوة في الإسلام»، رقم (٣٦١٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٦٤).

رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيم، فَقَالَ: «**يَا رَسُولَ اللهِ اعْدِلْ**»، فَقَالَ: «**وَيْلَكَ؛ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟!، قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**»، فَقَالَ عُمَرُ: «**يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ**»، فَقَالَ: «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»، «**فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا**» يعني: مماثلين.

يدل الحديث على وجوب قتال الخوارج إذا خرجوا على الإمام وخالفوا رأي الجماعة وشقُّوا عصى المسلمين.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «فإنهم قد استحلوا دماء المسلمين، وكَفَّرُوا من خالفهم، وجاءت فيهم الأحاديث الصحيحة، **قال الإمام أحمد بن حنبل** رَحِمَهُ اللهُ **تعالى**: «صحَّ فيهم الحديث من عشرة أوجه»، وقد أخرجها مسلم في «صحيحه»، وأخرج البخاري قطعة منها»[(١)]، فقد ثبت عشرة أحاديث في **الخوارج** كلها صحيحة بخلاف **القدريَّة**، وقد روى أهل السنن في القدرية مرفوعاً «أنهم مجوس هذه الأمة»[(٢)] وهو ضعيف **عند أهل العلم** لا يصح منها شيء[(٣)].

وذكر **الإمام ابن القيم** رَحِمَهُ اللهُ حديث «لكل أمة مجوس، ومجوس

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «في القدر»، رقم (٤٦٩١)، وأحمد (٢/ ٨٦) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.
وأخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «في القدر»، رقم (٤٦٩٢)، وأحمد (٥/ ٤٠٦) من حديث حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.
وأخرجه ابن ماجه، في المقدمة، باب «في القدر»، رقم (٩٢) من حديث جابر بن عبدالله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) قال الشاطبي: «وهذا الحديث غير صحيح عند **أهل النقل**، **قال صاحب «المغني»**: «لم يصح في ذلك شيء»». «الاعتصام» (٢/ ٢٢٧).

هذه الأمة الذين يقولون لا قدر»، ثم **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا المعنى قد رُوِيَ عن النبي ﷺ من حديث ابن عمر، وحذيفة، وابن عباس، وجابر بن عبدالله، وأبي هريرة، وعبدالله بن عمرو بن العاص، ورافع بن خديج»، ثم تكلَّم على أسانيدها، وأنه لا تخلو من مقال[1] فالصحيح أنها موقوفة على الصحابة رضي الله عنهم، فذم **القدريَّة** عن الصحابة ثابت، وأما المرفوع إلى النبي ﷺ فضعيف، بخلاف **الخوارج**.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فإن الأمة مُتَّفِقُونَ** على ذم **الخوارج** وتضليلهم، وإنما تنازعوا في تكفيرهم على قولين مشهورين في مذهب **مالك وأحمد**، وفى مذهب **الشافعي** أيضًا نزاع في كفرهم.

ولهذا كان فيهم وجهان في مذهب **أحمد وغيره**، على الطريقة الأولى **أحدهما**: أنهم بغاة، **والثاني**: أنهم كفار كالمرتدين، يجوز قتلهم ابتداءً، وقتل أسيرهم، وإتباع **مُدْبِرِهِمْ**، ومن قُدِرَ عليه منهم **أُسْتُتِيبَ** كالمرتد، فإن تاب وإلَّا قُتِلَ.

وقتال **علي للخوارج** ليس مثل القتال يوم الْجَمَلَ وَصِفِّينَ، فكلام **علي وغيره** في **الخوارج** يقتضي أنهم ليسوا كفارًا كالمرتدين عن أصل الإسلام، وهذا هو المنصوص عن الأئمة **كأحمد وغيره**، وليسوا مع ذلك حكمهم كحكم أهل الْجَمَلِ وصِفِّينَ، بل هم نوع ثالث، وهذا **أصح الأقوال** الثلاثة فيهم»[2].

واختار **شيخنا سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز** رَحِمَهُ اللَّهُ أنهم كفار[3] والجمهور على أنهم مبتدعة؛ لأنهم متأوِّلون، وهو اختيار **شيخ**

---

(١) «حاشية ابن القيم على سنن أبي داود» (١٢/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٥١٨).

(٣) «مجموع فتاوى ابن باز» (١٣/ ١٦١).

الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالصحابة عاملوهم معاملة المبتدعة[١]، ولكن إذا استطاعوا الخروج على الإمام يُقاتَلُون؛ لأنهم يُريدون أن يُفرِّقُوا عصى المسلمين.

○ قوله: «وفيه» أي: في «الصحيح» «**أنه نهى عن قتل أمراء الجور ما صلوا**» أخرجه مسلم في «صحيحه»[٢] عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**سَتَكُونُ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ عَرَفَ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ**»، قَالُوا: «**أَفَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟**»، قَالَ: «**لَا، مَا صَلَّوْا**».

وفي هذا الحديث: دليل على تحريم الخروج على ولاة الأمور لمجرد الظلم والفسق؛ لأن معهم أصل الدين وهو توحيد الله وعبادته، ولِمَا يترتب على الخروج عليهم من إراقة الدماء، واختلال الأمن، واختلال أحوال الناس الاقتصادية والعلمية والاجتماعية والتجارية، وغير ذلك، وتدخل الأعداء والكفرة، لكن في الصبر على جورهم مفسدة صغيرة، وهي الصبر على جورهم.

وإذا وُجِدَت مفسدتان لا يمكن تركهما نرتكب الصغرى فيهما؛ لدرء المفسدة الكبرى، فعندنا مفسدتان، مفسدة الجور والظلم من ولي الأمر كقتله بعض الناس بغير حقٍّ، أو أخذه مالًا بغير حقٍّ، أو لكونه لم يُعْطِ حقًّا، والمفسدة الثانية إراقة الدماء وتحزب الناس واختلال أحوالهم، وهي أعظم، فنرتكب المفسدة الصغرى ونصبر على جوره وظلمه، والنصيحة مبذولة لهم من **أهل العلم وأهل الحلِّ والعقد**، فإن قبلوا فالحمد لله، وإن لم يقبلوها فقد أدَّى الناس ما

---

(١) انظر: منهاج السنة (٥/ ١٢)، (٥/ ٩٥)، (٥/ ٢٤١-٢٤٧).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٥٤).

عليهم، أما الخروج عليهم فيترتب عليه مفاسد عظيمة.

وفي قوله ﷺ: «لَا، مَا صَلَّوْا» مع ما في «الصحيحين»[(١)] عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: دَعَانَا النَّبِيُّ ﷺ فَبَايَعْنَاهُ، فَقَالَ: «فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا وَأَثَرَةً عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ» إذًا يجوز الخروج عليهم إذا أتوا كفرًا بواحًا، فدلَّ على أن ترك الصلاة كفر بواح.

ولا يجوز الخروج على ولاة الأمر إلَّا بشروط:

الشرط الأول: أن يفعل كفرًا لا فسقًا؛ لقوله ﷺ: «**إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا**».

الشرط الثاني: أن يكون الكفر بَواحًا، يعني: ظاهرًا باديًا؛ لقوله «**إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا**»، فإن كان فيه شبهة أو تأويل فلا.

الشرط الثالث: أن يكون دليله واضحًا كآية أو سنة لا تحتمل التأويل؛ لقوله ﷺ: «**عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**».

الشرط الرابع: وجود البديل المسلم الذي يحل محله، فإذا لم يوجد بديلًا فليس هناك فائدة من الخروج؛ فإزالة الكافر ويأتي محله كافر لم يحصل المقصود.

الشرط الخامس: القدرة والاستطاعة، فإذا كان يحكم الناس بالحديد والنار ولم يستطع الناس فيكونون معذورين، ففي هذه الحالة يتعاون معه في أمور الخير، ويصرفون من الشرِّ ما استطاعوا.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب «قول النبي ﷺ «سترون بعدي أمورًا تنكرونها»»، رقم (٧٠٥٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٤٠).

وإذا وُجِدَت هذه الشروط الخمسة جاز الخروج عليهم.

○ قوله: «**عن جرير بن عبدالله ﷺ أن رجلًا تصدَّق بصدقة ثم تتابع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**» رواه مسلم في كتاب الزكاة[١].

○ وقوله: «**من سنَّ في الإسلام سنة حسنة**» يحتمل أن المعنى: أحياها بعد ما ماتت، مثلًا كأن يكون هناك سنة أُمِيتت فيأتي مثلًا إلى قوم لا يعرفون صلاة الضحى فيحثُّهم عليها فيُحييها عندهم فهذا قد سنَّ في الإسلام سنةً حسنة، أو مثلًا كانوا لا يصومون الستَّ من شوال فأحياها وحثَّهم عليها فأحيى هذه السنة بعد ما ماتت وهكذا، وليس المراد أنه يبتدع في الدين.

ويحتمل أن المعنى: العمل بما ثبت في السنة النبوية اقتداء؛ لأن سبب الحديث كما يقول جَرِيرُ بْنُ عَبْدِاللهِ ﷺ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ[٢] مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ، فَتَمَعَّرَ[٣] وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ

---

(١) رقم (١٠١٧).

(٢) النِمار ـ بكسر النون ـ جمع نَمرة بفتحها، وهي ثياب صوف فيها تنمير.
والعَباء ـ بالمد وبفتح العين ـ جمع عباءة وعباية لغتان.
وقوله «مجتابي النمار» أي: خرقوها وقوروا وسطها.
شرح النووي على «صحيح مسلم» (٧/ ١٠٢).

(٣) هو بالعين المهملة ـ أي: تغيَّر. شرح النووي على «صحيح مسلم» (٧/ ١٠٢).

فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١] وَالآيَةَ الَّتِي فِي «الْحَشْرِ» ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨]، «**تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ**»[1] حَتَّى قَالَ: «**وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**»، قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**» فهذا سنَّ يعني: تقدَّم، والذي تقدَّم صار هو الشجاع، وكان في الأول، فسنَّ للناس العمل بهذه السنة، واقتدوا به.

وفي المقابل قال ﷺ: «**وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**» ومن ذلك: ما في «**الصحيحين**»[2] عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ**»، قابيل وهابيل ابنا آدم ﷺ، لَمَّا قتل قابيل هابيل حمل وزره، وصار كل مقتول ظُلمًا عليه وزره، ويأتي ابنَ آدم كِفلٌ منها وقسط من الوزر؛ لأنه أوَّل مَنْ سنَّ القتل.

---

(١) أي: ليتصدق، لفظه الخبر ومعناه الأمر، كقولهم في المثل «**أنجز حر ما وعد**» أي: لينجز. «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ١٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب «خلق آدم صلوات الله عليه وذريته»، رقم (٣٣٣٥)، ومسلم، كتاب القسامة، رقم (١٦٧٧).

مَنْ سَنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، ويأتيه أجر مِنْ كل مَنْ عمل بها، ومَنْ سَنَّ في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها، ويأتيه وزر مِنْ كل مَنْ عمل بها من بعده.

وفي الحديث: دليل على أن البدع كلها سيئة وليست حسنة، وهذا هو الشاهد من الباب.

○ قوله: «**وله مثله من حديث أبي هريرة، ولفظه: «من دعا إلى هدى»، ثم قال: «ومن دعا إلى ضلالة»**» أخرج مسلم في «**صحيحه**»[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا**».

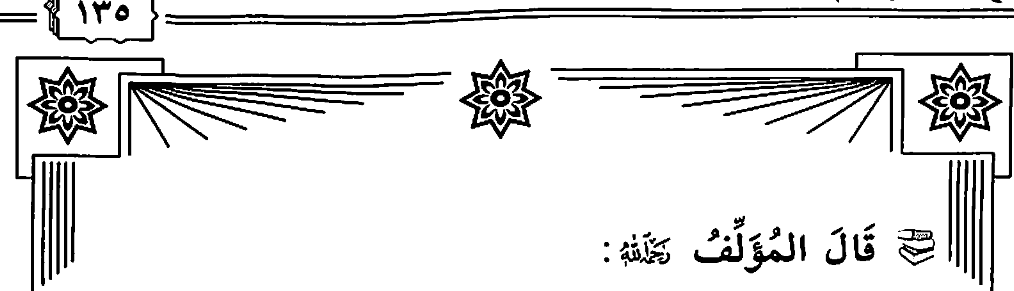
وفيه من الفوائد: الحثُّ على استحباب سنِّ الأمور الحسنة، وتحريم سنِّ الأمور السيئة.

وفيه: أن من دعا إلى هدى كان له مثل أجور تابعيه، ومن دعا إلى ضلالة كان له مثل آثام تابعيه، سواء كان هو الذي ابتدع الهدى أو هو الذي ابتدع الضلالة أو كان مسبوقًا إليه، وسواء كان ذلك تعليم علم أو عبادة أو أدب أو غير ذلك.

۞۞۞

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب العلم، رقم (٢٦٧٤).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«باب: ما جاء أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة

هذا مروي من حديث أنس، ومن مراسيل الحسن.

«وذكر ابن وضَّاح عن أيوب قال: كان عندنا رجل يرى رأيًا فتركه، فأتيت محمد بن سيرين فقلت: «أشعرت أن فلانًا ترك رأيه؟»، قال: «انظر إلى ماذا يتحوَّل؟، إن آخر الحديث أشد عليهم من أوَّله، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمية ثم لا يعودون إليه»، وسُئِلَ أحمد بن حنبل عن معنى ذلك فقال: «لا يُوفَّق للتوبة»».

الشَّرْحُ

هذا الباب التاسع من أبواب هذه الرسالة، وهو مناسب لأبواب الرسالة؛ لأن المؤلف رَحِمَهُ اللهُ لَمَّا ذكر ما يُضاد الإسلام ذكر في هذا الباب عقوبة مَنْ ارتكب أو دعا إلى ما يُضاده، وعقوبته أن الله يحتجز التوبة عن صاحب البدعة.

○ قوله: «**هذا**» يعني: احتجاز التوبة عن صاحب البدعة «**مروي من حديث أنس**» أخرجه إسحاق بن راهويه في «**مسنده**»[١]، وابن أبي عاصم في «**السنة**»[٢]، والبيهقي في «**شعب الإيمان**»[٣] من طريق

(١) «مسند إسحاق بن راهويه» (٣٩٨).
(٢) «السنة» لابن أبي عاصم (٣٧).
(٣) «شعب الإيمان» (٧/ ٥٩).

محمد بن عبدالرحمن القشيري، عن حميد الطويل، عن أنس مرفوعًا.

قال ابن عدي رَحِمَهُ اللهُ في «الكامل»[١] بعد ما روى عدة أحاديث عن محمد بن عبدالرحمن القشيري منها هذا الحديث: «وهذه الأحاديث **لمحمد بن عبدالرحمن القشيري** بأسانيدها كلها مناكير بهذا الإسناد، ومنها ما متنه منكر، **ومحمد** هذا مجهول، وهو مجهولي شيوخ **بقية**».

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، ومدار الطريقين علي **محمد بن عبدالرحمن الكوفي القشيري**، **قال ابن عدي**: «هو منكر الحديث مجهول، وهو من مشايخ **بقية** المجهول»»[٢].

وأخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط»[٣] والبيهقي في «شعب الإيمان»[٤] من طريق هارون بن موسى الفروي، قال: نا أبو ضمرة أنس بن عياض، عن حميد الطويل، عن أنس بن مالك مرفوعًا، وعند ابن أبي عاصم: «إن الله حجز ـ أو قال: حجب التوبة»، وعند البيهقي: «احتجب الله التوبة».

قال المنذري: «رواه الطبراني، وإسناده حسن»[٥] وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح، غير **هارون بن موسى الفروي** وهو ثقة»[٦].

---

(١) «الكامل في ضعفاء الرجال» (٦/ ٢٥٧).

(٢) «العلل المتناهية» (١/ ١٤٥، ١٤٦).

(٣) «المعجم الأوسط» (٤٢٠٢).

(٤) «شعب الإيمان» (٧/ ٥٩).

(٥) «الترغيب والترهيب» (١/ ٤٥).

(٦) «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٨٩).

وقد استنكر **الذهبيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ الحديثَ؛ حيث قال في «**ميزان الاعتدال**»[١]: «**هارون بن موسى الفروي**، شيخ صدوق من شيوخ النسائي، روى الساجي وابن ناجية عنه، عن أبي ضمرة، عن حميد، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «**إن الله يحجب التوبة عن كل صاحب بدعة**» هذا منكر».

○ قوله: «**ومن مراسيل الحسن**» أخرجه ابن وضَّاح في «**البدع والنهي عنها**»[٢] من طريق بقية، قال: حدثني محمد، عن هشام، عن الحسن، أن رسول الله ﷺ قال: «**أبى الله لصاحب بدعة بتوبة**»، ورواية الحسن عن النبي ﷺ مرسلة، **قال الذهبي**: «ومن أوهى المراسيل عندهم: مراسيل الحسن، وأوهى من ذلك: مراسيل الزهري، وقتادة، وحميد الطويل، من صغار التابعين، **وغالب المحقِّقين** يَعُدُّون مراسيل هؤلاء معضلات ومنقطعات؛ فإن غالب روايات هؤلاء عن تابعي كبير، عن صحابي، فالظن بمرسله أنه أسقط من إسناده اثنين»[٣]، وعلى كل حال هذه الآثار فيها ضعف، لكن قد يُقال إن الآثار يشد بعضها بعضًا.

ومن الآثار التي وردت: حديث حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا يَقْبَلُ اللهُ لِصَاحِبِ بِدْعَةٍ صَوْمًا، وَلَا صَلَاةً، وَلَا صَدَقَةً، وَلَا حَجًّا، وَلَا عُمْرَةً، وَلَا جِهَادًا، وَلَا صَرْفًا، وَلَا عَدْلًا، يَخْرُجُ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا تَخْرُجُ الشَّعَرَةُ مِنَ الْعَجِينِ**»[٤] وإسناده ضعيف؛ فيه

---

(١) «ميزان الاعتدال» (٧/٦٦).

(٢) «البدع» (١٤٥).

(٣) «الموقظة في علم مصطلح الحديث» (ص ٤٠).

(٤) أخرجه ابن ماجه، في المقدمة، باب «اجتناب البدع والجدل»، رقم (٤٩).

محمد بن محصن وقد **اتفقوا** على ضعفه[١]، وروى له **ابن عدي** أحاديث، ثم **قال**: «هذه الأحاديث بأسانيدها مع غير هذا مما لم أذكره **لمحمد بن إسحاق العكاشي** كلها مناكير موضوعة»[٢].

والأصل في هذا: أن من تاب قبل الموت توبة بشروطها تاب الله عليه؛ لأن الله تعالى عرض التوبة على أكفر خلق الله، على المُثَلِّثَة الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٣-٧٤].

وفي «**الصحيحين**»[٣] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «**كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟، فَقَالَ: «لَا»** فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟، فَقَالَ: «**نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟!، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا؛ فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ؛ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ**»، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: «**جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ**»، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: «**إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ**»، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ

---

(١) «مصباح الزجاجة» (١/ ١٠).

(٢) «الكامل في ضعفاء الرجال» (٦/ ١٦٨).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب «حديث الغار»، باب (٥٤)، رقم (٣٤٧٠)، ومسلم، كتاب التوبة، رقم (٢٧٦٦) ـ واللفظ له ـ.

فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: «**قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ**»، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ».

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزُّمَر: ٥٣] يعني: للتائبين.

لكن قد يُقال: أن أصحاب البدع يُخشى عليهم أن لا يُوفَّقُوا للتوبة، وإلَّا فمن وُفِّقَ للتوبة بشروطها تاب الله عليه.

○ قوله: «وذكر ابن وضَّاح» في «البدع والنهي عنها»[1] «**عن أيوب قال**: كان عندنا رجل يرى رأيًا» أي: كان يرى رأي الخوارج، وهو بدعة «فتركه، **فأتيت محمد بن سيرين فقلت**: «**أشعرت أن فلانًا ترك رأيه؟**»، قال: «**انظر إلى ماذا يتحوَّل؟، إن آخر الحديث أشد عليهم من أوَّله، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرَّمية ثم لا يعودون إليه**».

○ وقوله: «ثم لا يعودون إليه» من باب الوعيد كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصَّف: ٥]، فهو من باب الوعيد، يعني: يُخشى عليه أن لا يُوفَّق للتوبة وقد يُوفَّق لها، مثل ما يتوعد صاحب الكبيرة بالنار، فقد يدخل النار وقد لا يدخلها، وقد يُعفى عنه.

وهذا الأثر أخرجه ابن وضَّاح قال: نا أسد، قال: نا موسى بن إسماعيل، عن حماد بن زيد، عن أيوب.

وإسناده صحيح إن كان شيخ **أسد موسى بن إسماعيل**، فأخشى أن يكون مُصحَّفًا عن **مؤمل بن إسماعيل**.

---

(١) «البدع» (١٤٤).

○ قوله: «**وسُئِلَ أحمد بن حنبل عن معنى ذلك فقال: «لا يُوفَّق للتوبة»**»، **قال السفاريني**: «وقال القاضي: سُئِلَ الإمام أحمد ﷺ عن ما روي عن النبي ﷺ: «**أن الله احتجر التوبة عن كل صاحب بدعة**»[(١)] وحجر التوبة أيش معناه؟، **قال أحمد**: «**لا يُوفَّق ولا يُيَسَّرُ صاحب بدعة**»»[(٢)].

وفي هذين الحديثين والأثر الذي ذكرهم **المؤلف** ﷺ دليل لِمَا ترجم عليه ﷺ باب «**ما جاء أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة**»، وقد فَسَّرَ **الإمام أحمد** ﷺ ذلك بأنه لا يُوفَّق للتوبة، فهذا من باب الوعيد.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «فالمغفرة العامة لجميع الذنوب نوعان:

أحدهما: المغفرة لمن تاب كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤﴾ [الزُّمَر: ٥٣- ٥٤]، فهذا السياق مع سبب نزول الآية يُبيِّن أن المعنى لا ييأس مذنب من مغفرة الله ولو كانت ذنوبه ما كانت؛ فإن الله سبحانه لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لعبده التائب، وقد دخل في هذا العموم الشِّرك وغيره من الذنوب، فإن الله تعالى يغفر ذلك لمن تاب منه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقال في الآية الأخرى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» (٢/ ٤٥٧).

إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٣- ٧٤]، وهذا القول الجامع بالمغفرة لكل ذنب للتائب منه ـ كما دل عليه القرآن والحديث ـ هو **الصواب** عند **جماهير أهل العلم، وإن كان من الناس من يستثنى بعض الذنوب كقول بعضهم** «إن توبة الداعية إلى البدع لا تقبل باطنًا؛ للحديث الإسرائيلي الذى فيه «فكيف من أضللت»، وهذا غلط؛ فإن الله قد بَيَّنَ في كتابه وسنة رسوله أنه يتوب على أئمة الكفر الذين هم أعظم من أئمة البدع»[1].

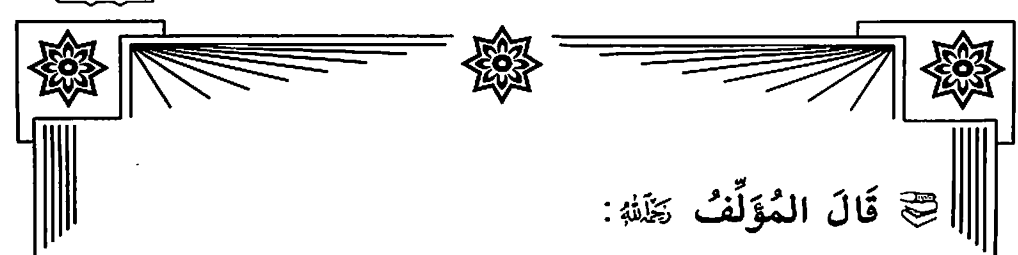
وقال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**قال ابن عقيل** في «الإرشاد»: الرجل إذا دعا إلى بدعة ثم نَدِمَ على ما كان وقد ضلَّ به خلق كثير وتفرَّقُوا في البلاد وماتوا فإن توبته صحيحة إذا وُجِدَت الشرائط، ويجوز أن يغفر الله له ويقبل توبته ويُسْقِط ذنب من ضلَّ به بأن يرحمه ويرحمهم، وبه قال **أكثر العلماء**»[2].

الصواب: أن هذا من باب الوعيد، وأنه إذا تاب بشروط التوبة فإن توبته صحيحة، لكن يُخشى عليه بأنه لا يُوفَّق للتوبة.



(١) «مجموع الفتاوى» (١٨/ ١٨٥، ١٨٦).

(٢) «الآداب الشرعية» (١/ ١٣٨).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«باب: قول الله تعالى:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧]

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ [البقرة: ١٣٠].

وفيه: حديث الخوارج، وقد تقدَّم.

وفيه: أنه ﷺ قال: «إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما أوليائي المتقون».

وفيه أيضًا: عن أنس أن رسول الله ﷺ ذُكِرَ له أن بعض الصحابة قال: «أما أنا فلا آكل اللحم»، وقال الآخر: «أما أنا فأقوم ولا أنام»، وقال الآخر: «أما أنا فلا أتزوج النساء»، وقال الآخر: «أما أنا فأصوم ولا أفطر»، فقال ﷺ: «لكنني أقوم، وأنام، وأصوم، وأفطر، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

فتأمل، إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل للعبادة قيل فيه هذا الكلام الغليظ، وسُمِّي فعله رغوبًا عن السنة، فما ظنك بغير هذا من البدع؟!، وما ظنك بغير الصحابة؟!».



الشَّرح

هذا الباب العاشر من أبواب هذه الرسالة.

ذكر **المؤلف** رحمه الله فيه شيئًا مما يُناقِض الإسلام، وهو المحاجة والمجادلة بغير حقٍّ، وهي طريقة اليهود والنصارى.

○ قوله: «**قول الله تعالى**: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ إلى قوله: ﴿مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾» يعني: يريد الآيات كلها، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾ [آل عمران: ٦٥-٦٧].

وفي هذه الآيات إنكار من الله تعالى على اليهود والنصارى في محاجتهم لإبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام، ودعوى كل طائفة منهم أنه كان منهم، فقالت الأحبار: «**ما كان إبراهيم إلَّا يهوديًا**»، وقالت النصارى: «**ما كان إبراهيم إلَّا نصرانيًا**»، كيف تَدَّعون أيها اليهود أنه كان يهوديًا وقد كان زمنه قبل أن يُنزِّل الله التوراة على موسى؟!، وكيف تَدَّعون أيها النصارى أنه كان نصرانيًا وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر؟!، وهذا من جهلهم وضلالهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾.

قال الشيخ السعدي رحمه الله: «لَمَّا ادَّعى اليهود أن إبراهيم كان يهوديًا والنصارى أنه نصراني وجادلوا على ذلك ردَّ تعالى محاجتهم ومجادلتهم من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم به علم، فلا يمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجوا ويُجَادِلُوا في أمر هم أجانب عنه وهم جادلوا في أحكام التوراة والإنجيل سواء أخطأوا أم

أصابوا فليس معهم المحاجة في شأن إبراهيم.

الوجه الثاني: أن اليهود ينتسبون إلى أحكام التوراة، والنصارى ينتسبون إلى أحكام الإنجيل، والتوراة والإنجيل ما أُنْزِلَا إلَّا من بعد إبراهيم، فكيف ينسبون إبراهيم إليهم وهو قبلهم مُتقدِّمٌ عليهم، فهل هذا يعقل؟!، فلهذا قال ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: فلو عقلتم ما تقولون لم تقولوا ذلك.

الوجه الثالث: أن الله تعالى بَرَّأَ خليله من اليهود والنصارى والمشركين، وجعله حنيفًا مسلمًا، وجعل أولى الناس به مَنْ آمن به مِنْ أمته، وهذا النبي وهو محمد ومن آمن معه فهم الذين اتبعوه، وهم أولى به من غيرهم، والله تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم، وأما من نبذ مِلَّتَهُ وراء ظهره كاليهود والنصارى والمشركين فليسوا من إبراهيم، وليس منهم، ولا ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب.

وقد اشتملت هذه الآيات على النهي عن المحاجة والمجادلة بغير علم، وأن من تكلَّم بذلك فهو مُتكلِّم في أمر لا يمكن منه ولا يُسْمَحُ له فيه»[1].

* * *

○ قوله: «وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البَقَرَة: ١٣٠]» **وهي الآية الثانية.**

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تبارك وتعالى ردًّا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشِّرك بالله المخالف لِمِلَّةِ إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جَرَّدَ توحيد ربِّهِ تبارك وتعالى فلم يَدْعُ معه غيره،

(١) «تفسير السعدي» (ص ١٣٤).

ولا أشرك به طرفة عين، وتبرَّأ من كل معبود سواه، وخالف في ذلك سائر قومه حتى تبرَّأ من أبيه، فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٨-٧٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٢]، ولهذا وأمثاله قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾ [البقرة: ١٣٠] أي: ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحقَّ إلى الضلال حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنِّه إلى أن اتخذه الله خليلًا، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه ومِلَّتَهُ واتبع طُرُقَ الضلالة والغي فأيُّ سفه أعظم من هذا ؟!، أم أيُّ ظلم أكبر من هذا ؟! كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

وقال أبو العالية وقتادة: «نزلت هذه الآية في اليهود، أحدثوا طريقًا ليست من عند الله وخالفوا مِلَّةَ إبراهيم فيما أحدثوه»[(١)].

○ قوله: «**وفيه: حديث الخوارج، وقد تقدَّم**» وهو حديث «**الصحيحين**»[(٢)] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﵁ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٨٦)، وانظر: «تفسير الطبري» (٣/ ٨٩).
(٢) تقدَّم تخريجه.

تَمِيم، فَقَالَ: «**يَا رَسُولَ اللهِ اعْدِلْ**»، فَقَالَ: «**وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟! قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ**»، فَقَالَ عُمَرُ: «**يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ**»، فَقَالَ: «**دَعْهُ؛ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**».

وقد حثَّ النبي ﷺ على قتالهم كما في «**الصحيحين**»[1] عَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ**».

○ قوله: «**وفيه: أنه قال: «إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء، إنما أوليائي المتقون»**» وهو في «**الصحيحين**» عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ جِهَارًا غَيْرَ سِرٍّ يَقُولُ: «**أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي - يَعْنِي: فُلَانًا - لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**»[2].

قال الإمام النووي رحمه الله: «هذه الكناية بقوله «**يعني: فلانًا**» هي من **بعض الرواة**؛ خشى أن يُسمِّيه فيترتب عليه مفسدة وفتنة إما في حقِّ نفسه وإما في حقِّه وحقِّ غيره فكَنَّى عنه.

والغرض: إنما هو قوله ﷺ «**إنما وليي الله وصالح المؤمنين**»، ومعناه: إنما وليي من كان صالحًا وإن بَعُدَ نسبه مني، وليس وليي من كان غير صالح وإن كان نسبه قريبًا»[3].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «**وقال القرطبي**: فائدة الحديث: انقطاع الولاية في الدين بين المسلم والكافر ولو كان قريبًا

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب «تُبَلُّ الرَّحِمُ بِبَلَالِهَا»، رقم (٥٩٩٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢١٥) - واللفظ له -.

(٣) شرح النووي على «صحيح مسلم» (٣/ ٨٧).

حميمًا»[١].

وفيه: دليل ظاهر على أهمية الولاء والبراء، وأن مِنْ عُرَى الإيمان مولاة الله ورسوله ومعاداة الكفار والمشركين.

وفيه: إعلان البراءة ممن لا يستحق الولاية، وهذه مِلَّةُ إبراهيم عليه السلام، وهذا هو **الشاهد** من الحديث في هذا الباب.

○ قوله: **«وفيه أيضًا: عن أنس أن رسول الله ﷺ ذُكِرَ له أن بعض الصحابة قال: «أما أنا فلا آكل اللحم»، وقال الآخر: «أما أنا فأقوم ولا أنام»، وقال الآخر: «أما أنا فلا أتزوج النساء»، وقال الآخر: «أما أنا فأصوم ولا أفطر»، فقال ﷺ: «لكنني أقوم، وأنام، وأصوم، وأفطر، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»»**، وهو في **«الصحيحين»** عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه يَقُولُ: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: **«وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؛ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟!»**، قَالَ أَحَدُهُمْ: **«أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا»**، وَقَالَ آخَرُ: **«أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ»**، وَقَالَ آخَرُ: **«أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا»**، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: **«أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟!، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»**[٢].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «**قوله «جاء ثلاثة رهط»** كذا في رواية حميد، وفي رواية ثابت عند مسلم **«أن نفرًا من أصحاب النبي**

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٤٢١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب النكاح، باب «الترغيب في النكاح؛ لقوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] الآية، رقم (٥٠٦٣)، ومسلم، كتاب النكاح، رقم (١٤٠١).

ﷺ»، ولا منافاة بينهما؛ فالرهط من ثلاثة إلى عشرة، والنفر من ثلاثة إلى تسعة، وكل منهما اسم جمع لا واحد له من لفظه.

• قوله «**يسألون عن عبادة النبي ﷺ**»، في رواية مسلم عن علقمة «**في السِّرِّ**».

• قوله: «**كأنهم تقالُّوها**» ـ بتشديد اللام المضمومة ـ، أي: استقلوها، وأصل: تقالوها تقاللوها، أي: رأى كل منهم أنها قليلة.

• قوله «**فقالوا: «وأين نحن من النبي ﷺ؛ قد غفر الله له**»، والمعنى: أن من لم يعلم بحصول ذلك له يحتاج إلى المبالغة في العبادة عسى أن يحصل بخلاف من حصل له، لكن قد بَيَّنَ النبي ﷺ أن ذلك ليس بلازم فأشار إلى هذا بأنه أشدهم خشية وذلك بالنسبة لمقام العبودية في جانب الربوبية، وأشار في حديث عائشة والمغيرة كما تقدَّم في صلاة الليل إلى معنى آخر بقوله «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[(١)].

• قوله: «**فقال أحدهم: «أما أنا فأنا أصلي الليل أبدًا**» هو قيدٌ لليل لا لـ«**أصلي**».

• وقوله: «**فلا أتزوج أبدًا**» أكَّد المصلي ومعتزل النساء بالتأبيد ولم يؤكد الصيام؛ لأنه لا بُدَّ له من فطر الليالي، وكذا أيام العيد، ووقع في رواية مسلم «**فقال بعضهم: لا أتزوج النساء**»، وقال بعضهم: «**لا آكل اللحم**»، وقال بعضهم: «**لا أنام على الفراش**»،

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب «قيام النبي ﷺ الليل حتى ترم قدماه»، رقم (١١٣٠)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وأخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الفتح، باب «﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝﴾ [الفتح: ٢]»، رقم (٤٨٣٧)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، رقم (٢٨٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وظاهره مما يؤكد زيادة عدد القائلين؛ لأن ترك أكل اللحم أخص من مداومة الصيام، واستغراق الليل بالصلاة أخص من ترك النوم على الفراش، ويمكن التوفيق بضروب من التجوز.

• قوله: «**فجاء إليهم رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم»**»، في رواية مسلم: «**فبلغ ذلك النبي ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «ما بال أقوام قالوا كذا؟»**»، ويجمع بأنه منع من ذلك عمومًا جهرًا مع عدم تعيينهم وخصوصًا فيما بينه وبينهم؛ رفقًا بهم وسترًا لهم.

• قوله: «**إني لأخشاكم لله وأتقاكم له**» فيه: إشارة إلى ردِّ ما بنوا عليه أمرهم من أن المغفور له لا يحتاج إلى مزيد في العبادة بخلاف غيره، فأعلمهم أنه مع كونه يبالغ في التشديد في العبادة أخشى لله واتقى من الذين يشددون، وإنما كان كذلك لأن المشدد لا يأمن من الملل بخلاف المقتصد فإنه أمكن؛ لاستمراره، وخير العمل ما داوم عليه صاحبه.

• قوله: «**لكني**» استدراك من شيء محذوف دل عليه السياق، أي: أنا وأنتم بالنسبة إلى العبودية سواء لكن أنا اعمل كذا.

• قوله: «**فمن رغب عن سنتي فليس مني**» المراد بالسنة: الطريقة لا التي تقابل الفرض، والرغبة عن الشيء: الأعراض عنه إلى غيره، والمراد: من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني، ولَمَّحَ بذلك إلى طريق الرهبانية فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى»[١].

وفي الحديث: دليل على أن طريقة النبي ﷺ هي الحنفية السمحة.

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ١٠٤، ١٠٥) مختصرًا.

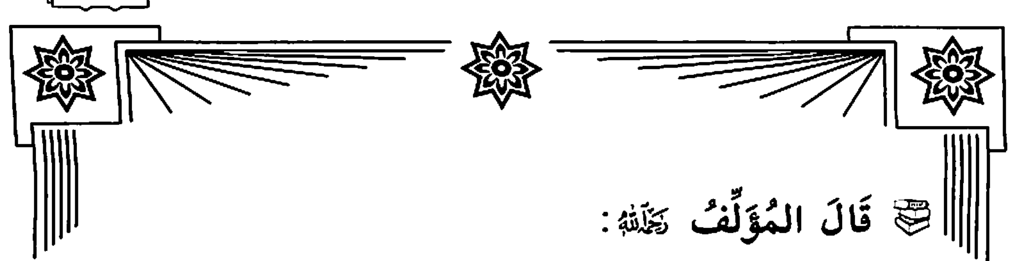
وفيه : التحذير من الرغبة عن سنة النبي ﷺ والإعراض عنها.

○ قوله: «**فتأمل، إذا كان بعض الصحابة أراد التبتل للعبادة**» والتبتل الانقطاع للاستمرار في العبادة.

○ قوله: «**قيل فيه هذا الكلام الغليظ، وسُمِّي فعله رغوبًا عن السنة**» قال ﷺ: «**فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**».

○ قوله: «**فما ظنُّك بغير هذا من البدع؟!، وما ظنَّك بغير الصحابة ؟!**» وجه استدلال **المؤلف** رحمه الله : أن النبي ﷺ شدَّد الأمر في المتبتلين وهم يعبدون الله؛ لأنهم خالفوا سنته، فكيف بمن خالف السنة إلى البدع؟!، وكيف إن كان من غير الصحابة؟!، فهو من باب أولى.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«باب: قول الله تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الرُّوم: ٣٠]

قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الرُّوم: ٣٠]، وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١٣٢]، وقوله: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لكل نبي وُلَاةً من النبيين، وإنَّ وَلِيِّي منهم أبي إبراهيم وخليل ربي**»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عِمرَان: ٦٨] رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»».

الشَّرْحُ

هذا الباب الحادي عشر من أبواب هذه الرسالة.

○ قوله: «باب «قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾» ومما يشمله الدخول في الدين، والتمسك بالفطرة السليمة، وهي مِلَّةُ

إبراهيم عليه السلام، وإقامة الوجه للدين القويم، يعني: إخلاص العمل لله والفطرة السليمة.

○ قوله: «قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم: ٣٠]».

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى: فسدِّدْ وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملَّة إبراهيم الذي هداك الله لها وكمَّلها لك غاية الكمال وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده وأنه لا إله غيره كما تقدَّم عند قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وفي الحديث: «**إني خلقت عبادي حنفاء فَاجْتَالَتْهُمْ الشياطين عن دينهم**»(١).

وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ قال بعضهم: معناه: لا تُبَدِّلُوا خلق الله فَتُغَيِّرُوا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فيكون خبرًا بمعنى الطلب كقوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عِمرَان: ٩٧] وهو معنى حسن صحيح، **وقال آخرون**: هو خبر على بابه، ومعناه: أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلَّا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك، ولهذا قال **ابن عباس وإبراهيم النخعي وسعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وابن زيد** في قوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الرُّوم: ٣٠] أي: لدين الله(٢).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٦٥).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/٩٨-٩٩).

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ أي: فلهذا لا يعرفه أكثر الناس فهم عنه ناكبون كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآية [الأنعام: ١١٦]»[1].

* * *

○ قوله: «**وقوله تعالى**: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢]»، ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ﴾ أي: بهذه الكلمة العظيمة، ﴿إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ وصَّى **إبراهيم ويعقوب** عليهما السلام بنيهما بكلمة التوحيد، وهي الإسلام لله، والانقياد له وحده دون ما سواه، والبراءة من الشِّرك وأهله، ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ يعني: اختاره لكم دينًا تدينون به لله ﷻ تقومون بحقِّه وحقِّ عبادته، ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: استمروا على إسلامكم إلى الموت.

وفسَّرها بعد ذلك بقوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

والشاهد من الآية: أهمية الاستسلام لله ﷻ والانقياد له حيث أن الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام وصَّوا به أبناءهم.

* * *

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٣٣، ٤٣٤) مختصرًا.

○ وقوله: «**وقوله**: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٣﴾ [النحل: ١٢٣]».

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: ومن كماله وعظمته وصحة توحيده وطريقه أنا أوحينا إليك يا خاتم الرُّسُل وسيد الأنبياء ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٣﴾ كقوله في «**الأنعام**» ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٦١﴾ [الأنعام: ١٦١]»[(١)].

* * *

○ قوله: «**وعن ابن مسعود** رضي الله عنه **أن رسول الله** ﷺ **قال**: «**إن لكل نبي وُلَاةً من النبيين، وإنَّ وَلِيِّي منهم أبي إبراهيم وخليل ربي**»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾ [آل عِمرَان: ٦٨] رواه الترمذي» من طريق سفيان، عن أبيه، عن أبي الضُّحى، عن مسروق، عن عبدالله بن مسعود به[(٢)].

قال الذهبي: «غريب جدًّا، أخرجه الترمذي عن شيخ له عن أبي أحمد، **وله علة**؛ فرواه وكيع وأبو نعيم عن سفيان بإسقاط مسروق منه»[(٣)].

أخرجه الترمذي من طريق أبي نعيم، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن أبي الضُّحى، عن عبدالله، عن النبي ﷺ مثله، ولم يقل فيه «عن مسروق»، وأخرجه من طريق وكيع، عن سفيان، عن أبيه، عن أبي الضُّحى، عن عبدالله، عن النبي ﷺ نحو حديث أبي نعيم، وليس فيه

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٩٢).
(٢) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة آل عمران»، رقم (٢٩٩٥).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٥٣٢).

عن مسروق[١]، وكذا أحمد في «المسند»[٢] من طريق وكيع وغيره به.

قال الترمذي: «هذا أصح من حديث أبي الضُّحى عن مسروق، وأبو الضُّحى اسمه مسلم بن صبيح»[٣].

وقال ابن أبي حاتم: «**سألت أبي وأبا زرعة** عن حديث رواه أبو أحمد الزبيري وروح بن عبادة، عن سفيان الثوري، عن أبيه، عن أبي الضُّحى، عن مسروق، عن عبد الله، عن النبي ﷺ «**لكل نبي وُلَاةً من النبيين، وإن ولي منهم وخليلي أبي إبراهيم**»، **ثم قرأ**: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨]» **فقالا جميعًا**: «هذا خطأ، رواه **المتقِنُون** من أصحاب الثوري، عن الثوري، عن أبيه، عن أبي الضُّحى، عن عبدالله، عن النبي ﷺ بلا مسروق»[٤].

وإسناده ضعيف؛ لانقطاعه، رواية أبي الضُّحى - وهو مسلم بن صبيح - عن عبدالله بن مسعود منقطعة[٥].

وفي هذا الحديث: دليل على حرص الرسول ﷺ على اتباع مِلَّةِ إبراهيم عليه السلام حيث أرشده الله إلى ذلك، ولهذا قال: «**إن لكل نبي وُلَاةً من النبيين، وإنَّ وَلِيِّي منهم أبي إبراهيم وخليل ربي**»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾».

* * *

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة آل عمران»، رقم (٢٩٩٥).
(٢) «مسند أحمد» (١/ ٤٠٠، ٤٢٩).
(٣) «سنن الترمذي» (٥/ ٢٢٣).
(٤) «علل الحديث» (٢/ ٦٣).
(٥) «فتح الباري» (٩/ ٩٩).

○ قوله: «**وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**» أخرجه مسلم في «**صحيحه**»[1] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**».

قال الإمام النووي ؒ في شرح حديث أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**التَّقْوَى هَهُنَا**» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»[2]: «**قوله ﷺ: «التقوى ههنا**» ويشير إلى صدره ثلاث مرار، وفي رواية: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»، معنى الرواية الأولى: أن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى، وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته.

ومقصود الحديث: أن الاعتبار في هذا كله بالقلب، وهو من نحو قوله ﷺ: «**ألَّا إن في الجسد مضغة**»[3] الحديث»[4].

وفيه من الفوائد: الحثُّ على إخلاص العمل لله وحسن القصد، فإن العبد يُعْطَى ويُثاب على حسب قصده وإخلاصه ولا يُعْطَى على غيره.

وفيه: أنه ينبغي للإنسان أن لا يتطلع إلى زينة الدنيا وزهرتها؛ لئلا يُفتن بها كما قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٥٦٤).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «فضل من استبرأ لدينه»، رقم (٥٢)، ومسلم، كتاب المساقاة، رقم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير ؓ.

(٤) شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٦/ ١٢١).

والشاهد من الحديث: قوله ﷺ «**ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» فالشاهد أن الله لا ينظر إلى الأجساد والأموال، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال، ففيه معنى إقامة الوجه لله والانقياد له سبحانه دون ما سواه، فمن أقام وجه لله وأخلص عمله لله وانقاد له سبحانه دون ما سواه فهذا الذي ينظر الله إليه، أما الأجساد والأموال وحدها فلا.

إن الروح هي التي تحمل الجسد وهي التي تُحرِّكُهُ، فإذا كانت الروح ذات همة عالية فلا يضر الجسد، فقد يكون **بعض الناس** جسمه ثقيل ولكن روحه عالية تجده يهتم بمعالي الأمور ولا يتخلَّف عن شيء من الخير، **وبعض الناس** جسمه خفيف لكن روحه ليس لها معنى، لا يقوم بشيء من الأعمال، فالجسم لا يقوم بل هو مَرْكَبٌ للروح.

وكذلك الأموال مكدسة، **بعض الناس** عنده ملايين فلا تنفع وحدها، لكن إذا كان في القلب مراقبة لله وتعظيم له أنفق هذه الأموال في الصدقات والمشاريع الخيرية، فالذي يدفعه ما في قلبه من إيمان بالله وتعظيم له وخوف منه ورجاء، وإذا انعدم ذلك في قلبه أنفق هذه الأموال فيما يضر الإسلام وفي سُبُل الفساد والرذيلة، فالأجسام والأموال ليستا محلًا لرضا الله، بل محل رضا الله القلوب، وهذا **هو الشاهد** من الحديث.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«ولهما عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن إليَّ رجال من أمتي حتى إذا أهويت لأناولهم احتجبوا دوني، فأقول: «أي رب أصحابي»، فيقال: «إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؟!»».

ولهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وددت أنا قد رأينا إخواننا»، قالوا: «أولسنا إخوانك يا رسول الله؟!»، قال: «أنتم أصحابي، وإخواني الذين لم يأتوا بعدُ»، قالوا: «فكيف تعرف من لم يأتِ بعدُ من أمتك؟»، قال: «أرأيتم لو أن رجلًا له خيل غرٌّ محجلة بين ظَهْراني خيل دهم بُهْم ألا يعرف خيله؟»، قالوا: «بلى»، قال: «فإنهم يأتون غرًّا محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، ألا لَيُذَادَنَّ رجال يوم القيامة عن حوضي كما يُذَادُ البعير الضال، أناديهم «ألا هلمَّ»، فيقال: «إنهم بدَّلوا بعدك»، فأقول: «سحقًا سحقًا»».

وللبخاري: «بينما أنا قائم إذا زُمْرَةٌ حتى إذا عرفتهم وعرفوني خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: «هَلُمَّ»، فقلت: «أين؟»، قال: «إلى النار والله»، قلت: «وما شأنهم؟»، قال: «إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم الْقَهْقَرَى»، ثم إذا زُمْرَةٌ - فذكر مثله - قال: «فلا أراه يَخْلُصُ منهم إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ.

ولهما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: فأقول كما قال العبد

الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧].

الشرح

ذكر **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ تحت هذا الباب، «**باب: قول الله تعالى**: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾» قول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠] ليبيِّن رَحِمَهُ اللَّهُ أن مما يشمله الدخول في الدين التمسك بالفطرة والاستقامة على الفطرة السليمة التي هي ملَّة إبراهيم، وإقامة الوجه للدين القويم، فذكر **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ أولًا آية الترجمة ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي: سدِّد وجهك وتجاهك للإخلاص واخلص عملك لله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ يعني: التمسك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين المستقيم.

وثنَّى رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢]، وهي وصية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالتمسك بالدين والاستقامة عليه وهو الدين القويم.

وثلَّث رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣] وهي دليل على كمال عظمة إبراهيم عليه الصلاة والسلام وصحة توحيده وطريقته.

وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن لكل نبي وُلَاةً من النبيين، وإنَّ وَلِيِّي منهم أبي إبراهيم وخليل ربي**»، ثم قرأ ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾ [آل عمران: ٦٨]»[١] **وفي هذا الحديث**: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم على التوحيد والدين القويم، وأن نبينا ﷺ هو أولى الناس بإبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وذكر رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[٢] إذ أن الأعمال الظاهرة لا يحصل بها التقوى، إنما تحصل بطاعة القلب من عظمة الله وخشيته ومراقبته، وأن الاعتبار بما في القلوب، وأن صلاح القلوب هو دليل على صلاح الأعمال، وأن الأعمال لا تصلح إلَّا بصلاح القلوب، ثم ذكر رحمه الله حديث ابن مسعود رضي الله عنه في الورود على الحوض.

○ قوله: «**ولهما**» يعني: الشيخان البخاري ومسلم «**عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض، وليرفعن إليَّ رجال من أمتي حتى إذا أهويت لأناولهم احتجبوا دوني، فأقول: «أي رب، أصحابي»، فيقال: «إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؟!»»**» الحديث أخرجه البخاري ومسلم في «**صحيحهما**»[٣].

○ قوله: «**أنا فرطكم على الحوض**» الفرَط ـ بفتح الراء ـ، ومعناه: السابق إليه والمنتظر لسقيكم منه، والفرط والفارط هو الذي يتقدَّم القوم إلى الماء ليهيئ لهم ما يحتاجون إليه[٤].

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب «في الحوض»، رقم (٦٥٧٦)، ومسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٢٩٧).

(٤) شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٢/ ٢٠٤).

○ قوله: «**وليرفعن إليَّ رجال من أمتي حتى إذا أهويت لأناولهم احتجبوا دوني**» لفظ البخاري: «**وَلَيُرْفَعَنَّ مَعِي رِجَالٌ مِنْكُمْ ثُمَّ لَيُخْتَلَجُنَّ دُونِي**» بفتح اللام وضم التحتانية وسكون الخاء المعجمة وفتح المثناة واللام وضم الجيم بعدها نون ثقيلة، أي: ينزعون أو يجذبون مني، يُقال: «**اختلجه منه**» إذا نزعه منه أو جذبه بغير إرادته[1].

والنبي ﷺ هو السابق، يسبق الأمة على الحوض، قال ﷺ: «**أنا فرطكم على الحوض**» أي: أسبقكم وأتقدَّم إليكم وأنتظركم وأهيأ لكم ما تحتاجون له، فهو عليه الصلاة والسلام هذا حوضه كمضيف للأمة.

وفي هذا الحديث: إثبات الحوض لنبينا ﷺ، والأحاديث في الحوض بلغت حدَّ التواتر، ولم يبلغ حدَّ التواتر إلَّا ما يُقارِب أربعة عشر حديثًا، والباقي أخبار آحاد.

وخبر الآحاد هو ما لم يبلغ حدَّ التواتر، ويدخل في ذلك: الغريب، والعزيز، والمشهور.

والحديث إذا اتصل سنده وعُدِّلت رواته ولم يكن فيه علة ولم يكن شاذًا فإنه صحيح يُفيد العلم، ويُعمل به في العقائد والأعمال، ومن قال «**إن خبر الآحاد لا يُعمل به في العقائد**» فهذا قول أهل البدع من **المعتزلة وغيرهم**، **والصواب**: أن خبر الآحاد ـ **على الصحيح** ـ يُفيد العلم، ويُعمل به في العقائد والأعمال، خلافًا **لبعض الفقهاء** الذين يقولون يُفيد الظنَّ ولا يُوجب العلم، وهذا ليس

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٤٦٩).

بصحيح، بل **الصحيح** أنه يُفيد العلم ويوجبه[١]، وقد تلقت **الأمة** أحاديث «**الصحيحين**» بالقبول، فحكمها حكم المتواتر.

ومن المتواتر: حديث الحوض.

ومنه: حديث الشفاعة[٢].

ومنه: حديث المسح على الخفين[٣].

ومنه: حديث «**من بنى لله بيتًا واحتسب**»[٤]، والباقي كله ثبت بخبر الآحاد، وعلى قول **أهل البدع** أنه لا يُعمل بخبر الآحاد فأضاعوا السنة، وهذا باطل.

وفي هذا الحديث: إثبات الحوض، وهو من الأحاديث المتواترة ومع ذلك أنكره **الخوارج والمعتزلة**[٥]، كما أنكروا

---

(١) قال أبو المظفر السمعاني: «وإنما هذا القول الذي يُذْكَر «أن خبر الواحد لا يُفيد العلم بحال، ولا بُدَّ من نقله بطريق التواتر لوقوع العلم به» شيء اخترعته **القدرية والمعتزلة**، وكان قصدهم منه ردَّ الأخبار، وتلقفه منهم **بعض الفقهاء** الذين لم يكن لهم في العلم قدم ثابت ولم يقفوا على مقصودهم من هذا القول». «الانتصار لأصحاب الحديث» (ص ٣٥).

(٢) وقد أخرج الإمام مسلم في «**صحيحه**» أحاديث كثيرة في ثبوت الشفاعة.
والإيمان بثبوت الشفاعة لرسول الله ﷺ - بناء على ما صح فيها من الأحاديث - هو **إجماع الأمة**، وهو **مذهب السلف الصالح** رضي الله عنهم جميعًا، يقول **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله **تعالى**: «أجمع المسلمون على أن النبي ﷺ يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأل الناس ذلك وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة». «مجموع الفتاوى» (١/ ٣١٣).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقد تواترت السنة عن النبي ﷺ بالمسح على الخفين وبغسل الرجلين، **والرافضة تخالف** هذه السنة المتواترة كما يخالف **الخوارج** نحو ذلك مما يتوهون أنه مخالف لظاهر القرآن، بل تواتر غسل الرجلين والمسح على الخفين عن النبي ﷺ أعظم من تواتر قطع اليد في ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو عشرة دراهم، أو نحو ذلك». «منهاج السنة النبوية» (٤/ ١٧٤).

(٤) انظر: «فتح الباري» (١/ ٢٠٣).

(٥) انظر: شرح «صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ٤٦٦).

الشفاعة[١]، وحرِيٌّ بهم أن يُطردوا من الحوض ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ـ كما **قال العلماء**: «أخلق بهم أن يُطردوا من الحوض؛ لإنكارهم الأحاديث في هذا».

وحوض نبينا ﷺ ثابت متواتر، وجاءت الأحاديث في وصفه، في «**الصحيحين**»[٢] عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا**»، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الواردين حوض النبي ﷺ.

وكذلك الميزان، **أجمع أهل السنة** على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد تُوزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان، وتمثل الأعمال بما يوزن، وخالف ذلك **المعتزلة** وأنكروا الميزان، **وقالوا**: «**الميزان عبارة عن العدل**»، وهو خلاف لنص كتاب الله وقول رسول الله ﷺ[٣].

وفيه: أن من بدَّل أو غَيَّرَ أو ابتدع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض، الْمُبْتَعِدِينَ منه، الْمُسَوَّدِي الوجوه.

قيل: الذين يطردون عن الحوض هم المرتدون.

وقيل: هم أهل الكبائر.

وقيل: هم المنافقون.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٤/ ٣٤١).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب «في الحوض»، رقم (٦٥٧٩)، ومسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٢٩٢).

(٣) شرح «صحيح البخاري» لابن بطال (١٠/ ٥٥٩).

وقيل: هم من جفاة الأعراب الذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ وانقلب القهقري[١] - نعوذ بالله - كما **قال السفاريني** في «**منظومته**»:

عَنهُ يذاد المفتري كَمَا ورد وَمن نحا سبل السَّلامَة لم يرد[٢]

وفيه: دليل على أن **أهل السنة** - وهم أهل الحقِّ الذين سَلِمُوا من البدع والتبديل - يَرِدُون الحوض، وهذا هو **الشاهد** من الحديث.

وفيه: دليل على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، والرد على من غلا في النبي ﷺ وقال: «إنه يعلم الغيب» وهذا اعتقاد كفري، فمن اعتقد أن النبي ﷺ يعلم الغيب فقد كفر؛ لأنه كَذَّبَ الله تعالى في قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل: ٦٥].

وفيه: دليل على أن النبي ﷺ لا يعلم أعمال أمته بعده؛ لأنه قال: «**إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك؟!**».

وفيه: دليل على تضعيف الحديث الوارد بأن أعمال أمته تعرض عليه ﷺ فيستبشر بحسنها ويستغفر لسيئها[٣]؛ إذ لو كانت تُعرض أعمال أمته عليه لكان يعلم بها، لكنه ﷺ أُخبِرَ أنه لا يدري ما

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١١/ ٣٨٥).

(٢) «العقيدة السفارينية» (ص ٧٧).

(٣) عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «**حياتي خير لكم تحدثون ونحدث لكم، ووفاتي خير لكم، تعرض علي أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم**». أخرجه البزار في «المسند» (١٩٢٥).

قال الحافظ العراقي ﷺ: «ورجاله رجال الصحيح، إلَّا أن **عبدالمجيد بن عبدالعزيز بن أبي رواد** وإن أخرج له مسلم ووثَّقَهُ **ابن معين والنسائي** فقد ضَعَّفَهُ **كثيرون**، ورواه الحارث بن أبي أسامة في «**مسنده**» من حديث أنس بنحوه بإسناد ضعيف». «**المغني عن حمل الأسفار**» (٢/ ١٠٥١).

أحدثوا بعده.

وفيه: دليل على أن أهل البدع قد يطردون من الحوض ـ وهذا **هو الشاهد** من الترجمة ـ، إذا كانت مُكفِّرة لا شكَّ أنهم يُطردون، أما إذا كانت غير مُكفِّرة فيُخشى عليهم ألَّا يَرِدون الحوض.

* * *

○ قوله: «ولهما» يعني: البخاري ومسلم «**عن أبي هريرة** ﷺ **أن رسول الله** ﷺ **قال: «وددت أنا قد رأينا إخواننا»، قالوا: «أولسنا إخوانك يا رسول الله؟!»، قال: «أنتم أصحابي، وإخواني الذين لم يأتوا بعدُ»، قالوا: «فكيف تعرف من لم يأتِ بعدُ من أمتك؟»، قال: «أرأيتم لو أن رجلًا له خيل غرٌّ محجلة بين ظَهْراني خيل دهم بُهْم ألا يعرف خيله؟»، قالوا: «بلى»، قال: «فإنهم يأتون غرًّا محجلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض، ألا لَيُذَادَنَّ رجال يوم القيامة عن حوضي كما يُذَادُ البعير الضال، أناديهم «ألا هلمَّ»، فيقال: «إنهم بدَّلوا بعدك»، فأقول: «سحقًا سحقًا»»** أخرجه البخاري مختصرًا واللفظ لمسلم[1].

○ قوله: «**أرأيتم لو أن رجلًا له خيل غرٌّ محجلة**» والغرة: بياض في وجه الفرس، والحجلة في قوائمه[2].

○ قوله: «**بين ظَهْراني**» فمعناه بينهما، وهو بفتح الظاء واسكان الهاء.

○ قوله: «**خيل دهم بُهْم ألا يعرف خيله؟**» وأما الدُّهْم فجمع

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المساقاة، باب «**من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه**»، رقم (٢٣٦٧)، ومسلم، كتاب الطهارة، رقم (٢٤٩).

(٢) «مشارق الأنوار» للقاضي عياض (٢/ ١٣١).

أَدْهَم وهو الأسود، وَالدُّهْمَة السَّواد، وأما الْبُهْم، **فقيل**: السُّود أيضًا، **وقيل** الْبُهْم: الذي لا يُخَالِط لونه لونًا سِوَاه سواء كان أسود أو أبيض أو أحمر، بل يكون لونه خالصًا، وهذا قول **ابن السِّكِّيت وأبي حاتم السختياني وغيرهما**[1].

○ قوله: «قال: «**فإنهم يأتون غرًّا محجلين من الوضوء**»» وهذا من خصائص هذه الأمة.

○ قوله: «**ألا لَيُذَادَنَّ رجال يوم القيامة عن حوضي**» قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: «**أي: لَيُطْرَدَنَّ، ويُروى «فَلَا تُذَادُنَّ**» أي: لا تفعلوا فعلًا يُوجِب طردكم عنه، والأول أشبه»[2].

○ قوله: «**ألا لَيُذَادَنَّ رجال يوم القيامة عن حوضي**» أي: تطردهم الملائكة وتكفهم.

وفيه: دليل على أنهم يُردُّون على الحوض عطشى كما يرد البعير الضال فيُطردُون ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ.

○ قوله: «**أناديهم «ألا هلمَّ**»» معناه: تعالوا.

○ قوله: «**فيقال: «إنهم بدَّلوا بعدك**»، فأقول: «**سحقًا سحقًا**»» ومعناه: بُعْدًا بُعْدًا، والمكان السحيق: البعيد، دعا عليهم النبي ﷺ بالبعد، «**فأقول: «سحقًا سحقًا**»»، اللهم أبعد المُغيِّرين والمُبَدِّلين.

وفيه: أن النبي ﷺ يعرف أمته بالعلامة التي خُصُّوا بها وهي الغرة والتحجيل، وهذا من خصائص هذه الأمة.

* * *

(١) شرح النووي على «صحيح مسلم» (٣/ ١٣٩).

(٢) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ١٧٢).

○ قوله: «وللبخاري: «بينما أنا قائم إذا زُمْرَةٌ حتى إذا عرفتهم وعرفوني خرج رجل من بيني وبينهم، فقال: «هَلُمَّ»، فقلت: «أين؟»، قال: «إلى النار والله»، قلت: «وما شأنهم؟»، قال: «إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم الْقَهْقَرَى»، ثم إذا زُمْرَةٌ ـ فذكر مثله ـ قال: «فلا أراه يَخْلُصُ منهم إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ»، أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه[١].

○ قوله: «بينما أنا قائم إذا زُمْرَةٌ» كلمة «إذا» للمفاجأة، والزمرة الجماعة[٢].

○ قوله: «حتى إذا عرفتهم وعرفوني خرج رجل من بيني وبينهم» المراد بالرجل: الملك الموكَّل بذلك[٣].

○ قوله: «ثم إذا زُمْرَةٌ ـ فذكر مثله ـ قال: «فلا أراه يَخْلُصُ منهم إِلَّا مِثْلُ هَمَلِ النَّعَمِ»» يعني: من هؤلاء الذين دنوا من الحوض وكادوا يَرِدُونه فَصُدُّوا عنه، وَالْهَمَل ـ بفتحتين ـ: الإبل بلا راع، وقال الخطابي: الْهَمَل ما لا يرعى ولا يستعمل، ويطلق على الضوال، والمعنى: أنه لا يَرِدهُ منهم إِلَّا القليل؛ لأن الْهَمَل في الإبل قليل بالنسبة لغيره[٤].

وفي هذا الحديث: الوعيد الشديد لأهل البدع؛ لأنهم غَيَّرُوا وبَدَّلُوا، والتغيير يشمل أهل البدع والمرتدين والمنافقين، فالمنافق والمرتد هؤلاء في النار يخلدون، والمبتدع إن كانت بدعته مُكفِّرة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب «في الحوض»، رقم (٦٥٨٧).
(٢) «عمدة القاري» للعيني (٢٣/ ١٤٢).
(٣) «فتح الباري» (١١/ ٤٧٤).
(٤) «فتح الباري» (١١/ ٤٧٤، ٤٧٥).

فهو معهم، وإن كانت غير مُكفِّرة فهو على خطر من دخول النار.

* * *

○ قوله: «ولهما» يعني: البخاري ومسلم «في حديث ابن عباس رضي الله عنهما: **فأقول كما قال العبد الصالح**: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧]»، هو في «**الصحيحين**»[1] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**، ثُمَّ قَرَأَ ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ، وَإِنَّ أُنَاسًا مِنْ أَصْحَابِي يُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: «**أَصْحَابِي أَصْحَابِي**»، فَيَقُولُ: «**إِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّينَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ، فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ**: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﷺ: ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾ [المائدة: ١١٧- ١١٨]».

وفيه: أن النبي عليه الصلاة والسلام بَيَّنَ أنه لا يدري ما أحدثوا بعده، وأنه شَهِدَ عليهم ما دام فيهم، ولَمَّا توفي كان الله تعالى الرقيب عليهم.

○ قوله: «**فأقول كما قال العبد الصالح**» وهو عيسى عليه السلام، والعبد الصالح يشمل الأنبياء وغيرهم فكلهم عباد الله، وفي التشهد نقول: «**السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين**»[2]، فيشمل الأنبياء

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب «قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤]»، رقم (٣٣٤٩)، ومسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم (٢٨٦٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الآذان، باب «التشهد في الآخرة»، رقم (٨٣١)، ومسلم، كتاب الصلاة، رقم (٤٠٢) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

وغيرهم، لكن الأنبياء أكمل عبودية من غيرهم: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة: ١١٧]»

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وقال ابن التين: يحتمل**: أن يكونوا منافقين، أو من مرتكبي الكبائر، **وقيل**: هم قوم من جفاة الأعراب دخلوا في الإسلام رغبة ورهبة، **وقال الداودي**: لا يمتنع دخول أصحاب الكبائر والبدع في ذلك، **وقال النووي**: **قيل**: هم المنافقون والمرتدون فيجوز أن يحشروا بالغرة والتحجيل لكونهم من جملة الأمة فيناديهم من أجل السِّيما التي عليهم فيُقال: «**إنهم بدَّلوا بعدك**» أي: لم يموتوا على ظاهر ما فارقتهم عليه»[١].

فلا يمتنع دخولهم؛ لأن المنافقين شاركوا المؤمنين في الدنيا فهم يشاركوهم في الآخرة، فيناديهم بالعلامة ثم يُطردُون، وكذلك أيضًا في موقف القيامة تبقى هذه الأمة فيها منافقوها حينما ينادي منادٍ «**من كان يعبد شيئًا فليتبعه**»، في «**الصحيحين**» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ**: «**تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ**»[٢]، فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ»، فتبقى هذه الأمة وفيها منافقوها فيتجلَّى لهم الرَّبُّ أولًا، ثم يتجلَّى في صورة غير الصورة التي رأوه فيها أول مرة فينكروا، ثم يتجلَّى لهم في الصورة التي رأوه فيها أول مرة للمرة الثالثة فيسجد المؤمنون، ويريد المنافقون أن يسجدوا معهم فيجعل الله ظهر كل واحد طبقًا واحدة ولا يستطيعون

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب «قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍۖ﴾ [النساء: ٤٠]يعني : زنة ذرة، رقم (٤٥٨١)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٨٣).

السجود، في «**الصحيحين**» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ، فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا**»[1].

ويرى المؤمنون ربَّهم في موقف يوم القيامة أربع مرات، **ولشيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله كتابًا بعنوان «بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية» وهو كتاب عظيم، وهو من عيون كُتُب **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله، وفيه مباحث لا توجد في غيره، وفيها العجب العُجاب، وساق رحمه الله الأحاديث التي دلت على أن المؤمنين يرون ربهم في موقف القيامة أربع مرات: يرونه في المرة الأولى، ثم المرة الثانية يتجلى لهم في غير الصورة التي يعرفونه فينكرونه، ثم يتجلى لهم في الصفة التي يعرفون فيسجدون وهي المرة الثالثة، فإذا رفعوا رؤوسهم تجلى لهم في الصورة التي رأوها أول مرة، أربع مرات، وقد أطال **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله في بيان هذا في كتابه العظيم «بيان تلبيس الجهمية».

والشاهد من الحديث: أن المنافقين بقوا مع المؤمنين ثم ساروا معهم، ولا يزالون منخدعين يظنون أنهم سيسلمون، فإذا مشوا مع المؤمنين وكل واحد معه نور فإذا بنور المنافقين انطفأ فبقوا في الظلمة، فيقولون للمؤمنين: «**انظرونا نقتبس من نوركم**»، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾ [الحديد: ١٣]، نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب «﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القَلَم: ٤٢]»، رقم (٤٩١٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٨٣).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«ولـهما مرفوعًا: «**ما من مولود يُولَدُ إلَّا على الفطرة فأبواه يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أو يُمَجِّسَانِهِ كما تُنتَج البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعَاءَ حتى تكونوا أنتم تجدعونها**»، ثم قرأ أبو هريرة رضي الله عنه ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] متفق عليه».

الشَّرْحُ

هذا الحديث متفق عليه، رواه الشيخان البخاري ومسلم[١].

○ قوله: «**ما من مولود يُولَدُ إلَّا على الفطرة فأبواه يُهَوِّدَانِهِ**» يعني: ينقلانه إلى اليهودية «**أو يُنَصِّرَانِهِ**» ينقلانه إلى النصرانية «**أو يُمَجِّسَانِهِ**» ينقلانه للمجوسية.

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنى الحديث: إن الله تعالى خلق قلوب بني آدم مؤهَّلة لقبول الحقِّ كما خلق أعينهم وأسماعهم قابلةً للمرئيات والمسموعات، فما دامت باقيةً على ذلك القبول وعلى تلك الأهلية أدركت الحقَّ، ودين الإسلام هو الدين الحقُّ، وقد جاء ذلك صريحًا في «الصحيح»[٢]: «**جبل الله الخلق على معرفته فاجتالتهم الشياطين**»، وقد تقدَّم هذا المعنى، وقد دلَّ على صحة هذا المعنى بقية الخبر حيث قال: «كما تنتج البهيمة بهيمة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب «إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟، وهل يعرض على الصبي الإسلام؟»، رقم (١٣٥٨)، ومسلم، كتاب القدر، رقم (٢٦٥٨).

(٢) تقدَّم تخريجه.

جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟» يعني: أن البهيمة تلد ولدها كامل الخَلْق، سليمًا من الآفات، فلو نزل على أصل تلك الخلقة لبقي كاملًا بريئًا من العيوب، لكن يُتصرَّف فيه فتجدع أذنه ويُوسم وجهه فتطرأ عليه الآفات والنقائص فيخرج عن الأصل، وكذلك الإنسان، وهو تشبيه واقع، ووجهه واضح»[(١)].

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله: «ومما ينبغي أن يُعْلَم: أنه إذا قيل أنه وُلِدَ على الفطرة أو على الإسلام أو على هذه المِلَّةِ أو خُلِقَ حنيفًا فليس المراد به أنه حين خرج من بطن أمه يعلم هذا الدين ويريده؛ فإنه الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]، ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين الإسلام لقروبه ومحبته، فنفس الفطرة تستلزم الإقرار بخالقه ومحبته وإخلاص الدين له، وموجبات الفطرة ومقتضياتها تحصل شيئًا بعد شيء بحسب كمال الفطرة إذا سلمت من المعارض، وليس المراد أيضًا مجرد قبول الفطرة لذلك؛ فإن هذا القبول تغيَّر بتهويد الأبوين وتنصيرهما بحيث يخرجان الفطرة عن قبولها، وإن سعيا بين بنيهما ودعائهما في امتناع حصول المقبول، وأيضًا فإن القبول ليس هو الإسلام، وليس هو هذه المِلَّةِ وليس هو الحنيفية، وأيضًا فإنه شَبَّه تغيير الفطرة بجدع البهيمة الجمعاء، ومعلوم أنهم لم يغيروا قبوله، ولو تغيَّر القبول وزال لم تقم عليه الحجة بإرسال الرُّسل وإنزال الكُتُب، بل المراد أن كل مولود فإنه يُولد على محبته لفاطره، وإقراره له بربوبيته، وادعائه له بالعبودية، فلو خُلِّيَ وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك إلى غيره كما أنه يُولد على محبة ما يلائم بدنه من الأغذية والأشربة فيشتهي اللبن

(١) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٦/ ٦٧٦).

الذي يُناسبه ويغذيه، وهذا من قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠]، وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ [الأعلى: ٢-٣] فهو سبحانه خلق الحيوان مهتديًا إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ثم هذا الحب والبغض يحصل فيه شيئًا فشيئًا بحسب حاجته، ثم قد يعرض لكثير من الأبدان ما يفسد ما وُلِدَ عليه من الطبيعة السليمة والعادة الصحيحة، فهكذا ما وُلِدَ عليه من الفطرة»[١].

وفي هذا الحديث: دليل على أن الأصل في المولود أنه يُولد على الفطرة، والمراد بالفطرة: الإسلام، وهو الإقرار بالربوبية، لكن معرفة تفاصيل العبادة إنما جاءت به الرُّسُل.

ويدل على ذلك: «ثم قرأ أبو هريرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الرُّوم: ٣٠]»، ويدل عليه أيضًا الحديث القدسي: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ**»[٢].

○ قوله: «**كما تُنتَج البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعَاءَ حتى تكونوا أنتم تجدعونها**»».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأما قوله «كما تُنتَج البهيمةُ بهيمةَ جمعاء»** فهو بضم التاء الأولى وفتح الثانية ورفع «**البهيمة**» ونصب «**بهيمة**»، ومعناه: كما تلد البهيمة بهيمة، «**جمعاء**» بالمد أي: مجتمعة الأعضاء، سليمة من نقص، لا توجد فيها «**جدعاء**» بالمد، وهي مقطوعة الأذن أو غيرها من الأعضاء»[٣].

---

(١) «شفاء العليل» (ص ٢٨٨، ٢٨٩).

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٦/ ٢٠٩).

يُرِيد ﷺ أنها تُولد لا جدع فيها وإنما يجدعها أهلها بعد ذلك، فكذلك المولود يُولد على الفطرة ثم يأتيه التغيير بعد ذلك.

وفي هذا : دليل على أن البيئة تُؤثِّر على الإنسان.

ومناسبة الحديث للترجمة ظاهرة؛ لأنه قال في الترجمة: «**باب: قول الله تعالى**: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠]»، والفطرة هي الدين.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وأنا أسأله عن الشَّرِّ مخافة أن يُدْرِكَنِي»، فقلت: «يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشرٍّ فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرٍّ؟»، قال: «نعم»، فقلت: «وهل بعد هذا الشرِّ من خير؟»، قال: «نعم، وفيه دَخَنٌ[1]»، قلت: «وما دَخَنُهُ؟»، قال: «قوم يستنون بغير سنتي ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وَتُنْكِرُ»، قلت: «فهل بعد هذا الخير من شرٍّ؟»، قال: «نعم، فتنة عمياء، ودعاة على أبواب جهنم، مَنْ أجابَهم إليها قذفوه فيها»، قلت: «يا رسول الله، صِفْهُمْ لنا»، قال: «قوم من جِلْدَتِنَا ويتكلمون بألسنتنا»، قلت: «يا رسول الله، ما تأمرني إن أدركت ذلك؟»، قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»، قلت: «فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟»، قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تَعَضَّ على أصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك» أخرجاه.

وزاد مسلم: «ثم ماذا؟»، قال: «ثم يخرج الدجال معه نهر ونار، فمن وقع في ناره وجب أجره وحُطَّ وزره، ومن وقع في نهره

---

(١) قال النووي: «قال أبو عبيد وغيره: الدخن ـ بفتح الدال المهملة والخاء المعجمة ـ أصله أن تكون في لون الدابة كدورة إلى سواد، قالوا: والمراد هنا أن لا تصفو القلوب بعضها لبعض، ولا يزول خبثها، ولا ترجع إلى ما كانت عليه من الصفا.

قال القاضي: قيل: المراد بالخير بعد الشر أيام عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه». شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٢/ ٢٣٦، ٢٣٧).

وجب وزره وحُطَّ أجره»، قلت: «ثم ماذا؟» قال: «هي قيام الساعة»».

الشَّرْحُ

هذا حديث حذيفة رضي الله عنه، وهو حديث عظيم، وهو في «**الصحيحين**»[١].

○ قوله: «**نعم، فتنة عمياء**» ليست في «**الصحيحين**»، بل الزيادة عند أبي داود وأحمد[٢].

○ قوله: «**وعن حذيفة رضي الله عنه قال: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وأنا أسأله عن الشَّرِّ مخافة أن يُدْرِكَنِي»**» فيه: حرصه رضي الله عنه، فكما أنه كان يسأل عن الخير يُسأل عن الشرِّ حتى لا يقع فيه.

○ قوله: «**في جاهلية وشرٍّ**» يُشير إلى ما كان قبل الإسلام من الكفر، وقتل بعضهم بعضًا، ونهب بعضهم بعضًا، وإتيان الفواحش.

○ قوله: «**فجاءنا الله بهذا الخير**» يعني الإيمان، والأمن، وصلاح الحال، واجتناب الفواحش[٣].

○ قوله: «**فهل بعد هذا الخير من شرٍّ؟**»، **قال**: «**نعم**»، **فقلت**: «**وهل بعد هذا الشرِّ من خير؟**»، **قال**: «**نعم، وفيه دَخَنٌ**» أي: ليس خالصًا.

○ قوله: «**قلت**: «**وما دَخَنُهُ؟**»، **قال**: «**قوم يستنون بغير سنتي**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب «علامات النبوة في الإسلام»، رقم (٣٦٠٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٤٧).

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب «ذكر الفتن ودلائلها»، رقم (٤٢٤٤)، وأحمد(٥/٤٠٦).

(٣) «فتح الباري» (١٣/ ٣٥).

ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وَتُنْكِرُ»، قلت: «فهل بعد هذا الخير من شرٍّ؟»، قال: «نعم، فتنة عمياء، ودعاة على أبواب جهنم، مَنْ أجابَهم إليها قذفوه فيها»، قلت: «يا رسول الله، صِفْهُمْ لنا»، قال: «قوم من جِلْدَتِنَا ويتكلمون بألسنتنا»» فهم من العرب ليسوا من الأعاجم، ويدعون إلى النار، فيدعون إلى قوميات تُخالف الإسلام.

وهذه الأمور التي سأل عنها حذيفة رضي الله عنه وقع بعضها، فوُجِدَ أناس يستنون بغير سنة النبي ﷺ، ووُجِدَ الدعاة على أبواب جهنم يدعون إلى النار.

○ قوله: «قلت: «يا رسول الله، ما تأمرني إن أدركت ذلك؟»، قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»» وهذا هو الشاهد.

○ قوله: «قلت: «فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟»» سأل حذيفة رضي الله عنه أسئلة استفادت الأمة منها الآن.

○ قوله: «قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها» فقال النبي ﷺ اعتزل تلك الفرق كلها، طالما ليس لهم جماعة ولا إمام فاتركهم كلهم.

○ قوله: «ولو أن تَعَضَّ على أصل شجرة حتى يأتيك الموت وأنت على ذلك، أخرجاه» فهو في «الصحيحين»، وتقدَّم.

إذا كان لهم جماعة وإمام يحكم فيهم بشرع الله، وهناك أمر بالمعروف ونهي عن المنكر وصلاة، وخير، فالزمهم، أما إذا نُزِعَ الخير ولم يكن لهم جماعة ولا إمام، وصاروا جماعات، كل جماعة حزب فاتركهم، وانُج بنفسك، واعبد ربك حتى يأتيك الموت بعد ذلك، مثل: ما رواه البخاري في «صحيحه»[1] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «من الدين الفرار من الفتن»، رقم (١٩).

الْخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ»** **قال العلماء**: هذه الحديث يُعمل به إذا فسد الزمان ولم يكن هناك جماعة ولا جمعة تُقام، ولا تعلم علم ولا تعليم، ولا أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر، وفسد الزمان وخشي الإنسان على نفسه من الفتن فيفِرُّ ويخرج إلى البادية ويتخذ غنمًا ويعبد ربَّهُ حتى يأتيه الموت، ويأتي العمل بقول الشاعر:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوَّت إنسان فكدت أطير[1]

أما إذا كانت المدن فيها جمعة وجماعة وأذان وصلاة وتعلم وتعليم، وفيها أهل الخير ومَنْ يقبله فلا ينبغي للإنسان أن يذهب إلى البرِّية، فالتعرُّب في البادية من كبائر الذنوب[2]؛ لأنه حينئذ يبتعد عن سماع الذكر وصلاة الجمعة والجماعة ويكون عنده جفاء.

والشاهد فيه: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم».

○ قوله: **«وزاد مسلم: «ثم ماذا؟»**، قال: **«ثم يخرج الدجال معه نهر ونار، فمن وقع في ناره وجب أجره وحُطَّ وزره، ومن وقع في نهره وجب وزره وحُطَّ أجره»**، قلت: **«ثم ماذا؟»** قال: **«هي قيام الساعة»»**.

○ قوله: **«وزاد مسلم»** الصواب: **«وزاد أبو داود»**، فهذه الزيادة

---

(١) «غريب الحديث» للحربي (٣/ ٩٤٩).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ١٠٣) رقم (٥٦٣٦) من حديث سهل بن أبي حثمة ﷺ.
قال ابن كثير: «وفي إسناده نظر، ورفعه غلط فاحش». «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٨٥).
وقال الهيثمي: «رواه الطبراني في «الكبير»، وفيه ابن لهيعة». «مجمع الزوائد» (١/ ١٠٣).

أخرجها أبو داود في «**سننه**»[١]، وفي «**صحيح مسلم**»[٢] عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه في ذكر الدجال وصفته قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، جُفَالُ الشَّعَرِ، مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ، فَنَارُهُ جَنَّةٌ، وَجَنَّتُهُ نَارٌ**».

وفي هذا الحديث من الفوائد: وجوب لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، ولو كان إمام المسلمين عنده بعض المعاصي أو الجور، كما تقدَّم.

وفيه: وجوب اعتزال الفرق كلها إذا لم يكن للمسلمين إمام ولا جماعة.

وفيه: أن الإسلام خير كله فيما يتعلق بالعبادات والأخلاق والمعاملات.

والشاهد من هذا الحديث: لزوم الاستقامة على الحقِّ، والدينِ القيم، وجماعة المسلمين، وهو الذي فطر الله الناس عليها.



---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب «**ذكر الفتن ودلائلها**»، رقم (٤٢٤٤). **قال الحاكم**: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٤٧٩)

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، رقم (٢٩٣٤).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وقال أبو العالية: «تعلموا الإسلام، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وعليكم بالصراط المستقيم؛ فإنه الإسلام، ولا تنحرفوا عن الصراط يمينًا ولا شمالًا، وعليكم بسنة نبيكم، وإياكم وهذه الأهواء». انتهى.

تأمل كلام أبي العالية هذا، ما أجلَّهُ، واعرف زمانه الذي يُحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام، وتفسير الإسلام بالسنة، وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب يتبيَّن لك معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣١]، **وقوله:** ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢]، **وقوله تعالى:** ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]، **وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول، والناس عنها في غفلة، وبمعرفته يتبيَّن معنى الأحاديث في هذا الباب وأمثالها.**

وأما الإنسان الذي يقرؤها وأشباهها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله، ويظنها في قوم كانوا فبادوا ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]».

الشَّرْحُ

○ قوله: **«وقال أبو العالية»** وهو **رفيع بن مهران**، أبو العالية الرياحي البَصْرِيُّ، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد موت النبي ﷺ

بسنتين، ودخل على أبي بكر الصديق، وصلى خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما[١].

وهذا الأثر أخرجه عبد الرزاق في «**مصنفه**»[٢] بإسناد صحيح.

○ قوله: «**تعلموا الإسلام**» والإسلام هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشِّرك وأهله، يعني: تعلَّموا التوحيد والعقيدة، والانقياد لشرع الله ودينه، وابتعدوا عن الشِّرك والبدع.

○ قوله: «**فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه**» بل استمسكوا بالإسلام، واثبتوا عليه، ولا تموتن إلَّا وأنتم مسلمون.

○ قوله: «**وعليكم بالصراط المستقيم؛ فإنه الإسلام**» فالإسلام هو الصراط المستقيم، وهو دين الله، وهو الحقُّ، وهو ما أمر الله ورسوله ﷺ به.

○ قوله: «**ولا تنحرفوا عن الصراط يمينًا ولا شمالًا، وعليكم بسنة نبيكم**» أي: الزموا سنته ﷺ.

○ قوله: «**وإياكم وهذه الأهواء**». **انتهى**» الأهواء هي البدع والتحريف التي تُخالِف السنة.

يحثُّ **أبو العالية** رحمه الله على تعلُّم الإسلام، ويُحذِّر عن الرغبة عنه، ويقول الزموا الصراط المستقيم؛ لأنه الإسلام، ولا تنحرفوا عنه يمينًا ولا شمالًا، والزموا سنة النبي ﷺ، والبدع تُنافي الإسلام أو كمالَهُ.

---

(١) ترجمته في: «تهذيب الكمال» (٩/ ٢١٤، ٢١٥).

(٢) «مصنف عبدالرزاق» (١١/ ٣٦٧).

○ قوله: «**تأمل كلام أبي العالية هذا، ما أجلَّهُ، واعرف زمانه الذي يُحذِّر فيه من الأهواء التي من اتبعها فقد رغب عن الإسلام، وتفسير الإسلام بالسنة، وخوفه على أعلام التابعين وعلمائهم من الخروج عن السنة والكتاب**» وهذا من نصحه رحمه الله وعلمه الجليل.

○ قوله: «**يتبيَّن لك معنى قوله تعالى**: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣١]»، ﴿أَسْلِمْ﴾ أي: ادخل في الإسلام، في الأصول والفروع.

○ قوله: «وقوله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢]» هذه وصية إبراهيم ويعقوب عليهما السلام لبنيهما بلزوم الدين والاستقامة عليه، وجهاد النفس على لزوم الصراط المستقيم حتى يأتيهم الموت وهم على ذلك.

○ قوله: «**وقوله تعالى**: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٣٠]» دلت الآية الكريمة على أن من ترك ملة إبراهيم - الإسلام - فهو سفيه، ولا شك أنه من أسفه السفهاء؛ لأنه أبعد نفسه عن الخير، وحملها ما لا تطيق من العذاب، لأنه ما ثم إلا الحق أو الباطل، فمن اتبع ملة إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام فهو المسلم الرشيد، ومن رغب عنها فهو السفيه، والعاقل هو الذي يختار الحق ويرضى به ويؤثره، وقد اعترف أهل النار في النار أن عقولهم وأسماعهم لم تنفعهم حين أبصروا، فقال عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ١٠]: قال الله: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١١] وقال الله في الآية الآخرى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ

أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السَّجدَة: ١٢].

○ قوله: «**وأشباه هذه الأصول الكبار التي هي أصل الأصول**» فلزوم الإسلام والبُعْدُ عن البِّدع هذا أصل الأصول «**والناس عنها في غفلة**».

○ قوله: «**وبمعرفته**» أي: بمعرفة هذا الأمر «**يتبيَّن معنى الأحاديث في هذا الباب وأمثالها**» هذا للذي يتأمل وعنده همة عالية ورغبة في فهم الإسلام ولزومه.

○ قوله: «**وأما الإنسان الذي يقرؤها وأشباهها وهو آمن مطمئن أنها لا تناله، ويظنها في قوم كانوا فبادوا** ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]» فالشخص الذي يقرأ هذه الآيات وأمثالها وهو آمن ولا يخاف أن لا تناله ويظنها في قوم كانوا فبادوا وفي قوم مضوا فهذا يُخشى عليه من أن يُمكر به، ولهذا استدل رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا، ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سُبُل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، وقرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، رواه أحمد والنسائي».

الشَّرْح

حديث ابن مسعود رضي الله عنه كما قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ «رواه أحمد والنسائي» رواه أحمد في «المسند» والنسائي في «السنن الكبرى» من طريق عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه به[1].

وفيه من الفوائد: أن طريق الحقِّ واحد لا يتعدد، وأن طُرُق الباطل والشيطان كثيرة ومتفرِّقة.

وفيه: حرص الشياطين على إغواء بني آدم حيث أن على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه.

---

(١) «مسند أحمد» (١/ ٤٣٥)، و«السنن الكبرى» (٦/ ٣٤٣).
قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وشاهده لفظًا واحدًا حديث الشعبي عن جابر من وجه غير معتمد». «المستدرك» (٢/ ٣٤٨)
وقال الهيثمي: «رواه أحمد والبزار، وفيه عاصم بن بهدلة وهو ثقة، وفيه ضعف». «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٢).

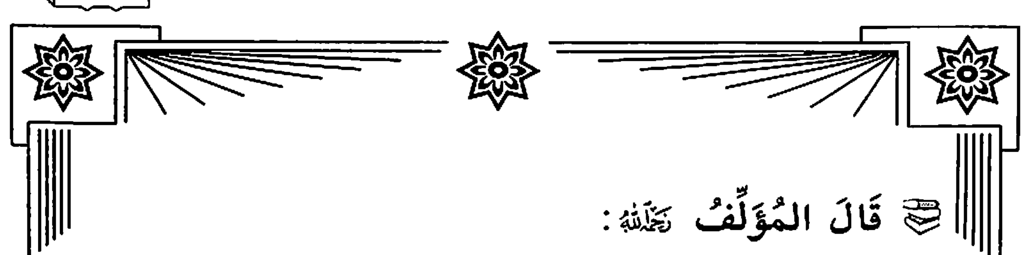
وفيه: أن الاعتصام بحبل الله ولزوم جماعة المسلمين والحذر من الزيغ والضلالة والبدع هذا هو الدين القيم، وهذا هو الدخول في الدين، والتمسك بالفطرة، وإقامة الوجه للدين القيم، وهذا هو **الشاهد** من الحديث في الترجمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا أصل جامع، يجب على كل من آمن بالله ورسوله أن يتبعه، ولا يخالف السنة المعلومة وسبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان باتباع من خالف السنة والإجماع القديم، لا سيما وليس معه في بدعته إمام من أئمة المسلمين ولا مجتهد يعتمد على قوله في الدين، ولا من يعتبر قوله في مسائل الإجماع والنزاع، فلا ينخرم الإجماع بمخالفته، ولا يتوقف الإجماع على موافقته»(١).

والمعنى: أنه يجب على المؤمن أن يتبع الكتاب والسنة، ويعمل بهما، ولا يجيز له مخالفة سبيل المؤمنين السابقين الأولين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].



(١) «مجموع الفتاوى» (١/ ١٦٢، ١٦٣).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«باب: ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء

وقول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبي للغرباء» رواه مسلم، ورواه أحمد من حديث ابن مسعود، وفيه: «ومن الغرباء؟»، قال: «النُّزَّاعُ من القبائل»، وفي رواية: «الغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس»، وللترمذي من حديث كثير بن عبدالله، عن أبيه، عن جده «طوبى للغرباء، الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي»».

الشَّرْح

هذا الباب الثاني عشر من أبواب هذه الرسالة.

○ قوله: «**باب «ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء**» غربة الإسلام: هو أن يكون الإسلام غريبًا بين أهله.

والمراد بغربة الإسلام: استغراب من تمسَّك بالإسلام بحيث يجد المؤمن نفسه كالغريب بين أناس عاش معهم؛ لأنه يعبد الله ويستقيم على شرع الله ودينه وهو عابد لله قائم بأوامره ومن حوله على خلاف ذلك.

وقد كثرت المؤلَّفات في «غربة الإسلام»، **منها**: كتاب «**الغرباء**» للآجري، **ومنها**: «كشف الكربة في وصف حال الغربة»

لابن رجب الحنبلي، وغيرهما.

صَدَّرَ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الباب بقوله تعالى «﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هُود: ١١٦]».

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالى فهلَّا وُجِدَ من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض، وقوله ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: قد وُجِدَ منهم من هذا الضرب قليل لم يكونوا كثيرًا، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه وفجأة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٠٤]»[(١)].

يُبيِّن **الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذه الآية فيها حضٌّ على أن يكون في الأمة مَنْ ينهى عن الفساد في الأرض، وبيان أنهم قليلون، وهذا يدل على غربة الإسلام؛ فكون الذين ينهون عن الفساد في الأرض قليلين يدل على غربة الإسلام، يعني: هؤلاء القِلَّة بين أناس كثيرين، وهذا **هو الشاهد** من الترجمة.

○ قوله: **«وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء» رواه مسلم»** في «صحيحه»[(٢)].

○ قوله: **«فطوبى للغرباء»** يعني: الجنة للغرباء.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٦٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٤٥).

وفي هذا الحديث: علم من أعلام النبوة، وأنه سيقع هذا الأمر، «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**».

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما معنى الحديث: **فقال القاضي عياض** رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله «**غريبًا**»: روى ابن أبى أويس عن مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: «أن معناه في المدينة، وأن الاسلام بدأ بها غريبًا وسيعود إليها»، **قال القاضي**: وظاهر الحديث العموم، وأن الاسلام بدأ في آحاد من الناس وقِلَّة ثم انتشر وظهر، ثم سيلحقه النقص والاخلال حتى لا يبقى إلَّا في آحاد وقِلَّةٍ أيضًا «**كما بدأ**»»[1].

وفيه: دليل لِمَا ترجم له المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ «**باب «ما جاء في غربة الإسلام وفضل الغرباء»**».

○ قوله: «**ورواه أحمد**» في «**المسند**»[2] «**من حديث ابن** مسعود، وفيه: «**ومن الغرباء؟**»، **قال**: «**النُّزَّاعُ من القبائل**»، وكذا أخرجه ابن ماجه[3].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وجاء في الحديث تفسير الغرباء، وهم «**النُّزَّاعُ من القبائل**»، **قال الهروي**: «أراد بذلك المهاجرين الذين هجروا أوطانهم إلى الله تعالى»»[4].

وفيه: دليل على فضل الغرباء وعلو منزلتهم وأنهم قلَّة.

وفيه: حثٌّ للمسلم أن يكون من الغرباء، فإذا كَثُرَ المنحرفون فعلى المسلم أن يلزم الحقَّ حتى يكون من الغرباء.

---

(١) شرح النووي على «صحيح مسلم» (٢/ ١٧٧).
(٢) «مسند أحمد» (١/ ٣٩٨).
(٣) أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب «بدأ الإسلام غريبًا»، رقم (٣٩٨٨).
(٤) شرح النووي على «صحيح مسلم» (٢/ ١٧٧).

○ قوله: «وفي رواية» عند أحمد في «المسند»[(١)] عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ سَنَّةَ رضي الله عنه «الغرباء الذين يُصْلِحُونَ إذا فسد الناس»، **قال الهيثمي**: «وفيه: **إسحاق بن عبدالله بن أبي فروة وهو متروك**»[(٢)].

○ قوله: «وللترمذي من حديث كثير بن عبد الله، عن أبيه، عن جده «طوبى للغرباء، الذين يصلحون ما أفسد الناس من سنتي»»، أخرجه الترمذي، ولفظه: «**إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ، الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي**»[(٣)] وقال: «**هذا حديث حسن صحيح**»، ولكن كثير ضعيف جدًّا، **قال أحمد بن حنبل**: «منكر الحديث، ليس بشيء»، **وقال أبو زرعة**: «واهي الحديث، ليس بقوي»، وقال النسائي والدارقطني: «متروك الحديث»[(٤)].



---

(١) «مسند أحمد» (٤/ ٧٣).

(٢) «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٧٨).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب «ما جاء أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا»، رقم (٢٦٣٠).

قال ابن طاهر المقدسي: «رواه كثير بن عبدالله بن عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جده، **وكثير ضعيف الحديث**». «ذخيرة الحفاظ» (١/ ٥٥٢).

(٤) انظر: «تهذيب الكمال» (٢٤/ ١٣٦- ١٤٠).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وعن أبي أُمَيَّةَ قال: «سألت أبا ثَعْلَبَةَ رضي الله عنه فقلت: «يا أبا ثَعْلَبَةَ، كيف تقول في هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾ [المَائدة: ١٠٥]؟»، قال: «أما والله، لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائْتَمِرُوا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شُحًّا مطاعًا وهوى مُتَّبَعًا ودنيا مُؤْثَرَةً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك، ودع عنك الْعَوَامَّ؛ فإن من ورائكم أيامًا الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم»، قلنا: «مِنَّا أم منهم؟»، قال: «بل منكم» رواه أبو داود والترمذي».

الشَّرْحُ

○ قوله: «رواه أبو داود والترمذي» وكذا ابن ماجه من طريق عُتْبَةَ بْنِ أَبِي حَكِيمٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ جَارِيَةَ اللَّخْمِيُّ، حَدَّثَنِي أَبُو أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيُّ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ رضي الله عنه ...الحديث[1] وعُتْبَةُ مختلف فيه[2]، لكن قد يُقال أن الأحاديث في هذا الباب يشدُّ

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب «الأمر والنهي»، رقم (٤٣٤١)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة المائدة»، رقم (٣٠٥٨)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب «قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْۖ﴾»، رقم (٤٠١٤).

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». «المستدرك» (٤/ ٣٥٨)

(٢) ترجمته في: «تهذيب الكمال» (١٩/ ٣٠٠ - ٣٠٣).

بعضها بعضًا.

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا ظَالِمًا فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ»[(١)].

ومعنى الآية: إذا أمر الإنسان بالمعروف ونهى عن المنكر فيكون مهتديًا، فإذا أمر ونهى ولم يُسمع منه فلا يضره بعد ذلك من ضلَّ.

○ قوله: «**بل ائْتَمِرُوا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيتم شُحًّا مطاعًا**»، وفي «**صحيح مسلم**»[(٢)] عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ**».

○ قوله: «**وهوى مُتَّبَعًا**» أي: اتبع الإنسان هواه.

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب «الأمر والنهي»، رقم (٤٣٣٨)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة المائدة»، رقم (٣٠٥٧) - واللفظ له، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، رقم (٤٠٠٥)، وأحمد (١/ ٢).

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح، وقد رواه غير واحد عن إسمعيل بن أبي خالد نحو هذا الحديث مرفوعًا، وروى بعضهم عن إسمعيل عن قيس عن أبي بكر قوله، ولم يرفعوه».

وقال ابن كثير: «وقد رجَّحَ رفعه الدارقطني وغيره». «تفسير ابن كثير» (٢/ ١١٠).

وقال النووي: «رواه أبو داود والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة». «رياض الصالحين» (ص ٥٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٥٧٨).

○ قوله: «**ودنيا مُؤْثَرَةً وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك، ودع عنك الْعَوَامَّ**» يعني: ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى يفسد الزمان، ويفسد الزمان إذا رأيتم شحًا مُطاعًا وهوى مُتَّبَعًا ودنيا مُؤْثَرَةً وإعجاب كل ذي رأي برأيه حينئذ لا يُفيد الأمر ولا النهي؛ لأن الشحَّ مُطاع والهوى مُتَّبَع والدنيا مُؤْثَرَةً وكلٌّ معجب برأيه حينئذ عليك بنفسك، ودع عنك العوام.

○ قوله: «**فإن من ورائكم أيامًا الصابر فيهن مثل القابض على الجمر**» من شدة ما يجد من المنكرات، ولا يستطيع أن يُغيِّرَ، وليس له مُعِين.

○ ولهذا قال: «**للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم**»، **قلنا**: «**مِنَّا أم منهم؟**»، **قال**: «**بل منكم**»، وهذه مزية خاصة لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن له أجر خمسين من الصحابة.

وليس معنى ذلك أنه أفضل من الصحابة؛ فالصحابة لهم فضائل كثيرة، **منها**: مزية الصُّحبة التي لا يمكن أن يلحقها بها أحد من بعدهم فهي خاصة بهم، كذلك مزية الجهاد مع النبي ﷺ، ومزية تبليغهم دين الله.

والفضيلة الخاصَّة لا تقضي على الفضائل العامة، فقد يكون لدى المرء فضيلة خاصة وغيره أفضل منه، فهؤلاء الذين لهم أجر خمسين لهم هذه المزية من جهة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنهم لا يجدون على الخير عونًا، لكن مزية صُحبة النبي ﷺ والجهاد في سبيل الله معه ورؤيته ﷺ ولزومه والدفاع عنه وسماع كلامه خاصَّة بالصحابة، والمزية الخاصَّة له لا تقضي على المزايا العامة للصحابة ﷺ.

مثال ذلك: ما في «الصحيحين» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**النَّاسُ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَةِ الطُّورِ؟**»[1] فهذه منقبة لموسى عليه السلام، لكنه ليس أفضل من نبينا ﷺ، وفي «الصحيحين» عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ثُمَّ قَرَأَ** ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٠٤﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ»[2]، وهذه مزية ومنقبة لإبراهيم عليه السلام لكنه ليس أفضل من نبينا ﷺ، فهذه قاعدة المزية الخاصة لا تقضي على المزايا العامة، فكذلك هنا في آخر الزمان الذين يثبتون على الحقِّ كالقابض على الجمر، وله أجر خمسين من الصحابة، يعني: في خصوص هذه المزية، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر، ولكن الصحابة لهم مزايا لا يلحقها من بعدهم.

وفي «الصحيحين» عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَيْءٌ فَسَبَّهُ خَالِدٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي؛ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»[3]، **وعبدالرحمن بن**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب «قول الله تعالى: ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٢- ١٤٣]»، رقم (٣٣٩٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٣٧٣).

(٢) تقدَّم تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب «قول النبي ﷺ: «**لو كنت متخذا خليلًا**» قاله أبو سعيد»، رقم (٣٦٧٣)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، رقم (٢٥٤١) ـ واللفظ له ـ.

عوف من السابقين الأولين، **وخالد بن الوليد** أسلم بعد ذلك، فمن أسلم قبل صُلح الحديبية فهو من السابقين الأولين، ومن أسلم بعدها فليس من السابقين الأولين، **وقال آخرون**: بل هم الذين صلُّوا القبلتين مع رسول الله ﷺ[1]، وهذا ضعيف؛ لأن الصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس لها مزية، ولأن الصلاة إلى القبلة الأولى كانت ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، يعني: كانوا عددًا قليلًا، والله تعالى يقول: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: ١٠]، والفتح هو صلح الحديبية، سَمَّاهُ الله فتحًا لِمَا يترتب عليه من المصالح، ثم قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، كلًّا وعد الله الجنة من أنفق قبل الفتح وبعده، لكن لا يستوي من أسلم وجاهد مع النبي ﷺ وأنفق قبل صلح الحديبية ومن أنفق بعده، والفتح الثاني فتح مكة.

كان بين **خالد بن الوليد** وبين **عبدالرحمن بن عوف** شيء فَسَبَّهُ خالد، **وعبدالرحمن** من السابقين الأولين **وخالد** أسلم بعد صلح الحديبية فليس منهم، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَا تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِي**» يعني: لا تسبوا أصحابي الذين تقدَّمت صحبتهم، **وعبدالرحمن** له صُحبة أولى **وخالد** له صحبة أخرى؛ «**فَإِنَّ أَحَدَكُمْ**» يعني: **خالد** الذي تأخَّرَ إسلامه «**لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**» يعني: لو أنفق **خالد** مثل جبل أحد ذهبًا وأنفق **عبد الرحمن** ملء كف الرجل أو نصفه لم يسبقه **خالد**، فهذا التفاضل بين الصحابة أنفسهم فكيف التفاضل بين الصحابة والتابعين؟!، **قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ اللهُ: «ولهذا يقول من يقول من السلف:

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٧).

«**غبار دخل في أنف معاوية** مع رسول الله ﷺ أفضل من عمل **عمر ابن عبدالعزيز**»[١]، فالصحابة لا عدل لهم؛ قوم اختارهم الله لصُحبة نبيه وإبلاغ دينه، رضي الله عنهم وأرضاهم.



(١) «منهاج السنة النبوية» (٦/ ٢٢٧).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وروى ابن وضَّاح معناه من حديث ابن عمر رضي الله عنه، ولفظه: «إن من بعدكم أيامًا الصابر فيها الْمُتَمَسِّكُ بمثل ما أنتم عليه اليوم له أجر خمسين منكم»، قيل: «يا رسول الله منهم؟»، قال: «بل منكم»، ثم قال: أنبأنا محمد بن سعيد، أنبأنا أسد، قال: سفيان بن عيينة، عن أسلم البصري، عن سعيد أخي الحسن يرفعه، قلت لسفيان: «عن النبي ﷺ؟»، قال: «نعم»، قال: «إنكم اليوم على بَيِّنَةٍ من ربكم، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتجاهدون في الله، ولم يظهر فيكم السَّكْرَتَانِ، سَكْرَةُ الجهل وسَكْرَةُ حبِّ العيش، وستحولون عن ذلك لا تأمرون بالمعروف، ولا تنهون عن المنكر، ولا تجاهدون في الله، وتظهر فيكم السَّكْرَتَانِ، فَالْمُتَمَسِّكُ يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين»، قيل: «منهم؟»، قال: «لا، بل منكم»، وله بإسناد عن الْمَعَافِرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى للغرباء، الذين يتمسكون بالكتاب حين يُتْرَك، ويعملون بالسنة حين تُطفأ»».

الشَّرْح

○ قوله: «وروى ابن وضَّاح معناه من حديث ابن عمر رضي الله عنه، ولفظه: «إن من بعدكم أيامًا الصابر فيها الْمُتَمَسِّكُ بمثل ما أنتم عليه اليوم له أجر خمسين منكم»، قيل: «يا رسول الله منهم؟»، قال: «بل منكم» أخرجه ابن وضَّاح في «البدع والنهي عنها»[1] من طريق عدي

(١) «البدع» (١٨٨).

بن الفضل، عن محمد بن عجلان، عن عبدالرحمن، عن ابن عمر ﷺ به، وإسناده ضعيف جدًّا؛ فيه: **عدي بن فضل، قال ابن معين وأبو حاتم**: «متروك الحديث»، **وقال يحيى**: «لا يُكتب حديثه»[١].

○ قوله: **«ثم قال: أنبأنا محمد بن سعيد، أنبأنا أسد، قال: سفيان بن عيينة، عن أسلم البصري، عن سعيد أخي الحسن يرفعه، قلت لسفيان: «عن النبي ﷺ؟»، قال: «نعم»، قال: «إنكم اليوم على بَيِّنَةٍ من ربكم، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتجاهدون في الله، ولم يظهر فيكم السَّكْرَتَانِ، سَكْرَةُ الجهل وسَكْرَةُ حبِّ العيش، وستحولون عن ذلك لا تأمرون بالمعروف، ولا تنهون عن المنكر، ولا تجاهدون في الله، وتظهر فيكم السَّكْرَتَانِ، فَالْمُتَمَسِّكُ يومئذ بالكتاب والسنة له أجر خمسين»، قيل: «منهم؟»، قال: «لا، بل منكم»»** أخرجه ابن وضَّاح في «البدع والنهي عنها»[٢]، وإسناده ضعيف جدًّا؛ لإرساله، وفيه: **أسلم البصري** وهو مجهول.

وفيه زيادة: **«وتظهر فيكم السَّكْرَتَانِ»**، وهما **«سَكْرَةُ الجهل وسَكْرَةُ حبِّ العيش»** يعني: الجهل وحب الدنيا والرغبة فيها، وهذه من الأمور التي تحمل المرء على ضعف الإيمان وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

○ قوله: **«وله بإسناد عن الْمَعَافِرِيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى للغرباء، الذين يتمسكون بالكتاب حين يُتْرَك، ويعملون بالسنة حين تُطفأ»»** أخرجه ابن وضَّاح في «البدع والنهي عنها»[٣] قال: نا

(١) «ميزان الاعتدال» للذهبي (٥/ ٧٩).
(٢) «البدع» (١٨٩).
(٣) «البدع» (١٦٩).

محمد بن سعيد، قال: نا نعيم بن حماد، قال: نا ابن وهب، عن عقبة بن نافع، عن بكر بن عمرو المعافري به، وإسناده ضعيف جدًّا؛ لإرساله، **بكر بن عمرو المعافري** من السادسة[1]، وفيه: **عقبة بن نافع** وهو مجهول، أورده ابن أبي حاتم في **«الجرح والتعديل»**[2] برواية ابن وهب فقط عنه ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا.

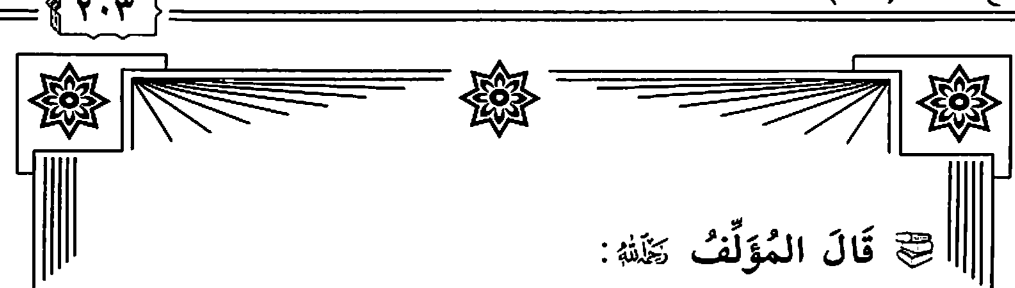
وهذه الآثار كلها تُؤيِّد الحديث السابق - وإن كان فيه ضعف - وتشدُّه وتقوِّيه، وتدل على أن له أصلًا.



---

(١) «تقريب التهذيب» لابن حجر (ص ١٢٧).

(٢) «الجرح والتعديل» (٦/ ٣١٧).



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«باب: التحذير من البدع

عن الْعِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وَجِلَتْ منها القلوب، وذرفت منها العيون، قلنا: «يا رسول الله، كأنها موعظة مُوَدِّعٍ، فأوصنا»، قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمَّرَ عليكم عبد، وإنه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين الْمَهْدِيِّينَ من بعدي، عَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة»، قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»».

الشَّرْحُ

هذا الباب الثالث عشر وهو الباب الأخير في هذه الرسالة.

ختم المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هذه الرسالة الجميلة المباركة بالتحذير من البدع، فقال: «باب «التحذير من البدع»، فبدأها بذكر فضائل الإسلام وختمه بالتحذير مما يُخالِفُهُ ويُكدِّرُ صفوه وهي البدع ومحدثات الدين.

○ قوله: «عن الْعِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وَجِلَتْ منها القلوب، وذرفت منها العيون، قلنا: «يا رسول الله، كأنها موعظة مُوَدِّعٍ، فأوصنا»، قال: «أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد، وإنه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين الْمَهْدِيِّينَ

من بعدي، عَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل بدعة ضلالة»، قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»»، وهذا الحديث كما قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أخرجه الترمذي، وكذا أبو داود وابن ماجه وأحمد(١)، وهو حديث صحيح.

أوصى النبي ﷺ الأمة بتقوى الله، وهي وصية الله للأولين والآخرين، فتقوى الله هي وصية الله لعباده، ووصية نبيه ﷺ لأمته، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

وأصل التقوى توحيد الله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، عن طلق بن حبيب أنه قال له بكر بن عبدالله: «ألا تجمع لنا التقوى في كلام يسير ترويه؟»، فقال طلق: «التقوى: أن تعمل بطاعة الله رجاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ على نور من الله، والتقوى: أن تترك معصية الله مخافة عذاب الله على نور من الله»(٢).

وقال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني بذلك جلَّ ثناؤه: يا معشر من صَدَّقَ الله ورسوله ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ خافوا

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب «في لزوم السنة»، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي، كتاب العلم، باب «ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع»، رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه، في المقدمة، باب «اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين»، رقم (٤٢)، وأحمد (٤/ ١٢٦).
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وقال الذهبي: «هذا حديث عال صالح الإسناد». «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٤٨٣).
وقال ابن رجب: «وقال الحافظ أبو نعيم: «هو حديث جيد من صحيح حديث الشاميين»». «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٥٨).
وقال ابن الملقن: «هذا الحديث صحيح». «البدر المنير» (٩/ ٥٨٢).

(٢) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢/ ٤٤٦).

الله وراقبوه بطاعته واجتناب معاصيه ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ حقَّ خوفه، وهو أن يُطاع فلا يُعصى، ويُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى»[١]، هذه **الوصية الأولى** للنبي ﷺ.

○ قوله: «**والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد**»، وهي **الوصية الثانية**، وهي السمع والطاعة لولاة الأمور، وعدم الخروج عليهم.

○ قوله: «**وإن تأمَّر عليكم عبد**» وفي «صحيح البخاري» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**»[٢]، **وفي هذا**: دليل على أن الولاية تثبت لولي الأمر إذا غلب الناس بسيفه وسلطانه، ويجب له السمع والطاعة ولو كان عبدًا حبشيًا؛ لأن الولاية تثبت بالاختيار والانتخاب كما ثبتت **لأبي بكر الصديق** رضي الله عنه، وتثبت بولاية العهد كما ثبتت **للفاروق** رضي الله عنه بولاية العهد من **أبي بكر** رضي الله عنه، وتثبت بالقوة والغلبة، فمن عهد الخلفاء الراشدين إلى يومنا هذا الدولة الأموية والعباسية والعثمانية كلها بالقوة، فإذا غلب الناسَ بقوته وسلطانه وجب له السمع والطاعة؛ حتى يستتب الأمن.

ولا يجوز الخروج عليه إلَّا بالشروط المتقدمة التي سبقت:

الشرط الأول: أن يفعل كفرًا لا فسقًا.

الشرط الثاني: أن يكون الكفر بَواحًا، يعني: ظاهرًا باديًا.

الشرط الثالث: أن يكون دليله واضحًا كآية أو سنة لا تحتمل التأويل.

---

(١) «تفسير الطبري» (٤/ ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الأحكام، باب «السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية»، رقم (٧١٤٢).

الشرط الرابع: وجود البديل المسلم الذي يحل محله.

الشرط الخامس: القدرة والاستطاعة.

ووجوب السمع والطاعة مُقيَّد بطاعة الله؛ في «الصحيحين» عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ جَيْشًا وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا فَأَوْقَدَ نَارًا، وَقَالَ: «**ادْخُلُوهَا**» فَأَرَادَ نَاسٌ أَنْ يَدْخُلُوهَا، وَقَالَ الْآخَرُونَ: «**إِنَّا قَدْ فَرَرْنَا مِنْهَا**»، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لِلَّذِينَ أَرَادُوا أَنْ يَدْخُلُوهَا: «**لَوْ دَخَلْتُمُوهَا لَمْ تَزَالُوا فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»، وَقَالَ لِلْآخَرِينَ قَوْلًا حَسَنًا، وَقَالَ: «**لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**»[1]، فحديث السمع والطاعة لولاة الأمور عام وهذا خاص، فالسمع والطاعة يكون لهم في طاعة الله.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، **قال الحافظ ابن حجر** رحمه الله: «**قال الطيبي**: أعاد الفعل في قوله ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إشارةً إلى استقلال الرسول بالطاعة، ولم يُعِدْهُ في أولى الأمر إشارةً إلى أنه يُوجد فيهم من لا تجب طاعته، ثم بَيَّنَ ذلك بقوله ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ كأنه قيل فإن لم يعملوا بالحقِّ فلا تطيعوهم، وردوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله»[2].

طاعة الرسول ﷺ مطلقة؛ لأنه لا يأمر إلا بطاعة الله، أما طاعة ولي الأمر فهي مُقيَّدة بطاعة الله ورسوله، فإن أمر بمعصية فلا يُطاع، ولكن ليس معنى ذلك إن الإنسان يخرج عليه ويقاتله، فإذا أمر

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب «سرية عبدالله بن حذافة السهمي وعلقمة بن مجزز المدلجي، ويقال إنها سرية الأنصار»، رقم (٤٣٤٠)، ومسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٤٠) ـ واللفظ له ـ.

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ١١١، ١١٢).

بشرب الخمر مثلًا فلا تُطعه، لا يُطاع أحد في معصية، إذا أمر الأب ابنه بمعصية لا يطيعه، بل يتلطف إليه، وإذا أمر الزوج زوجته بمعصية فلا تُطعه، وإذا أمر السيد عبده بمعصية فلا يطيعه؛ فلا أحد يُطاع في المعاصي، إنما الطاعة في المعروف، لكن ليس معنى ذلك أن يُخرج على ولاة الأمور، ولا أن تتمرد المرأة على زوجها أو العبد على سيده.

○ قوله: **«وإنه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا»...**

○ قوله: **«فعليكم بسنتي»** أي: الزموا السنة.

○ قوله: **«وسنة الخلفاء الراشدين الْمَهْدِيِّينَ من بعدي»** وسنة الخلفاء الراشدين تكون إذا لم تتبيَّن السنة.

ومثال لسنة الخلفاء الراشدين: الآذان الأول ليوم الجمعة، هذا سَنَّهُ **عثمان بن عفان** رضي الله عنه[1] **وهو خليفة راشِدٌ، وأجمع عليه المسلمين** إلى يومنا هذا.

○ قوله: **«عَضُّوا عليها بِالنَّوَاجِذِ»** يعني: تمسكوا بها بالنَّواجِذ، وهي الأطراف، وهذا يدل على وجوب التمسك بها.

○ قوله: **«وإياكم ومحدثات الأمور»** وهذا **هو الشاهد**.

○ قوله: **«وإياكم»** تحذير، **«ومحدثات الأمور»** وهي البدع، والبدعة هي الحدث في الدين، في «الصحيحين» عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»**[2]، وفي لفظ لمسلم: **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب «التأذين عند الخطبة»، رقم (٩١٦).

(٢) تقدَّم تخريجه.

رَدٌّ»[١]، فكل عمل ليس عليه أمر الله ورسوله فهو مردود على صاحبه.

○ قوله: «**فإن كل بدعة ضلالة**» وفي حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما عند النسائي: «**وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ**»[٢].

وفي هذا الحديث من الفوائد: وجوب السمع والطاعة لولي الأمر ولو لم يكن من العرب ولو كان أعجميًّا، وإذا غلب الناس بسيفه وسلطانه وجب له السمع والطاعة.

وفيه: علم من أعلام النبوة، وهو وقوع الاختلاف الذي أخبر عنه النبي ﷺ.

وفيه: وجوب لزوم سنة النبي ﷺ عند الاختلاف، وسنته هي طريقته التي سار عليها عقيدةً وخُلقًا وعبادةً.

وفيه: أن سنة النبي ﷺ هي سبيل النجاة عند الخلافات والفتن لمن أراد الله نجاته.

وفيه: أن سنة الخلفاء الراشدين يُعمل بها وتأتي بعد سنة النبي ﷺ، فإذا لم يكن في المسألة سنة للنبي ﷺ فيعمل بسنة الخلفاء الراشدين، أما إذا كان هناك سنة للنبي ﷺ فلا، ولهذا **ابن عباس** رضي الله عنهما اشتدَّ على من خالفه في مسألة المتعة في الحج، كان **ابن عباس** رضي الله عنهما يذهب إلى أن المتعة واجبة، وكان يرى أن من طاف بالبيت وسعى فقد حلَّ وإن لم ينوِ ذلك[٣] والخلفاء الراشدون رضي الله عنهم بعد النبي ﷺ أفردوا الحجَّ وواظبوا عليه، كذلك فعل **أبو بكر وعمر وعثمان**،

---

(١) تقدَّم تخريجه.

(٢) أخرجه النسائي، كتاب صلاة العيدين، باب «كيف الخطبة»، (٣/ ١٨٨، ١٨٩).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الحج، رقم (١٢٤٤).

واختلف فعل **علي** ﷺ أجمعين، وقد حجَّ **عمر** بالناس عشر حجج مدة خلافته كلها مُفرِدًا[١]، ولا شكَّ أن التمتع أفضل، لكن **الخلفاء الثلاثة** اجتهدوا، ورأوا أن اعتقاد أهل الجاهلية قد زال بأمر النبي ﷺ للصحابة بفسخ الإحرام بالحجِّ مُفرِدًا أو بالعمرة والحجِّ قارنًا فاجتهدوا وأمروا الناس بالإفراد، ويقولون العمرة في سفرة أخرى؛ حتى يكثر الزُّوار والعُمَّار ويزال هذا البيت يُحجُّ ويُعتمر.

وذهب **ابن عباس** إلى أن المتعة واجبة، وكان **ابن عباس** يرى أن من طاف بالبيت وسعى فقد حلَّ وإن لم ينوِ ذلك، وهي **رواية عن الإمام أحمد**[٢]، **واختار ذلك ابن حزم**[٣] **وابن القيم، قال** ﷺ: «لكن أبي ذلك البحر **ابنُ عباس** وجعل الوجوب للأمة إلى يوم القيامة وأن فرضًا على كلِّ مُفْرِد وقارِن لم يسُقِ الهدي أن يَحِلَّ ولا بُدَّ، بل قد حلَّ وإن لم يشأ، وأنا إلى قوله أميل مني إلى قول **شيخنا**»[٤] وشيخه ابن تيمية ﷺ يرى اختصاص وجوبه بالصحابة ﷺ[٥].

وقد ناظر بعضُ الناس ابن عباس في هذه المسألة، فروى الإمام أحمد في «**المسند**»[٦] عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «**تَمَتَّعَ النَّبِيُّ ﷺ**»، فَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: «**نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتْعَةِ؟**»، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «**مَا يَقُولُ عُرَيَّةُ؟!**»، قَالَ: «**يَقُولُ: «نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتْعَةِ»**»، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «**أُرَاهُمْ**

---

(١) انظر: «المجموع» (٧/ ١٣٧).
(٢) انظر: «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلى (١/ ١٦٨، ١٦٩).
(٣) «المحلى» (٧/ ٩٩).
(٤) «زاد المعاد» (٢/ ١٩٣).
(٥) انظر: «زاد المعاد» (٢/ ١٩٣).
(٦) «مسند أحمد» (١/ ٣٣٧).

سَيَهْلِكُونَ؛ أَقُولُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَيَقُولُ نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟![١]»، فإذا كان الذي يُخالِف السنة لقول **أبي بكر وعمر** رضي الله عنهما يُخشى عليه أن تنزل حجارة من السماء فالذي يُخالِف السنة لأقوال بعيدة ليست قريبة من أقوال **أبي بكر وعمر** ماذا يكون حكمه؟!.

وفيه: التحذير من البدع، وهذا **هو الشاهد** من الترجمة.

يجب الحذر من البدع والمبتدعة وعدم مجالستهم، وكان **السلف الصالح** يُحذِّرون من المبتدعة، وذكر **الإمام الذهبي** رحمه الله في «**الميزان**»[٢] في ترجمة **عبد الوارث بن سعيد**: «**وكان يُضرب المثل بفصاحته، وإليه المنتهى في التثبت، إلَّا أنه قدريٌّ متعصب لعمرو بن عبيد، وكان حماد بن زيد** ينهى المحدِّثين عن الحمل عنه للقدر، وقال يزيد بن زريع: «**من أتى مجلس عبد الوارث فلا يقربني**»، **وقال** رحمه الله في ترجمة **عبيد الله بن موسى العيسى**: «**ثقة في نفسه، لكنه شيعي متحرق،...، وروى الميموني عن أحمد**: «**وقد استشار مُحدِّثٌ أحمدَ** بن حنبل في الأخذ عنه، فنهاه»[٣]وقال رحمه الله في ترجمة **علي بن الجعد أبو الحسن الجوهري**: «**سمع منه مسلم** جملة لكن لم يخرج عنه في «**صحيحه**» شيئًا - مع أنه من أكبر شيخ لقي - وذلك لأن فيه بدعة،...، **وقال مسلم**: «**ثقة، لكنه جهمي**»، وأما **أحمد بن حنبل** فما مكَّن ولده عبد الله من الأخذ عنه»[٤]، هكذا **السلفيون** يُحذِّرون من أهل البدع ولا يأخذون عنهم.

---

(١) قال الذهبي: «ما قصد عروة معارضة النبي ﷺ بهما، بل رأى أنهما ما نهيا عن المتعة إلا وقد اطلعا على ناسخ». «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٢٤٣).

(٢) «ميزان الاعتدال» (٤/ ٤٣٠).

(٣) «ميزان الاعتدال» (٥/ ٢١).

(٤) «ميزان الاعتدال» (٥/ ١٤٣).

❁ **قَالَ المُؤَلِّفُ** رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وعن حذيفة قال: «كل عبادة لا يتعبده أصحاب محمد فلا تعبدوها؛ فإن الأول لم يدع للآخر مقالًا، فاتقوا الله يا معشر الْقُرَّاءِ، وخذوا طريق من كان قبلكم» رواه أبو داود».

الشَّرْح

○ قوله: «رواه أبو داود» في «**الزهد**»[1] عن همام بن الحارث قال: مرَّ علينا حذيفة ونحن في حلقة في المسجد نتحدَّث، فقال: «**يا معشر الْقُرَّاءِ، اسلكوا الطريق، والله لئن سلكتموه لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن اتخذتم يمينًا وشمالًا لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا**»، وأخرج البخاري[2] بنحوه، وتقدَّم ذكر **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ له.

○ قوله: «**كل عبادة لا يتعبده أصحاب محمد فلا تعبدوها**»؛ لأن الصحابة هم أهل الحقِّ، وهم أهل السنة والجماعة.

○ قوله: «**فإن الأول لم يدع للآخر مقالًا**» يعني: الأولون لزموا الحقَّ، وهم الصحابة والتابعون، فلا مجال لمخالفتهم.

○ قوله: «**فاتقوا الله يا معشر الْقُرَّاءِ**» يعني: اعبدوا الله وأحسنوا له العبادة، والزموا أمره ونهيه، واحذروا البدع.

○ قوله: «**وخذوا طريق من كان قبلكم**» وهم الصحابة والتابعون.

---

(١) «الزهد» (٢٨٠).

(٢) تقدَّم تخريجه.

فيه: تحذير من **حذيفة** رضي الله عنه من العبادات التي لا يتعبَّدها أصحاب النبي ﷺ.

وفيه: الحثُّ على لزوم السنة، والتحذير من البدع، وهذا **هو الشاهد** من الترجمة.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وقال الدارمي: أخبرنا الحكم بن المبارك، أنبأنا عمر بن يحيى، قال: سمعت أبي، يُحدِّث عن أبيه قال: كنا نجلس على باب عبد الله بن مسعود قبل صلاة الْغَدَاةِ فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد، فجاءنا أبو موسى الأشعري فقال: «أخرج إليكم أبو عبد الرحمن بَعْدُ؟»، قلنا: «لا»، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسى: «يا أبا عبد الرحمن، إني رأيت في المسجد آنفًا أمرًا أنكرته، ولم أرَ والحمد لله إلَّا خيرًا»، قال: «فما هو؟»، فقال: «إن عِشْتَ فَسَتَرَاهُ»، قال: «رأيت في المسجد قومًا حِلَقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصى، فيقول: «كَبِّرُوا مئة» فيكبرون مئة، فيقول: «هَلِّلُوا مئة» فيهللون مئة، ويقول: «سَبِّحُوا مئة» فيسبحون مئة، قال: «فماذا قلتَ لهم؟»، قال: «ما قلت لهم شيئًا انتظار رأيك أو انتظار أمرك»، قال: «أفلا أمرتهم أن يَعُدُّوا سيئاتهم، وضمنت لهم أن لا يضيع من حسناتهم شيء؟»، ثم مضى ومضينا معه حتى أتى حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم، فقال: «ما هذا الذي أراكم تصنعون؟!»، قالوا: «يا أبا عبد الله، حصى نَعُدُّ به التكبير والتهليل والتسبيح»، قال: «فَعُدُّوا سيئاتكم، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء، ويحكم يا أمة محمد، ما أسرع هَلَكَتَكُمْ؟!، هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تَبْلَ، وآنيته لم تُكْسَرْ، والذي نفسي بيده، إنكم لعلى مِلَّةٍ هي أهدى من مِلَّةِ محمدٍ أو مُفْتَتِحُو باب ضلالة»،

قالوا: «والله يا أبا عبدالرحمن ما أردنا إلَّا الخير»، قال: «وكم من مُرِيدٍ للخير لن يُصِيبَهُ، إن رسول الله ﷺ حدَّثنا أن قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تَرَاقِيَهُمْ، وَايْمُ الله لعل أكثرهم منكم» ثم تولى عنهم، فقال عمرو بن سلمة: «رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النَّهْرَوَانِ مع الخوارج».

هذا آخر ما تيسر».

الشَّرْحُ

○ **قوله: «وقال الدارمي: أخبرنا الحكم بن المبارك، أنبأنا عمرو بن يحيى، قال: سمعت أبي، يُحدِّث عن أبيه قال»** هذا الأثر كما قال المؤلف رحمه الله أخرجه الدارمي في «سننه»[(١)]، وفي سنده **عمرو بن يحيى بن عمرو، قال الحافظ ابن حجر** رحمه الله: «قال يحيى بن معين: «ليس حديثه بشيء، قد رأيته»، وذكره **ابن عدي** مختصرًا. انتهى، **وقال ابن خراش:** «ليس بمرضي»، **وقال ابن عدي:** «ليس له كبير شيء، ولم يحضرني له شيء»»[(٢)]، لكن تشهد له الآثار السابقة.

○ **قوله: «كنا نجلس على باب عبدالله بن مسعود قبل صلاة الْغَدَاةِ»** أي: قبل صلاة الفجر، وهذا يدل على فضل التابعين، وأنهم كانوا ينتظرون الصحابة على الأبواب حتى يستفيدوا منهم ويمشون معهم إذا خرجوا للصلاة.

○ **قوله: «فإذا خرج مشينا معه إلى المسجد»** يسألونه ويستفيدون منه في الطريق.

---

(١) أخرجه الدارمي، في المقدمة، باب «في كراهية أخذ الرأي»، رقم (٢٠٤).

(٢) «لسان الميزان» (٤/ ٣٧٨).

○ قوله: «فجاءنا أبو موسى الأشعري» الصحابي الجليل ﷺ «فقال» وهم ينتظرون **عبدالله بن مسعود** ﷺ «أخرج إليكم أبو عبدالرحمن بَعْدُ؟» أبو عبدالرحمن هو **عبدالله بن مسعود**.

○ قوله: «قلنا: «لا»، فجلس معنا حتى خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعًا» وفيه: تواضع **أبو موسى الأشعري** ﷺ، ومعرفة الفضل لأهله، فقد جلس ينتظر مع التابعين خروج **عبدالله بن مسعود** ﷺ.

○ قوله: «**فقال له أبو موسى: «يا أبا عبدالرحمن، إني رأيت في المسجد آنفًا أمرًا أنكرته، ولم أرَ والحمد لله إلَّا خيرًا**» يعني: ليس بالشيء الكبير.

○ قوله: «**قال: «فما هو؟»، فقال: «إن عِشْتَ فَسَتَرَاهُ»، قال: «رأيت في المسجد قومًا حِلَقًا جلوسًا ينتظرون الصلاة، في كل حلقة رجل، وفي أيديهم حصى، فيقول: «كَبِّرُوا مئة» فيكبرون مئة، فيقول: «هَلِّلُوا مئة» فيهللون مئة، ويقول: «سَبِّحُوا مئة**» فيسبحون مئة» يعني: حلقة وعليهم رئيس أو كبير لهم في الحلقة، فيقول لهم: «**كَبِّرُوا مئة**»، فيعدون «**الله أكبر**»، «**الله أكبر**»، «**الله أكبر**» مئة حتى تنتهي الحصى، فيقول لهم: «**هَلِّلُوا مئة**»، فيهللون «**لا إله إلا الله**»، «**لا إله إلا الله**»، «**لا إله إلا الله**» مئة حتى تنتهي الحصى، فيقول لهم: «**سَبِّحُوا مئة**»، فيسبحون «**سبحان الله**»، «**سبحان الله**» مئة حتى تنتهي الحصى.

○ قوله: «قال» عبدالله بن مسعود لأبي موسى: «**فماذا قلتَ لهم؟**».

○ قوله: «**قال: «ما قلتُ لهم شيئًا انتظار رأيك أو انتظار أمرك»، قال: «أفلا أمرتهم أن يَعُدُّوا سيئاتهم، وضمنت لهم أن لا**

يضيع من حسناتهم شيء؟» يعدون السيئات، والحسنات لا يعدونها بل هي محفوظة عند الله، يعني: هذا من باب الكراهية.

○ قوله: «**ثم مضى ومضينا معه حتى أتى**» أي: عبدالله بن مسعود ﷺ «**حلقة من تلك الحلق فوقف عليهم، فقال: «ما هذا الذي أراكم تصنعون؟!»، قالوا: «يا أبا عبدالله، حصى نَعُدُّ به التكبير والتهليل والتسبيح»، قال: «فَعُدُّوا سيئاتكم، فأنا ضامن أن لا يضيع من حسناتكم شيء»** عُدُّوا سيئاتكم، فحسناتكم ليست ضائعة، لا تبتدعوا؛ فهذا لم يفعله الرسول ﷺ ولا أصحابه.

○ قوله: «**ويحكم يا أمة محمد، ما أسرع هَلَكَتَكُمْ؟!**» يعني: بتركهم السنة، إن الهلاك بالبدع.

وفيه: دليل على أن البدع هلاك؛ لأنها مخالفة للسنة.

○ قوله: «**هؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابه لم تَبْلَ، وآنيته لم تُكْسَرْ**» يخاطبهم ﷺ ويحكم ما أسرع هلكتكم؟!، يعني: فعلتم البدع الآن ولم يمت الرسول ﷺ إلَّا من قريب وهؤلاء صحابة نبيكم ﷺ متوافرون وهذه ثيابه ﷺ لم تَبْلَ وآنيته لم تُكْسَرْ؟!

○ قوله: «**والذي نفسي بيده**» أقسم ﷺ «**إنكم لعلى مِلَّةٍ هي أهدى من مِلَّةِ محمدٍ أو مُفْتَتِحُو باب ضلالة**» فأنتم على أحد أمرين: إما أنتم على مِلَّةٍ هي أهدى من مِلَّةِ محمد ﷺ أو مُفْتَتِحُو باب ضلالة، فأنكر عليهم التسبيح والتهليل والتكبير جماعيًّا؛ لأنها بدعة، بل كل واحد عليه أن يُسبِّحَ وحده، ولا يحتاج أن يكون جماعة ولا إلى حصى.

○ قوله: «**قالوا: «والله يا أبا عبدالرحمن ما أردنا إلَّا الخير»**» قصدنا الخير بأن نُسبِّحَ ونُهلِّلَ ونُكبِّرَ.

○ قوله: «**قال: «وكم من مُرِيدٍ للخير لن يُصِيبَهُ»** فكم شخص يُريد الخير ولم يصبه، فأنتم تريدون الخير لكن ما أصبتموه، عملكم بدعة.

○ قوله: «**إن رسول الله ﷺ حدَّثنا أن قومًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تَرَاقِيَهُمْ**» وهؤلاء هم الخوارج.

○ قوله: «**وَايْمُ الله لعل أكثرهم منكم**» قسم، أقسم بأن رسول الله ﷺ أخبرنا أنه لعل أكثرهم منكم.

○ قوله: «**تم تولى عنهم، فقال عمرو بن سلمة**» الراوي: «**رأينا عامة أولئك الحلق يطاعنوننا يوم النَّهْرَوَانِ مع الخوارج**»، **فقال عمرو ابن سلمة**: صدق ابن مسعود رضي الله عنه، فقد رأيت أكثر هؤلاء الذين جلسوا في هذه الحلق يُقاتلون المسلمين مع الخوارج يوم النَّهْرَوَانِ، وهي واقعة كبيرة بين **علي** رضي الله عنه **والخوراج**.

وفي هذا: التحذير من البدع، وأن على المسلم أن يلزم الحقَّ ويحذر من البدع والمُحْدَثات في الدين، فالاقتصاد في السنة خير من عمل كثير مخالفًا لها، ولقد فاق **الصحابة** رضي الله عنهم التابعين بلزوم السنة، وقد يكون من بعدهم أكثر عملًا، فلزوم السنة والعمل بها أجره كبير لا حصر له مع الإخلاص والصدق، فالعمل القليل يُبارك الله فيه ويثيب عليه أجرًا كثيرًا بخلاف العمل الكثير الذي فيه مخالفة للسنة.

○ قوله: «**هذا آخر ما تيسر**» وبهذا نكون قد انتهينا من هذه الرسالة.

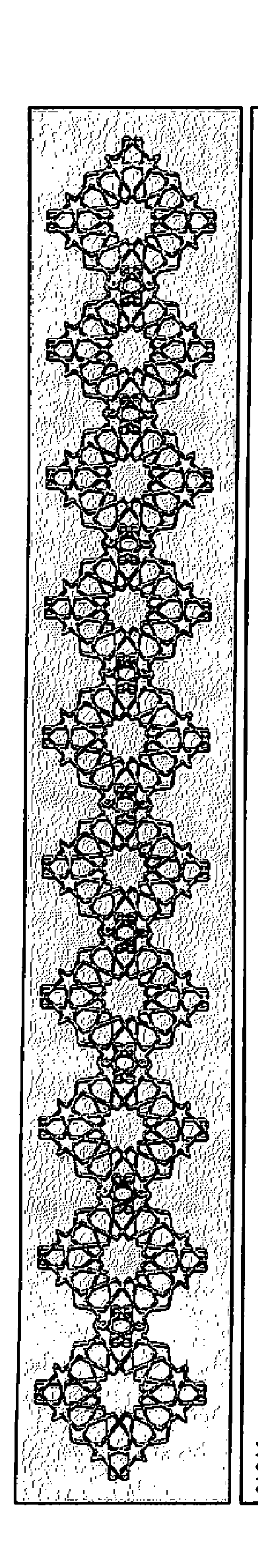


الخاتمة

أسأل الله أن يُوفِّقَنا لفقه دينه والبصيرة بشريعته، وأن يرزقنا علمًا نافعًا وعملًا صالحًا، وأن يُثبِّتنا على دينه القويم؛ وأن يتوفانا على الإسلام؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصَلَّى الله وسَلَّمَ وبارك على عبدالله ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.





شرح

كشف الشبهات



مقدمة الشارح

هذه رسالة «كشف الشُّبُهات» **لشيخ الإسلام المُجَدِّد الإمام محمد بن عبدالوهاب** رَحِمَهُ اللهُ، المولود (١١١٥هـ)، والمتوفى (١٢٠٦هـ) رَحِمَهُ اللهُ رحمة واسعة.

وهذه الرسالة تبحث في علم أصول الدين، في توحيد العبادة.

وعلم أصول الدين هو أشرف العلوم؛ إذ هو يتعلَّق بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وما يجب له سبحانه، وما يجوز عليه وما يمتنع، وهو معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله وعظيم حقِّه، وقد سَمَّى الإمام **أبو حنيفة** رَحِمَهُ اللهُ ما كتبه فيما يتعلَّق بالله في أصول الدين «الفقه الأكبر»[1].

وهذه زبدة الرسالة الإلهية، وعليه تُبْنَى مطالب الرسالة كلها، وهو أفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب، وأدركته النفوس، وحصَّلته العقول، والحاجة إليه فوق كل حاجة، والضرورة إليه فوق كل ضرورة، حتى إن الحاجة إلى معرفة علم أصول الدين أعظم من الحاجة إلى الطعام والشَّراب، والضرورة إليه فوق الضرورة إليهما والنَّفَسِ الذي يتردَّدُ بين جنبي الإنسان؛ لأن الإنسان إذا فقد الطعام

---

(١) قال ابن أبي العز الحنفي: «فإنه لَمَّا كان علم أصول الدين أشرف العلوم إذ شرف العلم بشرف المعلوم وهو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع، ولهذا سَمَّى **الإمام أبو حنيفة** رحمة الله عليه ما قاله وجمعه في أوراق من أصول الدين «الفقه الأكبر»». شرح «العقيدة الطحاوية» (ص ٦٥).

والشَّراب مات الجسم والموت لا بُدَّ منه، ولا يضره إذا مات مستقيمًا على طاعة الله، أمَّا إذا فَقَدَ الإنسان علمَ أصول الدين، وجهل ربَّه وأسمائه وصفاته وأفعاله، وجهل عظيم حقِّهِ مات قلبه، وماتت روحه فمات موتًا سرمديًّا.

ويلي هذا أصلان عظيمان:

الأصل الأول: معرفة الطريق المُوصِل إلى الله، وهي الشريعة المتضمِّنة أمره ونهيه، وهو علم الفروع المتعلِّق بالحلال والحرام، والأوامر والنواهي.

الأصل الثاني: معرفة حال السالكين حينما يصِلُون إلى الله، ومعرفة ما لهم من الكرامة والفوز والثواب العظيم، ومعرفة حال من انحرف عن هذا الطريق ولم يعبد الله ولم يُؤدِّ حقَّهُ وأشرك بالله، وما له من العذاب والعقاب السرمدي في الآخرة.

وعلم أصول الدين وهو معرفة المعبود بأسمائه وصفاته وأفعاله، **وعلم الحلال والحرام** وهو معرفة الشريعة التي فيها الحلال والحرام الذي هو حقُّه ﷻ، **والعلم بشئون المعاد** وما يكون للعبد بعد موته من البعث والجزاء والحساب والجنة والنار والصراط والميزان هي الأقسام الثلاثة للعلم النافع.

وهذه الأقسام الثلاثة ليس لها رابع، كما **قال العلَّامة ابن القيم** رحمه الله:

والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله ... كذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكل في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالفرقان[1]

---

(١) «نونية ابن القيم» (ص ٢٦٦).

وأعلم الناس بالله وأطوعهم وأتبعهم للطريق المُوصِل إليه هم الأنبياء والرُّسُل، فهم أعلم الناس به، وأطوعهم له، وأتبعهم للطريق المُوصِل إليه سبحانه.

وأطوعهم لله وأتبعهم له أولوا العزم الخمسة، نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، وأطوعهم الخليلان، إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ فإنهما قاما بهذا الدين علمًا وحالًا ودعوةً للخلق وجهادًا بما لم يقم به غيرهما.

وقد سَمَّى الله تعالى ما أنزله على نبيه الكريم ﷺ من الوحي رُوحًا؛ لِتوقُّفِ الحياة الحقيقية عليه، وسَمَّاهُ نورًا؛ لِتوقُّفِ الهداية عليه، فلا رُوح ولا حياة إلَّا بالقرآن والسنة، ولا نور ولا هداية إلَّا بالاستضاءة بهما، قال الله تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

وهذا العلم الذي بعث الله به رسوله ﷺ يجب على العبد أن يُؤمن به **إجمالًا**، فيؤمن بالله وبما جاء عنه وبما جاء عن رسول الله ﷺ، **وأما التفصيل** ففرض كفاية، ويختلف باختلاف أحوال الناس، **فالعلماء** الذين أعطاهم الله البصيرة في الدين والذين سمعوا النصوص وعرفوها وفهموها يجب عليهم ما لا يجب على غيرهم، ويجب على **القاضي والمفتي** ما لا يجب على غيره، ويجب على **رؤساء الناس وأعيانهم** ما لا يجب على غيرهم، ومن كان عنده قدرة على الفهم وسماع العلم يجب عليه ما لا يجب على غيره، وهكذا.

وإذا عرف العبد علم أصول الدين وعرف ربَّهُ بأسمائه وصفاته وعظيم حقِّهِ دعاه ذلك إلى أن يطلُبَ الطريق المُوصِل إليه، ويتعلَّم الشريعة والأوامر والنواهي؛ حتى يعبد ربَّهُ على بصيرة بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

وتَبِعَ **الصحابةُ والتابعون وتابعوهم** لهم بإحسان نبيَّنَا عليه الصلاة والسلام علي ذلك، كلهم ساروا على هذا المنهج، ثم خَلَفَهم خَلْفٌ من **أهل الكلام** الذين أعرضوا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتركوهما وراءهم ظِهْرِيًّا، واعتمدوا على مناهج الفلاسفة والأدلة العقلية التي استنتجوها بعقولهم، ومن **أهل التَّصوُّفِ** الذين اعتمدوا على طريقتهم، وهكذا.

وجاء **الجهمية والمعتزلة والأشاعرة** وشابهوا المنافقين، فالمنافقون إذا دُعُوا إلى الله ورسوله والتَّحاكم إلى الشريعة اعترضوا، **وقالوا**: «نُرِيد أن نُوفِّقَ بين الشريعة وبين ما نتحاكم إليه»، وكذلك **أهل الكلام** إذا دُعُوا إلى العمل بالكتاب والسنة **قالوا**: «نُرِيد أن نُوفِّقَ بين النقل والعقل، بين الشريعة وبين ما تدل عليه العقول»، **وأهل الفلسفة** إذا دُعُوا إلى الله ورسوله **قالوا**: «نُرِيد أن نُوفِّقَ بين المناهج الفلسفية والشرعية»، وكذلك **ملوك السُّوء والجور** يعرضون عن الشريعة، وإذا دُعُوا إليها **قالوا**: «نُرِيد أن نُوفِّقَ بين السياسة والشريعة»، وهكذا.

وقد بَيَّنَ الله تعالى أنه لا يحصل الإيمان للمنافقين حتى يتحاكموا إلى الله ورسوله ﷺ، ويُقدِّمُوا حكمهما على كل شيء، ويطمئنوا إليهما، ويُسلِّمُوا لهما، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

والواجب على الأمة جميعًا أن تستقيم على دين الله وشرْعِهِ، وأن تُحكِّمَ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والواجب على طلاب العلم أن يتعلَّمُوا شريعة الله، ويعتنوا بعلم أصول الدين، وهو معرفة الله ـ المعبود سبحانه ـ بأسمائه وصفاته وأفعاله وعظيم حقِّه، ثم علم الفروع، وهو علم الحلال والحرام، والأوامر والنواهي.

ورسالة «**كشف الشُّبُهات**» رسالة عظيمة في معناها ينبغي لطالب العلم أن يقرأها كثيرًا، ويتدبَّرَها ويتأمَّلَها ويتفهَّمَها ويحفظها؛ لأنها اشتملت على سلسلة شُبُهات للمشركين ذكرها **المؤلف** رحمه الله وفنَّدَها واحدة تلو الأخرى بكلام علميٍّ رصين، فهي رسالة تُكتب بماء الذهب، فلا يستغني عنها طالب علم، ويحتاج إليها المبتدئ والمنتهي[(١)].

قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله: «وأنا أقص الآن قصة **عبدالرحمن البكري** من أهل نجد، كان أولًا من طلاب العلم على العم الشيخ عبدالله وغيره، ثم بدا له أن يفتح مدرسة في عمان يُعلِّم فيها التوحيد من كسبه الخاص، فإذا فرغ ما في يده أخذ بضاعة من أحد وسافر إلى الهند، وربما أخذ نصف سنة في الهند.

قال الشيخ البكري: كنت بجوار مسجد في الهند وكان فيه مدرس إذا فرغ من تدريسه لعنوا **ابن عبد الوهاب**، وإذا خرج من المسجد مرَّ بي، وقال: «أنا أُجيد العربية، لكن أحب أَن أَسمعها من أهلها»، ويشرب من عندي ماءً باردًا، فأَهمني ما يفعل في درسه.

قال: فاحتلت بأن دعوته وأَخذت «كتاب التوحيد» ونزعت

---

(١) تم إثبات نسخة المتن من الطبعة التي خرجت بتحقيق **عبد الله بن عايض القحطاني**، طبعة «دار الصميعي للنشر والتوزيع»، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨م.

ديباجته ووضعته على رف في منزلي قبل مجيئه، فلما حضر قلت: «أتأذن لي أن آتي ببطيخة» فذهبت، فلما رجعت إذا هو يقرأ ويهز رأسه، فقال: «لمن هذا الكتاب؟!، هذه التراجم شبه تراجم البخاري، هذا والله نفس البخاري»، فقلت: «لا أدري»، ثم قلت: «ألا نذهب **للشيخ الغزوي** لنسأله»، وكان صاحب مكتبة وله رد على «جامع البيان»، فدخلنا عليه، فقلت **للغزوي**: «كان عندي أوراق، سألني الشيخ من هي له فلم أعرف»، ففهم **الغزوي** المراد، فنادى من يأتي بكتاب «مجموعة التوحيد» فأُتي بها فقابل بينهما، فقال: «هذا لمحمد بن عبد الوهاب»، فقال العالم الهندي مغضبًا وبصوت عالٍ: «الكافر»، فسكتنا وسكت قليلًا، ثم هدأ غضبه فاسترجع، ثم قال: «إن كان هذا الكتاب له فقد ظلمناه»، ثم إنه صار كل يوم يدعو له ويدعوا معه تلاميذه، وتفرَّق تلاميذ له في الهند، وإذا فرغوا من القراءة دعوا جميعًا للشيخ **ابن عبدالوهاب**»[1].

وفي هذه الرسالة بيان توحيد الألوهية والعبادة الذي هو حقُّ الله، وحقُّ الله على العباد أعظم الحقوق، وفيها بيان الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية والعبادة.

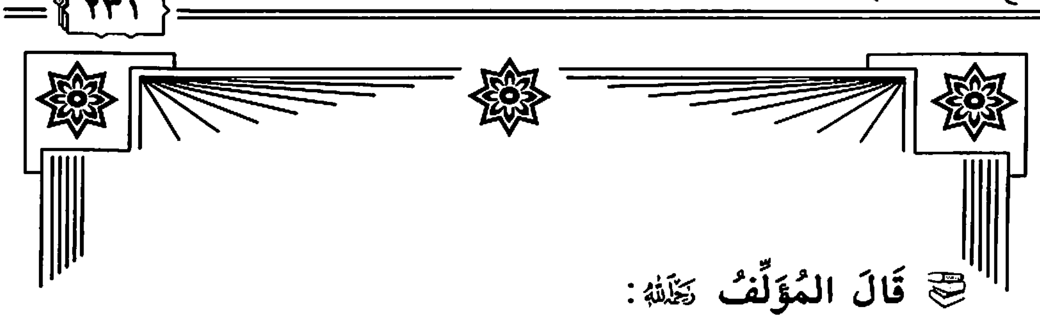
وبَيَّن **المؤلف** رحمه الله أن كثيرًا من الناس لا يعرفون معنى «لا إله إلَّا الله» وإنما يكتفون بالنطق بحروفها وألفاظها فقط، والذكي منهم والجيد يُفسِّرُها بتوحيد الربوبية، فيقول: «لا إله إلَّا الله» معناها لا خالق إلَّا الله، بل هناك بعض العلماء الكبار من السابقين واللاحقين لا يعرفون معناها، ولا يُفرِّقُون بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، وهم علماء فطاحل في الحديث أو التفسير أو الفقه أو اللغة

(١) «فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم» (١/ ٧٥، ٧٦).

والأدب، والسبب في ذلك أنهم نشأوا منذ الصغر على هذا، وفَصْلِ علم أصول الدين عن كُتُبِ الفقه وغيره، فتجد أول ما يُبدأ به في كُتُب الفقه والحديث «كتاب الطهارة»، ويقولون: «الكلام في توحيد الربوبية والألوهية له كُتُب خاصة»، فتركوها وصار الإنسان أول ما يبدأ به في كُتُب الفقه والحديث وغيرهما «كتاب الطهارة»، بخلاف طريقة الأقدمين **كالإمام البخاري ومسلم**، أول ما يبدؤون به «كتاب الإيمان»، ولهذا كان **الإمام محمد بن عبد الوهاب** ﷺ يقول لمن يناظره: أطلب منكم أن تقرءوا في كُتُب التوحيد وتدرسوها كما تدرسون أحكام الطهارة والحيض والنفاس والصلاة، ساووا بينها، فكما تعتنون بالفروع فاعتنوا بالأصول؛ حتى تعرفوا الله بأسمائه وصفاته، وتعرفوا عظيم حقِّهِ، وتُفرِّقُوا بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية.

كتبه

عبد العزيز بن عبد الله الراجحي



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ ثِقَتِي، كِتَابُ «كَشْفِ الشُّبُهَاتِ».

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّ التَّوحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالعِبَادَةِ».

الشَّرْح

افتتح **المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ كتابه بالبسملة تأسيًّا بالكتاب العزيز، فإن الله تعالى افتتح كتابه بالبسملة، وتأسيًّا برسول الله ﷺ، فإن النبي ﷺ في رسائله إلى الملوك ورؤساء القبائل والعشائر كان يفتتح كتابه بـ«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم» كما كتب إلى هِرَقْلَ عظيم الرُّوم **«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى...»** الحديث[١].

○ وقول **المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ **«بسم الله الرحمن الرحيم»** الباء للاستعانة، أي: أستعين باسم الله[٢].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب «بدء الوحي»، رقم (٧)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) **قال ابن كثير**: «ومن ههنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلِّق بالباء في قوله «بسم الله» هل هو اسم أو فعل متقاربان؟، وكلٌّ قد ورد به القرآن، أما من قدَّره باسم تقديره بسم الله ابتدائي، فلقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٤١﴾ [هود: ٤١]، ومن قدَّره بالفعل أمرًا أو خبرًا نحو أبدأ بسم الله أو ابتدأت بسم الله فلقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، وكلاهما **صحيح**». «تفسير ابن كثير» (١/ ١٩).

○ قوله: «رَحِمَكَ اللهُ» خبر، المقصود منه الدعاء، **فالشيخ** رَحِمَهُ اللهُ يُعلِّمُك ويدعو لك، وهذا من نصحه رَحِمَهُ اللهُ حيث دعا لطالب العلم في أول الرسالة، وهكذا شأن المؤمن، والعالم على وجه الخصوص فهو ناصح لإخوانه المسلمين في الحياة وبعد الممات.

ومن ذلك: قصة صاحب ياسين، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٠-٢٧]، فبلَّغ الله ذلك عنه.

ومن ذلك: ما في «الصحيحين»[1] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: «أَنْ ابْعَثْ مَعَنَا رِجَالًا يُعَلِّمُونَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ»، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ سَبْعِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُمْ «الْقُرَّاءُ» فِيهِمْ خَالِي حَرَامٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَدَارَسُونَ بِاللَّيْلِ يَتَعَلَّمُونَ، وَكَانُوا بِالنَّهَارِ يَجِيئُونَ بِالْمَاءِ فَيَضَعُونَهُ فِي الْمَسْجِدِ، وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَهُ، وَيَشْتَرُونَ بِهِ الطَّعَامَ لِأَهْلِ الصُّفَّةِ وَلِلْفُقَرَاءِ، فَبَعَثَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ فَعَرَضُوا لَهُمْ فَقَتَلُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَبْلُغُوا الْمَكَانَ، فَقَالُوا: «اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا»، وَأَتَى رَجُلٌ حَرَامًا خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلْفِهِ فَطَعَنَهُ بِرُمْحٍ حَتَّى أَنْفَذَهُ، فَقَالَ حَرَامٌ: «فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ»، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: «**إِنَّ إِخْوَانَكُمْ**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب «من ينكب في سبيل الله»، رقم (٢٨٠١)، ومسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٩٠٢) ـ واللفظ له ـ.

قَدْ قُتِلُوا، وَإِنَّهُمْ قَالُوا: «اللَّهُمَّ بَلِّغْ عَنَّا نَبِيَّنَا أَنَّا قَدْ لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا»».

○ قوله: «أَنَّ التَّوحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ اللهِ ﷻ بِالعِبَادَةِ» يعني: أن التوحيد الذي بعث الله به رُسُلَه وأنزل له كُتُبه هو إفراد الله بالعبادة، أي: تخصيصه ﷻ بالعبادة.

والعبادة **أصحُّ ما قيل** في تعريفها ما قاله **شيخ الإسلام ابن تيمية** رَحِمَهُ ٱللَّهُ، **قال**: «هي: اسم جامع لكل ما يُحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبرُّ الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك مِنَ العبادة، وكذلك حبُّ الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي مِنَ العبادة لله»[1]، فكل ما أمر الله أو رسوله ﷺ به ففعله عبادة، وكل ما نهى الله أو رسوله ﷺ عنه فاجتنابه عبادة، فيفعل المسلم الأوامر ويترك النواهي إخلاصًا لله وابتغاء مرضاته، هذه هي العبادة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لكل ما يحبه الله ويرضاه» ما كان مُوافِقًا لشرعه، فكل قول وعمل سواء كان باطنًا أو ظاهرًا يُوافِق شرع الله ويكون فيه العبد مخلصًا لله فالله يُحبه.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٤٩، ١٥٠).

○ قوله: «هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالعِبَادَةِ» يعني: تخصيص الله بها، فتخص الله بالدعاء فلا تدعو الله وتدعو غيره، فإذا دعا العبد ربَّهُ ودعا غيره صار مُشْرِكًا، وكذا تخصه بالصلاة فلا تُصلِّي لله وتُصلِّي لغيره، وتخصه بالزكاة، وبالحج، وبالذبح، وبالنذر، وبتلاوة القرآن، وبالذكر، وبالمحبة، وبالتوكل، وبالرغبة، فتخص الله تعالى بجميع أنواع العبادة التي جاء بها الشرع.

فإن وحَّدَت الله في العبادة فقد وَحَّدَته في ربوبيته وأسمائه وصفاته؛ لأن من عَبَدَ الله تضمن ذلك اعترافه بأنه هو الرَّبُّ النافع الضارُّ الذي بيده النفع والضر والعطاء والمنع، وهذا هو معنى قول **العلماء**: «توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية»، أي: أنه داخل في ضمنه، ويكون جزء منه، فلولا أن العبد يعتقد أن الله هو الرَّبُّ النافع الضار وأنه هو الذي يُوصِل إليه النفع ويدفع عنه الضر ما عَبَدَهُ، فلمَّا عَبَدَهُ دلَّ على اعترافه بربوبيته وأسمائه وصفاته، وكذا **قولهم** «توحيد الربوبية مستلزِم لتوحيد الألوهية»، أي: يستدعيه ويقتضيه ويدل عليه ويُوجِبُهُ، فمن اعترف أن الله هو الخالق الرازق المُدبِّرُ المحيي لزمه أن يعبد الله، ولهذا اعترف المشركون بتوحيد الربوبية ولكنهم لم يلتزموا بتوحيد العبادة وإن كان لازمًا لهم.

وهذا مثل: التوبة، فهي تستلزِم التائب، لكن التوبة غير التائب، ومثل: الولادة تستلزم والدًا وولدًا، والوالد يستلزم الولد، لكن الولد غير الوالد، وهكذا.

وهذا التوحيد هو الذي خلق الله الخلق لأجله، قال الله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٧].

○ قوله: «اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّ التَّوحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالعِبَادَةِ» يعني: أن التوحيد الذي أرسل الله به الرُّسُل وأنزل له الكُتُب هو إفراد الله سبحانه بالعبادة وتخصيصه بها، وهذه العبادة هي التي جاء بها الشرع بأن جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَهُوَ دِينُ الرُّسُلِ الَّذِي أَرْسَلَهُمُ اللهُ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ».

الشَّرْحُ

○ قوله: «وَهُوَ» أي: التوحيد «دِينُ الرُّسُلِ الَّذِي أَرْسَلَهُمُ اللهُ بِهِ إِلَى عِبَادِهِ»، فالرُّسُل كلهم وأولهم **نوح** عَلَيْهِ السَّلَامُ وآخرهم نبينا **محمد** ﷺ جاءوا بالتوحيد، ودينهم الإسلام، وأخبر تعالى أنه بعث رُسُلَهُ بالإسلام.

قال الله تعالى عن **نوح** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧١-٧٢].

وقال تعالى عن **إبراهيم** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِۦمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣١].

وقال تعالى عن **يعقوب** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال تعالى عن **يوسف** عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال تعالى عن **موسى** عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

وقال تعالى عن **أنبياء بني إسرائيل**: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى **عن بلقيس** لمَّا أسلمت: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤].

وقال تعالى **لنبيه** ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١-١٦٣] فرسولنا ﷺ أول المسلمين من هذه الأمة.

ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضًا إلى أن نُسِخَت بشريعة محمد ﷺ التي لا تُنسخ أبد الآبدين، ولاتزال قائمة منصورة وأعلامها منشورة إلى قيام الساعة[١].

وكلُّ الرُّسُلِ أَمَروا أقوامهم بتوحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له، ونهوهم عن الشِّرك.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ١٩٩).

إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥]

أما الشرائع فمختلفة كما قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

كانت حواء زوجة **آدم** عليه السلام تحمل في كل بطن ذكرًا وأنثًا بتقدير الله تعالى، فحَرَّمَ الله في شريعة **آدم عليه الصلاة والسلام** على الإنسان أن يتزوج أخته التي جاءت معه في نفس البطن، لكن يجوز له أن يتزوج أخته التي جاءت في بطن سابقة له أو لاحقة به؛ ليتكاثر الناس فلم يكن إلَّا آدم وذريته، فصار يجوز للأخ أن يتزوج أخته التي جاءت في بطن سابقة له أو لاحقة به، أما التي جاءت في بطن واحدة معه فحَرَّمَ الإسلام عليه ذلك، ولَمَّا كثر الناس حَرَّمَ الله تعالى نكاح الأخت في شريعة **يعقوب عليه الصلاة والسلام**، وكذلك **في شريعتنا** لا يجوز.

وفي شريعة التوراة التي أنزلها الله تعالى على **موسى عليه الصلاة والسلام** يجب القصاص في قتل القاتل، وفي شريعة الإنجيل التي أنزلها الله تعالى على **عيسى عليه الصلاة والسلام** يجب العفو والتسامح، **ويقول المسيح**: «من لطمك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر، ومن أخذ رداءك فأعطه قميصك»[١]، وفي شريعة **محمد** ﷺ التي هي أكمل الشرائع يُخَيَّرُ أولياء المقتول بين القصاص أو الصلح أو العفو، فتختلف الشرائع من أمة إلى أمة، فالله تعالى

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٨/ ٦٢٥).

يُشرِّع لكل نبي وكل أمة ما يُناسِب أحوالهم، لكن دينهم واحد وهو الإسلام.

والإسلام له معنيان: معنى عام ومعنى خاص.

المعنى العام: أن الإسلام دين الأنبياء جميعًا، ولا يقبل الله من أحد دينًا غيره كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمران: ١٩]، فدين الله في الأرض الإسلام، ومن ابتغى غير الإسلام دينًا فلن يقبله الله منه مِنْ لَدُن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عِمران: ٨٥].

والإسلام بمعناه العام ـ الذي هو دين الأنبياء جميعًا ـ هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة كل نبي في زمانه فيما جاء به من الشريعة، فالدين واحد لكن الشرائع تختلف.

الإسلام في زمن آدم عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **آدم** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن نوح** عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **نوح** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن هود** عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **هود** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن صالح** عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **صالح** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن إبراهيم** عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **إبراهيم** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن شعيب** عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **شعيب** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن موسى** عليه السلام

هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **موسى** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة، **والإسلام في زمن عيسى** عليه السلام هو توحيد الله، والبراءة من الشِّرك وأهله، وطاعة **عيسى** عليه السلام فيما جاء به من الشريعة حتى بعث الله **نبينا محمد** ﷺ بالشريعة الخاتمة.

والمعنى الخاص: هو توحيد الله والعمل بالشريعة الخاتمة التي بُعِثَ بها **نبينا محمد** ﷺ والتي نُسِخَت بها جميع الشرائع، فالإسلام بمعناه الخاص هو ما عليه الأمة المحمدية، توحيد الله والعمل بالشريعة التي جاء بها **نبينا محمد** ﷺ.



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فَأَوَّلهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى قَوْمِهِ لَمَّا غَلَوْا فِي الصَّالِحِينَ وَدٍّ، وَسُوَاعٍ، وَيَغُوثَ، وَيَعُوقَ، وَنَسْرٍ، وآَخِرُ الرُّسُلِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي كَسَّرَ صُوَرَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ».

الشَّرْح

يُبيِّن **المؤلف** رحمه الله أن التوحيد هو دين نوح عليه السلام، ودين محمد ﷺ، ودين الأنبياء بينهما.

أرسل الله **نوحًا** عليه السلام يأمر قومه بتوحيد الله، ويُنكِر عليهم الشِّرك وعبادة الأصنام والأوثان وَدٍّ وسُواعٍ ويَغُوثَ ويعُوقَ ونسْرٍ، ولبِثَ فيهم ألفَ سنة إلَّا خمسين عامًا.

وهذه أسماء رجال صالحين في زمن **نوح** عليه السلام، ولمَّا ماتوا زين الشيطان لقومهم أن يُصوِّرُوا صورهم لينشطوا - بزعمهم - على الطاعة إذا رأوها، ثم طال الأمد وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: «إن أسلافكم كانوا يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر» فعبدوهم كما ثبت هذا في «صحيح البخاري»[1] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: **«صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ**

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب «وَدًّا ولا سُواعًا ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ»، رقم (٤٩٢٠).

لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ «أَنْ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا، وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ»، فَفَعَلُوا فَلَمْ تُعْبَدْ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ».

وأول ما وقع الشِّرك كان في قوم نوح، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: **«كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحقِّ، فلما اختلفوا بعث الله النبيين والمرسلين وأنزل كتابه فكانوا أمة واحدة»**[1]، **ولهذا نوح** عليه السلام أول رسول بعثه الله إلى الأرض، يعني: بعد وقوع الشِّرك، وإلَّا فقد سبقه أنبياء، فسبقه آدم عليه السلام، لكن لم يقع الشِّرك في زمنه، **ونوح** عليه السلام أول رسول بُعِثَ إلى بنيه وغيرهم، بخلاف آدم عليه السلام ما بُعِثَ إلَّا لبنيه.

وانتقلت هذه الأصنام نفسها إلى العرب قُبيل بعثة النبي ﷺ كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما: **«صَارَتِ الْأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْعَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الْجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الْكَلَاعِ»**[2].

واختُلِفَ في كيفية انتقالها، **فقيل**: لمَّا جاء الطوفان الذي أهلك الله به قوم نوح نقلها حتى أوصلها إلى جدة، ثم سَفَتْ عليها الريح،

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٨٠)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري، ولم يخرجاه».

(٢) تقدَّم تخريجه.

ثم بعد ذلك لمَّا كثر الكُهَّان قبيل بعثة النبي ﷺ استخرجوها، وقال بعض الكهان ـ وقد أتى بسجع وقال في آخره ـ: «ثم ائت سيف جدة تجد بها أصنامًا مُعدَّة، ثم أوردها تهامة ولا تهب، ثم ادعُ العرب إلى عبادتها تُجَب» فجاء واستخرجها، **وقيل**: هذه الأصنام ليست هي نفس الأصنام، ولكنها أصنام صُوِّرَت وجُعِلَت على اسمها[1].

○ قوله: «**وآَخِرُ الرُّسُلِ مَحَمَّدٌ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي كَسَّرَ صُوَرَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ**» فآخر الأنبياء والرُّسُل محمد ﷺ، وهو الذي كَسَّرَ هذه الأصنام.



(١) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٨/٦٦٨).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«أَرْسَلَهُ اللهُ إِلَى أُنَاسٍ يَتَعَبَّدُونَ وَيَحُجُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَذْكُرُونَ اللهَ، وَلَكِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ بَعْضَ الْمَخْلُوقِينَ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَقُولُونَ: «نُرِيدُ مِنْهُمُ التَّقَرُّبَ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَنُرِيدُ شَفَاعَتَهُمْ عِنْدَهُ، مِثْلَ: الْمَلَائِكَةِ، وَعِيسَى، وَمَرْيَمَ، وَأُنَاسٍ غَيْرِهِمْ مِنَ الصَّالِحِينَ»».

الشَّرْحُ

أرسل الله تعالى نبينا محمد ﷺ إلى قوم يَتَعَبَّدُونَ وَيَحُجُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَيَذْكُرُونَ اللَّهَ، لكنهم لم يُفرِدُوا الله تعالى بالعبادة ولم يخلصوها له، فيعبدون الله ويعبدون معه غيره فأشركوا مع الله غيره، وقد غيَّرت **قريش** دين **إبراهيم عليه الصلاة والسلام**.

ومن ذلك: ما أحدثوه في الحجِّ، وكان المشركون يحجون، وكانوا يطوفون بالبيت عُرَاة فيقولون: «لا نطوف بثياب عصينا الله فيها»، إلَّا الحُمْسَ فإنهم كانوا يطوفون في ثيابهم، وغيرهم إن حصل له ثياب من الحُمْسِ طاف فيها وإلَّا طاف عريانًا، كما في «الصحيحين»[1] عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «**كَانَ النَّاسُ يَطُوفُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عُرَاةً إِلَّا الْحُمْسَ، وَالْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ**[2]،

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب «الوقوف بعرفة»، رقم (١٦٦٥)، ومسلم، كتاب الحج، رقم (١٢١٩).

(٢) **قال ابن حجر**: «والأحمس في كلام العرب: الشديد، وسُمُّوا بذلك لما شدَّدُوا على أنفسهم، وكانوا إذا أهلوا بحج أو عمرة لا يأكلون لحمًا ولا يضربون وبرًا ولا شعرًا، وإذا قدموا مكة وضعوا ثيابهم التي كانت عليهم». «فتح الباري» (٣/ ٥١٦).

وَكَانَتْ الْحُمْسُ يَحْتَسِبُونَ عَلَى النَّاسِ، يُعْطِي الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثِّيَابَ يَطُوفُ فِيهَا، وَتُعْطِي الْمَرْأَةُ الْمَرْأَةَ الثِّيَابَ تَطُوفُ فِيهَا، فَمَنْ لَمْ يُعْطِهِ الْحُمْسُ طَافَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا»، حتى المرأة إذا جاءت لتحجَّ طلبت ثوبًا فإن لم تجد طافت عُريَانة، في «صحيح مسلم»[1] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «**كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهِيَ عُرْيَانَةٌ، فَتَقُولُ: «مَنْ يُعِيرُنِي تِطْوَافًا[2] تَجْعَلُهُ عَلَى فَرْجِهَا»، وَتَقُولُ:**

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ ... فَمَا بَدَا مِنْهُ فَلَا أُحِلُّهُ

فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]».

تأمل، كيف استحوذ عليهم الشيطان؟!؛ تخلع المرأة ثيابها وتطوف عُريانة، وتقول: «لا أطوف بثياب عصيتُ الله بها»، فالعُريُّ عندهم خير من أن تطوف بها، وهذا من جهلهم وقلَّةِ بصيرتهم واستحواذ الشيطان عليهم.

ومن ذلك: ترك الحُمْسِ الوقوف بعرفة، فكانت **قريش** إذا حجُّوا لا يتجاوزون المزدلفة؛ لأنها نهاية الحرم فلا يقفون بعرفة، يقولون: «لا نتجاوز الحرم؛ نحن أهله فلا نتعداه»، وكانت **العرب** تقف بعرفة، فلما حجَّ النبي ﷺ حجة الوداع ظنت **قريش** أنه لن يتجاوز الحرم كما كانوا يفعلون في الجاهلية فأجازه النبي ﷺ ووقف بعرفة، في «الصحيحين»[3] عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه قَالَ: «**أَضْلَلْتُ**

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب التفسير، رقم (٣٠٢٨).

(٢) **قال النووي**: «هو بكسر التاء المثناة فوق، وهو ثوب تلبسه المرأة تطوف به، وكان أهل الجاهلية يطوفون عراة، ويرمون ثيابهم ويتركونها ملقاة على الأرض، ولا يأخذونها أبدًا، ويتركونها تداس بالأرجل حتى تبلى، ويسمى «اللقاء»، حتى جاء الإسلام فأمر الله تعالى بستر العورة». شرح النووي على «صحيح مسلم» (١٨/ ١٦٢، ١٦٣)

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب «الوقوف بعرفة»، رقم (١٦٦٤)، ومسلم، كتاب الحج، رقم (١٢٢٠) ـ واللفظ له ـ.

بَعِيرًا لِي فَذَهَبْتُ أَطْلُبُهُ يَوْمَ عَرَفَةَ فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَاقِفًا مَعَ النَّاسِ بِعَرَفَةَ، فَقُلْتُ: «وَاللهِ إِنَّ هَذَا لَمِنْ الْحُمْسِ، فَمَا شَأْنُهُ هَهُنَا؟!»، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ تُعَدُّ مِنَ الْحُمْسِ».

وقد كان المشركون يصومون، في «الصحيحين»[(١)] عَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ: **«كَانَ يَوْمُ عَاشُورَاءَ تَصُومُهُ قُرَيْشٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَصُومُهُ، فَلَمَّا قَدِمَ الْمَدِينَةَ صَامَهُ وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ».**

وكانوا يجتمعون في مؤتمرات لهم يعقدوها لرفع الظلم عن المظلوم وعلى الإحسان أيضًا، ومن ذلك: حلف المطيَّبين، وأدرك النبي ﷺ هذا قبل البعثة، عَنْ عَبْدِالرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلَامٌ، فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي أَنْكُثُهُ»**[(٢)] **قال الإمام ابن الأثير** ﵀: «اجتمع بنُو هاشم وبنُو زهرة وتيم في دار ابن جُدعان في الجاهلية، وجعلوا طيبًا في جَفْنةٍ وغمسوا أيديهم فيه وتحالفوا على التَّنَاصُر والأخذ للمظلوم من الظالم فسُمُّوا «الْمُطَيَّبِينَ»[(٣)] **وقد أثنى النبي ﷺ على هذا الحِلْفِ، فقال ﷺ: «فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي أَنْكُثُهُ»**؛ لأنه تعاقد وتعاهد على نصرة المظلوم وإزالة الظلم.

وقد كان سبب شرك الكفار وضلالهم أنهم لم يُفْرِدُوا الله بالعبادة ولم يخصُّوه بها، بل يعبدون معه غيره، **منهم**: من يعبد مع الله اللَّات أو العزى أو مناة، **ومنهم**: من يعبد الأنبياء كالمسيح ﵇

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب «صيام يوم عاشوراء»، رقم (٢٠٠٢)، ومسلم، كتاب الصيام، رقم (١١٢٥).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ١٩٠).

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه». «المستدرك» (٢/ ٢٣٩).

(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ١٤٩).

أو عُزيرًا[(١)] ومنهم: من يعبد الشمس أو القمر، يُرِيدون منهم القُرْبَةَ والجاه والشفاعة، يقولون عنه: «له مكانة عند الله، وينقل حوائجنا إليه، ويُقرِّبنا له».

وقاس المشركون اللهَ بخلقه فجعلوا بينهم وبينه وسائط يزعمون أنها تنقل حوائجهم وتُقرِّبُهم إليه كما أخبر الله تعالى عنهم، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٣]، وقال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]

قالوا: «لو أردتَ أن تدخل على الملوك أو الرؤساء لا بُدَّ لك من واسطة، فنحن نجعل واسطة بيننا وبين الله؛ لأننا متلبِّسون بالمعاصي، فلا نستطيع أن نعبد الله مباشرة بل لا بُدَّ من واسطة تُقرِّبُنا إليه»، فشبَّهُوا الله وقاسوه بخلقه، وهذا هو البلاء المبين والشِّرك بالله العظيم.

فالشِّرك الذي حصل منهم أنهم لم يخصُّوا الله بالعبادة، ولهذا قال **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ حينما افتتح هذه الرسالة: «**اعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ أَنَّ التَّوحِيدَ هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالعِبَادَةِ**» أي: تخصيصه تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالعبادة.

فلا بُدَّ أن يعلم المسلم أن المشركين الذين بُعِثَ فيهم الرسول ﷺ كانوا يعبدون الله ولكنهم لم يخصُّوه بالعبادة، بل كانوا يعبدون معه غيره، ولهذا لما قال ﷺ لهم: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا «لَا إِلَهَ إِلَّا**

---

(١) **قال ابن كثير**: «المشهور أن عزيرًا نبي من أنبياء بني إسرائيل». «البداية والنهاية» (٢/ ٤٦).

اللهُ» تُفْلِحُوا»[١] امتنعوا لعلمهم بأن معنى «لا إله إلَّا الله» ترك الأوثان والأصنام وغيرها، وتخصيص الله بالعبادة.

ومما يدل على علمهم بمعنى «لا إله إلا الله»: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْهُمْ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالُوا: «يَا أَبَا طَالِبٍ، ابْنُ أَخِيكَ يَشْتِمُ آلِهَتَنَا، يَقُولُ وَيَقُولُ، وَيَفْعَلُ وَيَفْعَلُ، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِ فَانْهَهُ»، قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبُو طَالِبٍ، وَكَانَ قُرْبَ أَبِي طَالِبٍ مَوْضِعُ رَجُلٍ فَخَشِيَ إِنْ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَمِّهِ أَنْ يَكُونَ أَرَقَّ لَهُ عَلَيْهِ فَوَثَبَ فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَجِدْ مَجْلِسًا إِلَّا عِنْدَ الْبَابِ فَجَلَسَ، فَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: «يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ قَوْمَكَ يَشْكُونَكَ، يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تَشْتُمُ آلِهَتَهُمْ، وَتَقُولُ وَتَقُولُ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ»، فَقَالَ: «يَا عَمِّ، إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ»، قَالُوا: «وَمَا هِيَ؟، نَعَمْ وَأَبِيكَ» عَشْرًا، قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، قَالَ: فَقَامُوا وَهُمْ يَنْفُضُونَ ثِيَابَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ ﷺ قَالَ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥] ثُمَّ قَرَأَ حَتَّى بَلَغَ ﴿لَمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص: ٨]»[٢]، وهو وإن كان ضعيفًا[٣] لكن معناه

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٤٩٢) من حديث ربيعة بن عباد الديلي، وكان جاهليًّا فأسلم رضي الله عنه.
قال الذهبي: «إسناده قوي». «تاريخ الإسلام» (١/ ١٥١)
وأخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٥٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥٦٢) من حديث طارق بن عبد الله المحاربي رضي الله عنه.
وصححه ابن الملقن في «البدر المنير» (١/ ٦٨٠).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة ص»، رقم (٣٢٣٢)، وأحمد (١/ ٣٦٢) ـ واللفظ له ـ.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

(٣) هو عند أحمد من طريق الأعمش، قال: حدثنا عباد بن جعفر، وعند الترمذي:=

صحيح، فهم يعرفون أن معنى «لا إله إلَّا الله» ترك الأصنام والأوثان.

وأوصى بعضهم بعضًا بالصبر عليها، قال الله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: ٦-٧].

وحجة المشركين إتباع الآباء والأجداد وإن كان باطلًا، وهي حجة فرعون حين قال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه: ٤٩-٥١]، ومعنى البال: الحال، أي: ما حال القرون الماضية والأمم الخالية مثل قوم نوح وعاد وثمود فيما تدعونني إليه فإنها كانت تعبد الأوثان وتُنْكِر البعث؟![1]، وقال الله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٣]، فالحجة القرشية: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [ص: ٧] والحجة الفرعونية: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه: ٥١] كما قال **المؤلف** رحمه الله[2].

= عن الأعمش، عن يحيى ـ قال عبد: هو ابن عباد ـ، كلاهما عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس به.

وعباد بن جعفر هو يحيى بن عمارة.

قال ابن حجر: «**يحيى بن عمارة**، ويقال: ابن عباد، وقيل: عبادة كوفي، روى عن ابن عباس قصة موت أبي طالب، وعنه الأعمش، ذكره ابن حبان في «الثقات».

قلت: وجزم بكونه يحيى بن عمارة، وكذا **البخاري ويعقوب بن شيبة**». «تهذيب التهذيب» (١١/ ٢٢٧).

فلم يروِ عنه غير الأعمش، ولم يوثقه غير **ابن حبان**، فهو في عداد المجاهيل، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين.

(١) «تفسير البغوي» (٣/ ٢٢٠).

(٢) انظر: «مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد» (ص ٢٨٥).

والواجب علي الإنسان الذي أعطاه الله عقلًا أن ينظر فيما كان عليه آباؤه وأجداده وأسلافه، فإن كانوا على الباطل فلا يتبعهم، وإن كانوا على الحقِّ فعليه اتباع الحقِّ.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وهذا هو الذي منع أبا طالب وأمثاله عن الإسلام، استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال، وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك لأنفسهم، ورأوا أنهم إن أسلموا سفَّهوا أحلام أولئك وضلَّلُوا عقولهم ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشِّرك، ولهذا قال أعداء الله لأبي طالب عند الموت: «ترغب عن مِلَّةِ عبدالمطلب؟!»، فكان آخر ما كلمهم به: «هو على مِلَّةِ عبدالمطلب»[(١)]، فلم يَدْعُه أعداء الله إلَّا من هذا الباب؛ لعلمهم بتعظيمه أباه عبدالمطلب، وأنه إنما حاز الفخر والشرف به فكيف يأتي أمرًا يلزم منه غاية تنقيصه وذمِّهِ؟!، وهذا شِعْرُهُ يُصرِّح فيه بأنه قد علم وتحقَّق نبوة محمد ﷺ وصدقه كقوله:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

وفي قصيدته اللامية:

فو الله لولا أن تكون مسبة ... تجر على أشياخنا في المحافل

لكنا اتبعناه على كل حاله ... من الدهر جدا غير قول التهازل

لقد علموا أن ابتنالا مكذب ... لدينا ولا يعني بقول إلا باطل

والمسبة التي زعم أنها تجر على أشياخه شهادته عليهم بالكفر والضلال وتسفيه الاحلام وتضليل العقول، فهذا هو الذي منعه من الإسلام بعد تيقنه»[(٢)].

(١) يأتي تخريجه قريبًا.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٩٧، ٩٨).

في «الصحيحين»[(١)] عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ: «**أَيْ عَمِّ، قُلْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ**»، فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُاللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: «يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ؟!»، فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: «عَلَى مِلَّةِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ**»، فَنَزَلَتْ ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]، وَنَزَلَتْ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]».

قولهما ـ وهما من قُرَناء السُّوء الكفار ـ «يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ؟!» يلقنانه الحجة الملعونة، ومِلَّة أبيه عبدالمطلب هي الكفر، وهي عبادة الأصنام والأوثان، فمات أبو طالب على الكفر والشِّرك، نسأل الله السَّلامة والعافية، ولله تعالى في خلقه شئون.

والهداية بيد الله، فلم يستطع النبي ﷺ أن يهدى عمه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦].

ولم يهدِ **إبراهيم** عليه السلام أباه، فهداية القلوب بيد الله تعالى، فكونه يقبل الحقَّ ويرضى به ويختاره فهذه إلى الله، أما الهداية التي بمعنى الدلالة والإرشاد والوعظ والبيان فهذه بيد الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]، وكذلك يملكها **العلماء والدعاة**؛ فهم يُبيِّنون ويُوضِّحون.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب «قصة أبي طالب»، رقم (٣٨٨٤)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٤).

لا يملك أحد هداية القلوب حتى أفضل الناس وهو نبينا محمد ﷺ، فليس بيده شيء من هداية القلوب وتفريج الكروب، بل لله الأمر من قبل ومن بعد، وله الحكمة البالغة.

ومن هذه الحِكَم: ليعلم الناس أن الرسول ﷺ بشر لا يملك من هداية القلوب شيئًا، فلا يصلح أن يكون معبودًا من دون الله، بل هو نبي كريم يُطاع ويُتَّبع، ويُعظَّم ويُحَبُّ أعظم من محبتنا لأنفسنا ولأهلينا، لكن لا نعبده؛ فالعبادة حقُّ الله، فلو كان يستطيع ويملك شيئًا لهدى عمه أبا طالب الذي نصره ودافع عنه.

وهو ﷺ لا يعلم الغيب ولو كان يعلمه لما مسَّهُ السُّوء كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال الله تعالى له في آية أخرى أن يقول للكفار: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام: ٥٨]، لكنه ﷺ ليس بيديه شيء.

وروى البخاري في «صحيحه»[(١)] عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ مِنَ الرَّكْعَةِ الآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلانًا وَفُلانًا وَفُلانًا**» بَعْدَ مَا يَقُولُ «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا، وَلَكَ الْحَمْدُ»، فَأَنْزَلَ اللهُ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وكان الصحابة رضي الله عنهم يُؤمِّنون على دعائه، ثم مَنَّ الله تعالى على المدعُو عليهم بالإسلام، وأسلموا.

❁❁❁

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب «﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨]»، رقم (٤٠٦٩).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فَبَعَثَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ مُحَمَّدًا ﷺ يُجَدِّدُ لَهُمْ دِينَهُمْ دِينَ أَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَيُخْبِرُهُمْ أَنَّ هَذَا التَّقَرُّبَ وَالاعْتِقَادَ مَحْضُ حَقِّ اللهِ تَعَالَى، لَا يَصْلُحُ مِنْهُ شَيْءٌ لِغَيْرِهِ لَا لِمَلَكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ، فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمَا».

الشَّرْحُ

التَّقَرُّبُ إلى الصالحين أو الأنبياء أو الأصنام أو الشمس أو القمر بالدعاء، أو بالذبح، أو بالنذر، أو بالطواف بهم محضُ حقِّ الله تعالى، ولا يصلح أن يُصْرَف منه شيء لغير الله، فمن صرف شيئًا منه لغير الله فقد أشرك.

وإذا كان العبد يعبد الله ويعبد غيره تفسد عبادته؛ لأنه أشرك بالله، فإذا كان يتصدَّق ويصوم ويُصلِّي ويحج لكن يدعو غير الله فدعاؤه لغير الله أفسد عبادته، فكما أن الإنسان يتوضأ ويُحْسِنُ وضوئه ثم يخرج منه ريح أو بول أو غائط فتبطل طهارته فكذلك إذا كان يعبد الله ثم أشرك به كأن دعا غيره أو ذبح لغيره فتبطل عبادته، ويحبط جميع عمله، ولا تنفعه عبادته لله حتى يتوب من هذا الشِّرك؛ فلا بُدَّ من إخلاص الدين والعبادة لله تعالى.

والتَّقَرُّبُ بالدعاء أو بالذبح أو بالنذر لا يصلح منه شيء لغير الله، لا لِمَلَكٍ مُقَرَّبٍ ولا نبي مُرْسَلٍ، فلا يصلح أن يُصْرَف هذا التَّقَرُّب لجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أفضل الملائكة، ولا لمحمد ﷺ وهو

أفضل الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وإذا كان لا يصلح لِمَلَكٍ مُقَرَّبٍ ولا نبي مُرْسَلٍ فغيرهما من باب أولى.

ولا بُدَّ للمسلم أن يعرف حقَّ الله وحقَّ رسوله ﷺ وحقَّ إخوانه المؤمنين، **حقُّ الله تعالى**: العبادة والتوحيد والطاعة وامتثال الأوامر، **وحقُّ رسوله ﷺ: الطاعة والإتِّباع، والمحبة أعظم من محبة النفس والمال والولد، وحقُّ إخوانه المؤمنين**: الولاء والمحبة، وحقوق الإخوة، وغير ذلك.



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَإِلَّا فَهَؤُلاءِ اَلْمُشْرِكُونَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الخَالِقُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَرْزُقُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُحْيِي وَلَا يُمِيتُ إِلَّا هُوَ، وَلَا يُدَبِّرُ الأَمْرَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ جَمِيعَ اَلسَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَالأَرَضِينَ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِنَّ كُلَّهُمْ عَبِيدُهُ، وَتَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ».

الشَّرْحُ

يُقِرُّ المشركون بتوحيد الربوبية، فيُقِرُّونَ بأن الله هو الخالق الرازق المُدَبِّر، وأن السماوات السبع ومن فيهنَّ والأرضين السبع ومن فيهنَّ كلهم عبيد الله، وتحت تصرفه وقهره، كلهم مدينون لله، مُدَبَّرون مُصرَّفُون، مُنقادُون مُسخَّرُون، لا يخرجون عن قدرته سبحانه ومشيئته، وما اعترفوا به لم ينفعهم؛ لأنه لا يكفي وحده، فهذا التوحيد مع أهميته لا بُدَّ أن يُضَمَّ إليه توحيد العبادة والإلهية.

وتوحيد الله في ربوبيته: هو الإيمان بوجود الله، وأنه فوق العرش بذاته تبارك وتعالى، وأن الله هو الرَّبُّ وغيره مربوب، وهو الخالق وغيره مخلوق، وهو المالك وغيره مملوك، وهو المُدَبِّر وغيره مُدَبَّر، والإيمان بسائر أفعال الرَّبِّ تبارك وتعالى، والاعتراف بأسمائه وصفاته، والإيمان والإقرار بها كما جاءت في الكتاب والسنة، وهذا كله وسيلة لعبادته، فإذا عرفت الله بأسمائه وصفاته وربوبيته لزمك أن تُؤَدِّيَ حقَّهُ وتَخُصَّهُ بالعبادة بأفعالك أيها العبد.

وتوحيد الله في العبادة: هو توحيد الله بأفعالك أنت أيها

العبد، بأن تخصَّ الله ﷻ بصلاتك وصيامك وزكاتك وحجك ودعاءك وخوفك ونذرك وجميع أعمالك فتصرِفها لله تعالى لا تشرك فيها مع الله أحدًا، فتدعو الله ولا تدعو غيره، وتذبح لله ولا تذبح لغيره، وتنذر لله ولا تنذر لغيره، وتصلي لله ولا تصلي لغيره، وتحُج لله ولا تحج لغيره، وتأمر بالمعروف لله وتنهى عن المنكر لله، وتدعو إلى الله لله، وتُبِرُّ والديك لله، وتصِلُ رحمك لله، وتجاهد في سبيل الله لله، وتحسن إلى الفقراء والمساكين والأرامل لله، وتكف آذاك عن الناس خشيةً لله وتقربًا إليه وتعظيمًا وإجلالًا له سبحانه.

لا بُدَّ للمؤمن أن يأتي بأنواع التوحيد الثلاثة كلها، فيُوحِّد الله في ربوبيته، وفي أسمائه وصفاته، وفي العبادة التي يَتقرَّبُ بها إليه.

ومن لم يُوحِّدِ الله في واحد من هذه الأنواع الثلاثة فليس بمُوحِّدٍ ولا بمؤمن؛ فالمؤمن هو الذي وَحَّدَ الله في ألوهيته وعبادته، وآمن بالله وملائكته وكُتُبه ورُسُلِهِ واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وآمن بمحمد ﷺ وأنه رسول الله حقًّا، وأنه خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده، ولم يفعل شركًا في العبادة ولا ناقضًا من نواقض الإسلام، هذا هو المسلم والمؤمن.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَإِذَا أَرَدتَ اَلدَّلِيلَ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَشْهَدُونَ بِهَذَا فَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١] **الْآيَةَ**.

وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ **إِلَى قَوْلِهِ**: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩]، **وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ**».

الشَّرْحُ

هذه أدلة على أن المشركين يُقِرُّون بتوحيد الربوبية، وكل شيء ليس عليه دليل لا يُقبل.

وكأن قائلًا يقول **للشيخ** رَحِمَهُ اللَّهُ: فلتأتِ بالدليل على أن الكفار كانوا يُقِرُّون بتوحيد الربوبية، **فقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: خُذِ الدليل الواضح من كتاب الله.

قال الله تعالى لنبيه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]، أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟![1]، فاحتج عليهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية على توحيد العبادة على أنه يجب عليهم أن يعبدوا الله وأن يتقوه ما داموا معترفين بأنه هو الذي يرزق، وأنه

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤١٧).

يملك السمع والأبصار، وأنه يخرج الحي من الميت والميت من الحي، وأنه يُدبِّر الأمر، وكما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، استدل على وجوب عبادته وحده بأنه ربكم الذي ربَّاكم بأصناف النِّعَم فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنِّعَم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشًا تستقِرُّون عليها وتنتفعون بالأبنية والزراعة والحراثة والسلوك من محل إلى محل وغير ذلك من أنواع الانتفاع بها، وجعل السماء بناءً لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم[(١)].

وقال الله تعالى في آيات أخرى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ۝٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]، فاحتجَّ تعالى عليهم بما أثبتوه وأقرُّوا به من توحيد الربوبية وانفراد الله بها على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة على ما أنكروه من إعادة الموتى الذي هو أسهل من ذلك؛ ليرشِدَ إلى أنه الله الذي لا إله إلَّا هو، ولا تنبغي العبادة إلَّا له وحده لا شريك له[(٢)].

---

(١) «تفسير السعدي» (ص ٤٥).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/٢٥٣)، و«تفسير السعدي» (ص ٥٥٧).

○ قوله: «وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ» كثيرًا ما يحتجُّ ﷻ عليهم بإقرارهم بتوحيد الربوبية على إلزامهم بتوحيد الألوهية.

احتج عليهم في سورة «النمل» بإقرارهم بتوحيد الربوبية على أنه يجب عليهم أن يُوحِّدُوا الله في العبادة، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٠-٦٤]، ﴿أَمَّنْ﴾ في هذه الآيات كلها تقديره: أمَّنْ يفعل هذه الأشياء كمن لا يقدر على شيء منها ؟!، هذا معنى السياق وإن لم يذكر الآخر؛ لأن في قوة الكلام ما يُرْشِد إلى ذلك، وقد قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النمل: ٥٩][1].

يحتجُّ عليهم ﷻ بالشيء الذي يُقِرُّون ويعترفون به وهو إفراد الله بالخلق والرزق والإماتة والإحياء على إلزامهم بالشيء الذي لا يعترفون ولا يُقِرُّون به وهو إفراده ﷻ بالعبادة.

۞۞۞

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧٠).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّهُمْ مُقِرُّونَ بِهَذَا وَأَنَّهُ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي التَّوحِيدِ الَّذِي دَعَتَ إِلَيْهِ الرُّسُلُ ودَعَاهُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَعَرَفْتَ أَنَّ التَّوحِيدَ الَّذِي جَحَدُوهُ هُوَ تَوْحِيدُ العِبَادَةِ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا «الاعْتِقَادَ»».



فإذا تحقَّقت أن المشركين يُقِرُّون بتوحيد الربوبية ومع ذلك لم يُدخِلهم ذلك وحده في دين الإسلام.

والتوحيد الذي جحدوه هو توحيد العبادة، الذي كان الناس في زمان **الإمام محمد بن عبدالوهاب** رحمه الله يُسمُّونه «الاعتقاد».

۞۞۞

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَكَانُوا يَدْعُونَ اللهَ تَعَالَى لَيْلًا وَنَهَارًا، ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَدْعُو الْمَلَائِكَةَ لِأَجْلِ صَلَاحِهِمْ وَقُرْبِهِمْ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِيَشْفَعُوا لَهُمْ، أَوْ يَدْعُو رَجُلًا صَالِحًا مِثْلَ اللَّاتِ، أَوْ نَبِيًّا مِثْلَ عِيسَى».

الشَّرْحُ

هذا هو حالهم، يدعون الله ليلًا ونهارًا، لكن البلاء جاءهم من كونهم يدعون غيره معه، **فمنهم** من يدعو الملائكة لصلاحهم، **ومنهم** من يدعو الشمس والقمر والأحجار، يقولون: هذه الجمادات ليس لها ذنوب، ومع كونهم يدعون الله ليلًا ونهارًا لكن لم ينفعهم؛ لأنهم أشركوا مع الله غيره.

○ قوله: **«أَوْ يَدْعُو رَجُلًا صَالِحًا مِثْلَ اللَّاتِ»** في «صحيح البخاري»[1] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ [النجم: ١٩]، **«كَانَ اللَّاتُ رَجُلًا يَلُتُّ سَوِيقَ الْحَاجِّ»**.

قال الإمام الماوردي رَحِمَهُ اللهُ: أما ﴿ٱللَّٰتَ﴾ فقد كان **الأعمش** يُشدِّدُها، وسائر **القراء** على تخفيفها، فمن خفَّفها فلهم فيها قولان:

أحدهما: أنه كان صنمًا بالطائف، زعموا أن صاحبه كان يلتُّ عليه السَّويق لأصحابه، قاله **السُّدي**.

الثاني: أنه صخرة يلتُّ عليها السَّويق بين مكة والطائف، قاله

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب «﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾»، رقم (٤٨٥٩).

عكرمة.

وأما من شدَّدها فلهم فيها قولان:

أحدهما: أنه كان رجلًا يلتُّ السَّويق على الحجر فلا يشرب منه أحد إلَّا سمن معبوده، ثم مات فقلبوه على قبره، قاله **ابن عباس ومجاهد.**

الثاني: أنه كان رجلًا يقوم على آلهتهم ويلتُّ لهم السَّويق بالطائف قاله **السُّدي**، **وقيل**: إنه **عامر بن ظرب العدواني**، ثم اتخذوا قبره وثنًا معبودًا»[1].



(١) «النكت والعيون» (٥/ ٣٩٧، ٣٩٨).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَعَرَفْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلَهُمْ عَلَى هَذَا الشِّرْكِ وَدَعَاهُمْ إِلَى إِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ للهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤] الآيَةَ».

الشَّرْحُ

لا بُدَّ أن تعرف هذا، أنه مع كونهم يدعون الله ليلًا ونهارًا ويتصدَّقُون ويصومون ويحجون لكن الرسول ﷺ قاتلهم؛ لأنهم دعوا مع الله غيره، فدعوا الملائكة، أو المسيح أو عزيزًا، أو أصنامًا أو أحجارًا، فقاتلهم الرسول ﷺ على هذا الشِّرك، واستحل دماءهم وأموالهم، وكفَّرهم وسَمَّاهم مشركين؛ لأنهم أشركوا مع الله غيره، ولم يخصُّوه وحده بالعبادة، فجميعُ أنواع العبادة يجب أن تكون كلها لله، فدعاهم ﷺ إلى إخلاص العبادة لله وحده.

ولا بُدَّ أن تعرف أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يُدخلهم في الإسلام، وأن قصدهم الملائكةَ أو الأنبياءَ أو الأولياءَ يُرِيدون شفاعتهم والتَّقرُّبَ إلى الله بذلك هو الذي أحلَّ دماءهم وأموالهم.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨]، و﴿أَحَدًا ۝١٨﴾ نكرة في سياق النهي، والقاعدة الأصولية: «أن النكرة في سياق النفي تعم»[1]، والمعنى: لا تدعوا أيَّ أحدٍ مُطلقًا

(١) انظر: «المحصول» للرازي (٢/ ٥٦٣)، و«روضة الناظر» لابن قدامة (٢/ ١٣).

من البشر أو الحجر أو الشجر، مثل: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

والآلهة التي يدعونها من دون الله لا تسمع دعائهم، ولو سَمِعُوا لا يقدرون على شيء مما يطلبون منها، ثم يوم القيامة يتبرءون منهم، قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد: ١٤].

قال الشيخ السعدي رحمه الله: «﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم﴾ أي: لمن يدعوها ويعبدها ﴿بِشَىْءٍ﴾ قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ الذي لا تناله كفاه لبُعْدِهِ ﴿لِيَبْلُغَ﴾ ببسط كفيه إلى الماء ﴿فَاهُ﴾ فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول بيده ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه فلا يصل إليه، كذلك الكفار الذين يدعون مع الله آلهة لا يستجيبون لهم بشيء، ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة.

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة؛ فإن ذلك تشبيه بأمر محال، فكما أن هذا

محال فالمشبَّه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]»[(١)].

۞۞۞

(١) «تفسير السعدي» (ص ٤١٥) باختصار يسير.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَتَحَقَّقْتَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلَهُمْ لِيَكُونَ الدُّعَاءُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالذَّبْحُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَالنَّذْرُ كُلُّهُ للهِ، وَالِاسْتِغَاثَةُ كُلُّهَا بِاللهِ، وَجَمِيعُ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ كُلُّهَا للهِ، وَعَرَفْتَ أَنَّ إِقْرَارَهُمْ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ لَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، وَأَنَّ قَصْدَهُمُ الْمَلَائِكَةَ أَوْ الأَنْبِيَاءَ أَوْ الأَوْلِيَاءَ يُرِيدُونَ شَفَاعَتَهُمْ وَالتَّقَرُّبَ إِلَى اللَّهِ بِذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَحَلَّ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ عَرَفْتَ حِينَئِذٍ التَّوْحِيدَ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَأَبَى عَنِ الإِقْرَارِ بِهِ الْمُشْرِكُونَ».

الشَّرْحُ

لا بُدَّ أن تتحقَّق وتعرف أن الأمر الذي قاتلهم الرسول ﷺ عليه ليَخصُّوا الله بالعبادة بأن لا يعبدوا إلَّا الله، فيكون الدعاء كله لله، والذبح كله لله، والنذر كله لله، وسائر أنواع العبادة كلها لله.

ولا بُدَّ أن تعرف أن إقرارَهم بتوحيد الربوبية لم ينفعهم ولم يجعلهم مسلمين، بل كانوا كفَّارًا، ولو أقرُّوا بوجود الله وبأسمائه وصفاته وأنه الخالق الرازق ما أخرجهم هذا من الكفر حتى يُوحِّدُوا الله في العبادة.

ولا بُدَّ أن تعرف أن قصدهم الملائكةَ أو الأنبياءَ أو الصالحين يُرِيدُون أن يشفعوا لهم ويتقربوا بهم إلى الله هذا هو الشِّرك، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ

يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣]، فحكم الله تعالى عليهم بالكذب والكفر، فهم كذبة في قولهم؛ فهم لا يُقَرِّبُونهم بل يعبدونهم، فهم كُفَّار بهذا العمل، وكما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨]، **قال الحافظ ابن كثير** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُنْكِر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانِّين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع، ولا تملك شيئًا، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها، ولا يكون هذا أبدًا، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾، **وقال ابن جرير**: معناه: أتخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض، ثم نَزَّهَ نفسه الكريمة عن شركهم وكفرهم، فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾»[1]، وهذا هو الذي أحلَّ دماءهم وأموالهم.

○ قوله: «عَرَفْتَ حِينَئِذٍ التَّوْحِيدَ الَّذِي دَعَتْ إِلَيْهِ الرُّسُلُ، وَأَبَى عَنِ الإِقْرَارِ بِهِ الْمُشْرِكُونَ» هذا هو الجواب، أي: إذا تحقَّقت هذه الأمور عرفتَ التوحيد الذي جاءت به الرُّسُل، وعرفت الذي من أجله قاتل النبي ﷺ المشركين.

۞۞۞

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤١٢)، وانظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٩٨).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَهَذَا التَّوْحِيدُ هُوَ مَعْنَى قَوْلِكَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»».

الشَّرْحُ

التوحيد: هو إفراد الله تعالى بالعبادة، أي: تخصيصه بالعبادة، وهي جميع ما أمر به الشرع من الأوامر والنواهي، فيفعل الإنسان الأوامر طاعة لله، وتعظيمًا وإجلالًا له، وخشية منه، ويترك النواهي تعظيمًا لله، وإجلالًا له، وخشية وخوفًا ورجاءً منه، إذًا التوحيد هو إفراد الله وتخصيصه بالعبادة، والمقصود توحيد العبادة.

بيان ذلك: أن كلمة «لا إله إلَّا الله» مشتملة على ركنين عظيمين:

الأول: النفي، وهو قول «لا إله».

الثاني: الإثبات، وهو قول «إلَّا الله».

و«الإله» معناه المعبود، و«لا» نافية للجنس، من أخوات «إنَّ» التي تنصب الاسم وترفع الخبر، واسمها«إلهَ»، والخبر محذوف، تقديره حقٌّ، «لا إله إلَّا الله» معناها: لا معبود حق إلَّا الله.

لا بُدَّ في التوحيد من النفي والإثبات، فمن اثبت ولم ينفِ أو نفى ولم يُثبت لم يحصل له التوحيد، بل لا بُدَّ من اجتماع الأمرين، أما النفي فقد نفيتَ جميع أنواع العبادة عن غير الله، والإثبات فقد أثبتَ جميع أنواع العبادة له سبحانه.

يُفسِّر **بعض الأشاعرة** «الإله» بأنه الخالق، فيقولون: «لا إله إلَّا

الله» معناها لا خالق إلَّا الله[1]، وهذا تفسير خاطئ؛ لو كان المعنى لا خالق إلَّا الله لم يكن هناك خلاف بين الرسول ﷺ والمشركين، فإنهم يقولون لا خالق إلَّا الله، وهم معترفون بهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

ويقول **بعض الناس**: معناها لا إله موجود إلَّا الله، وهذا غلط يكذِّبه الواقع؛ لأن الآلهة موجودة ومتعددة وكثيرة فالشمس عُبِدَت من دون الله، وكذا القمر، والنجوم، والملائكة، والأنبياء، والبشر، والأشجار، وعبادتهم كانت بالباطل، والعبادة بالحقِّ هي عبادة الله وحده كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

ولا تتبيَّن عظمة هذه الكلمة وأنها كلمة التوحيد التي تنفي الشِّرك عن الله وتُثْبِت العبادة بجميع أنواعها له سبحانه إلَّا إذا فُسِّر «الإله» بالمعبود، وقُدِّر الخبر بـ«حقٍّ»، قال الله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ١٠١].

وتوحيد الربوبية داخل في ضمن توحيد العبادة، فإذا أفرد الإنسان الله بالعبادة ففي ضمن ذلك إقراره بتوحيد الربوبية، وهذا هو معنى قول **العلماء** «توحيد الألوهية متضمنٌ لتوحيد الربوبية»، يعني: داخل فيه، فإذا أفردتَ الله بالعبادة وأخلصتَ العبادة له ففي ضمن ذلك اعترافك بأن الله هو الخالق والرازق والمُدبِّرُ والمحيي والمميت والضار والنافع.

❁❁❁

---

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (١/ ٢٢٦).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فَإِنَّ الإِلَهَ عِنْدَهُمْ هُوَ الَّذِي يُقْصَدُ لِأَجْلِ هَذِهِ الأُمُورِ سَوَاءً كَانَ مَلَكًا، أَوْ نَبِيًّا، أَوْ وَلِيًّا، أَوْ شَجَرَةً، أَوْ قَبْرًا، أَوْ جِنِّيًّا، لَمْ يُرِيدُوا أَنَّ «الإِلَهَ» هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ؛ فَإِنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ ذلِكَ للهِ وَحْدَهُ كَمَا قَدَّمْتُ لَكَ، وَإِنَّمَا يَعْنُونَ بِـ«الإِلَهِ» مَا يَعْنِي الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَانِنَا بِلَفْظِ «السَّيِّدِ»، فَأَتَاهُم النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُوهُمْ إِلَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَهِي «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، والْمرَادُ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَعْنَاهَا لَا مُجَرَّدُ لَفْظِهَا».

الشَّرْح

الإله هو الذي يُقصد لهذه الأمور، وليس كما يعتقده **بعض أهل الكلام والفلسفة** فيُفسِّرُون الإله بالخالق، بل الإله هو المعبود والمُطاع، الذي يُقصد بالحوائج والدعاء وتفريج الكُرُبات، وتُرجى منه الشفاعة، وما أشبه ذلك.

ويُسمِّيه **بعض الناس** «السَّيِّد» كما ذكر **المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ أنه في زمنه كانوا يُسمُّونه «السَّيِّد»[1]، ولم يُرِيدوا أن الإله هو الخالق الرازق المُدبِّر، ولم يخطر هذا ببالهم.

---

(١) **قال الشيخ عبداللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل شيخ** رَحِمَهُ اللهُ: «وفي أرض نجران من تلاعب الشيطان وخلع ربقة الإيمان ما لا يخفى على أهل العلم بهذا الشأن، كذلك رئيسهم المسمى بـ«السيد» لقد أتوا من تعظيمه وطاعته وتقديسه وتصديره والغلو فيه بما أفضى بهم إلى مفارقة الإسلام والانحياز إلى عبادة الأوثان». «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٣/ ٣٨٦).

والمراد من كلمة «لا إله إلَّا الله» معناها لا مجرد اللفظ، وهو أن تُخلِص العبادة لله فلا يكون في عملك شِرك، وليس المراد أن تقولها بلسانك فقط مجرد حروف ثم تقع في الشِّرك.

كثير من عُبَّاد القبور يقول: «لا إله إلَّا الله» وهو يطوف بالقبر، والطواف بالقبور عبادة لغير الله، فكيف تقول: «لا معبود حقٌّ إلَّا الله» وتعبد غيره؟!، وقد وُجِدَ من يطوف بالكعبة وهو يقول: «يا رسول الله» يناديه ويدعوه من دون الله وهذا شرك، فلا يكفي مجرد قولها بدون معرفة معناها.

لا بُدَّ أن تُخلِص أعمالك لله تعالى فلا يقع في عملك شرك، فإذا قلت «لا إله إلَّا الله» فتعرف المعنى وماذا يُراد منها، وهو إخلاص الدِّين لله، وإخلاص العبادة له، والعبادة هي دعاء، وذبح، ونذر، وطواف، وصلاة، وصيام، وزكاة، وحج، وبرُّ الوالدين، وصلةُ الرحم، وإحسانُ إلى الفقير، وكَفُّ الأذى وغير ذلك من أنواع العبادة فتخلصها لله، أما أن يقولها الإنسان بلسانه ثم يقع في الشِّرك فلا تنفعه.

وفي «الصحيحين»[(١)] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: «**إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**»، وفي لفظ: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ**»[(٢)]، وفي لفظ: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب «أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا»، رقم (١٤٩٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٩).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب «لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة»، رقم (١٤٥٨)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٩).

تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى»[1] فدلَّ ذلك على أن المراد ليس قولها باللسان بدون عمل بمقتضاها.

۞۞۞

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب «ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى»، رقم (٧٣٧٢).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَالْكُفَّارُ الْجُهَّالُ يَعْلَمُونَ أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ هُوَ إِفْرَادُ اللهِ تَعَالَى بِالتَّعَلُّقِ، وَالْكُفْرُ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهُ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا قَالَ لَهُمْ: «قُولُوا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»»، قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]».

الشَّرْحُ

يعرف الكُفَّار هذا، ولهذا إذا قال أحدٌ منهم هذه الكلمة ووحَّد الله تعالى أخلص العبادة له وترك الأصنام والأوثان، وإذا كان لا يُريد ترك الأصنام والأوثان امتنع عن قولها؛ لمعرفته بمعناها، ولا يقولها إلَّا من كان عنده استعداد كامل لترك الأصنام والأوثان، وعدم التعلُّق بها، وإخلاص الدِّين لله، فمن قذف الله النور والهداية في قلبه ترك الأصنام والأوثان، ومن بقي على شركه وضلاله يرفض أن يقولها.

ومما يدل على علمهم بمعنى «لا إله إلَّا الله»: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْهُمْ أَبُو جَهْلٍ، فَقَالُوا: «يَا أَبَا طَالِبٍ، ابْنُ أَخِيكَ يَشْتِمُ آلِهَتَنَا، يَقُولُ وَيَقُولُ، وَيَفْعَلُ وَيَفْعَلُ، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِ فَانْهَهُ»، قَالَ: فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ أَبُو طَالِبٍ، وَكَانَ قُرْبَ أَبِي طَالِبٍ مَوْضِعُ رَجُلٍ فَخَشِيَ إِنْ دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَمِّهِ أَنْ يَكُونَ أَرَقَّ لَهُ عَلَيْهِ فَوَثَبَ فَجَلَسَ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ يَجِدْ مَجْلِسًا إِلَّا عِنْدَ الْبَابِ فَجَلَسَ، فَقَالَ أَبُو

طَالِبٍ: «يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ قَوْمَكَ يَشْكُونَكَ، يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تَشْتُمُ آلِهَتَهُمْ، وَتَقُولُ وَتَقُولُ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ»، فَقَالَ: «**يَا عَمِّ، إِنِّي إِنَّمَا أُرِيدُهُمْ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ تَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَرَبُ، وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ بِهَا الْعَجَمُ الْجِزْيَةَ**»، قَالُوا: «وَمَا هِيَ؟، نَعَمْ وَأَبِيكَ» عَشْرًا، قَالَ: «**لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»، قَالَ: فَقَامُوا وَهُمْ يَنْفُضُونَ ثِيَابَهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥] قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ حَتَّى بَلَغَ ﴿لَمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨﴾ [ص: ٨]»(١).

وهذا حال كفار مكة يرفضون قول «لا إله إلَّا الله»؛ لعلمهم بمعناها ومقتضاها، أما في المدينة بعد غزوة بدر لمَّا قَوِيَ الإسلام والمسلمون أظهر المنافقون الإسلام وأبطنوا الكفر، وقالوها بألسنتهم وخالفوها.

ويشبههم في هذا الزمن عُبَّاد القبور والأصنام؛ يقولونها آلاف المرات وينقضونها بأفعالهم، فيقولون «لا إله إلَّا الله» ثم يذبحون لصاحب القبر أو يطوفون به؛ لأنهم لا يعرفون معناها، وكثير من المشركين المنتسبين للإسلام اليوم يقولها بلسانه وينقضها بأفعاله.

عرفوا أن معناها أن الإله الحقَّ هو الله، وأن عليهم أن يتركوا عبادة الأصنامِ اللَّات والعزَّى والشمس والقمر، وهم لا يريدون هذا، فاستنكروا وقالوا متعجبين: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾، بل تواصوا بالصبر على معبوداتهم من دون الله، قال تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾ [ص: ٦]، فانطلق الملأ منهم وهم سادتهم وقادتهم

(١) تقدَّم تخريجه.

ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين ﴿ٱمۡشُواْ﴾ أي: استمروا على دينكم ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد من التوحيد[١].

والواجب على العبد: أن ينظر ما كان عليه آباؤه وأجداده وأسلافه فإن كانوا على باطل فلا يتبعهم؛ فقد أعطاك الله العقل وكلَّفَك ومَيَّزَك عن الحيوانات، وإن كانوا على الحقِّ فيتبع الحقَّ.



(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/٢٨).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ جُهَّالَ الْكُفَّارِ يَعْرِفُونَ ذَلِكَ فَالْعَجَبُ مِمَّنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مَا عَرَفَ جُهَّالُ الْكُفَّارِ».

الشَّرْحُ

والله هذا هو العجب.

إذا عرفتَ أن كُفَّار قريش يعرفون معنى هذه الكلمة وبعض الناس الذين ينتسبون إلى الإسلام لا يعرفون معناها، وإذا سألت أحدهم: «ما معنى «لا إله إلَّا الله»؟»، يقول: «لا أدري»، فهي حروف يقولها بلسانه ولا يدري معناها، والذكي منهم - كما سيُبيِّن **المؤلف** رحمه الله بقوله: «**وَالْحَاذِقُ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاهَا لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ وَلَا يُدَبِّرُ الأَمْرَ إِلَّا اللهُ**»، فيُفسِّرُها بتوحيد الربوبية، ولو كان معناها لا خالق إلَّا الله لحصل وِفاقٌ بين الرسول ﷺ والكُفَّار، ولصاحبوه، قال الله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾ [القلم: ٩] يعني: تسكت عنهم في عبادة الأصنام والأوثان فيوافقونك ويُصاحِبُونك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إن قريشًا وعدوا رسول الله ﷺ أن يعطوه مالًا فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويطئوا عقبه، فقالوا له: «هذا لك عندنا يا محمد، وكف عن شتم آلهتنا فلا تذكرها بسوء، فإن لم تفعل فإنا نعرض عليك خصلة واحدة فهي لك، ولنا فيها صلاح»، قال: «**ما هي؟**»، قالوا: «تعبد آلهتنا سنة

اللَّات والعزي، ونعبد إلهك سنة»، قال: «**حتى أنظر ما يأتي من عند ربي**»، فجاء الوحي من اللوح المحفوظ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] السورة، وأنزل الله ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ۝٦٤﴾ [الزُّمَر: ٦٤]»[١].

وقد تَعب **بعضهم** في إثبات توحيد الربوبية، وأنه لا خالق ولا مُدبِّر إلَّا الله، حتى **قال بعضهم**: «إنه لا يمكن للإنسان أن يُثبت توحيد الربوبية عن طريق العقل، بل هذا يُتلقى من السمع»، بل إن **بعض الفلاسفة** تعِبوا في إثبات الخالق وأن هناك خالق ومخلوق، وبعد هذا التَّعب الطويل والنظر والتَّأمُّل وتقرير النظريات وصلوا إلى القول بأن هناك خالق ومخلوق، وصار **عُبَّاد الأصنام والأوثان** أذكى منهم؛ إذ لا إشكال عندهم في إثبات ذلك، وفي النهاية أثبت **الفلاسفة** خالقًا ومخلوقًا، **وقالوا**: إن الموجودات قسمان: واجب الوجود هو وجود الله، وممكن الوجود وهو وجود المخلوق[٢]، مع أن إثبات توحيد الربوبية أمر أثبته الكفار من دون إشكال وبغير مشقَّة.



(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٣٣١).
قال ابن حجر: «وفي إسناده أبو خلف عبدالله بن عيسى وهو ضعيف.
تنبيه: لم يورد في هذه السورة حديثًا مرفوعًا». «فتح الباري» (٨/ ٧٣٣).
(٢) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» لابن تيمية (٨/ ١٥٦).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«بَلْ يَظُنُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ التَّلَفُّظُ بِحُرُوفِهَا مِنْ غَيْرِ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لِشَيءٍ مِنَ الْمَعَانِي، وَالْحَاذِقُ مِنْهُمْ يَظُنُّ أَنَّ مَعْنَاهَا لَا يَخْلقُ وَلَا يَرْزُقُ وَلَا يُدَبِّرُ الْأَمَرَ إِلَّا اللهُ».

الشَّرْحُ

يظن **بعض الناس** أن المراد هو التلفظ بحروف «لا إله إلَّا الله» دون اعتقاد القلب لشي من معانيها، **والحاذق منهم** يُفسِّر «الإله» بأنه الخالق الرازق المُدبِّر، فيقول: «معنى «لا إله إلَّا الله» لا خالق ولا رازق ولا مُدبِّر إلَّا الله»، ومعنى ذلك: أن هذه الكلمة تُفسَّر بتوحيد الربوبية فقط، وهذا غلط كبير؛ فهذه الكلمة كلمة عظيمة، من أجلها خلق الله السماوات والأرض، ومن أجلها خلق الله الثقلين الجنَّ والإنس، ومن أجلها انقسم الناس إلى شقيٍّ وسعيدٍ ومؤمن وكُافر، ومن أجلها خُلقت الجنة والنار، ومن أجلها حُقَّت الحاقة ووقعت الواقعة، فكيف يكون معناها لا خالق إلَّا الله والكل مُعترِف بهذا حتى كُفَّار قريش؟!.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فَلَا خَيْرَ فِي رَجُلٍ جُهَّالُ الْكُفَّارِ أَعْلَمُ مِنْهُ بِمَعَنى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»».

الشَّرْحُ

لا خيرَ في رَجُلٍ جُهَّال الكُفَّار أعرف منه بمعنى هذه الكلمة، وهو لا يعرف معناها.

والواجب على المسلم: أن يعرف معنى «لا إله إلَّا الله»، وأن الإله معناه: المعبود، وأن «إلهَ» اسم «لا» النافية للجنس، والخبر محذوف، وتقديره: حقٌّ، والمعني: لا إله حقٌّ إلَّا الله، يعني: لا معبود حقٌّ إلَّا الله، وبهذا تتبيَّن عظمة هذه الكلمة، وأنها كلمة التوحيد التي تنفي الألوهية عن غير الله وتثبتها له ﷻ، فلا بُدَّ أن يعرف معناها ويشهد بذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٨٦﴾ [الزخرف: ٨٦]

لكن هذه الكلمة لا تنفع قائلها عند الله إلَّا إذا عَلِمَ معناها وعَمِلَ بمقتضاها، وابتعد عما يُناقِضُهَا، ولهذا قَرَّرَ **العلماء** وبَيَّنُوا شروط هذه الكلمة، وشروطها دلَّتْ عليها النصوص.

الشرط الأول: العلم المُنَافِي للجهل، علمُ معناها، كيف يتكلَّم العبد بهذه الكلمة وهو لا يعرف معناها؟!، فتعلم معنى هذه الكلمة، ومعناها: أنها مشتملة على نفي وإثبات، النفي في قولك «لا إله»، والإثبات في قولك «إلَّا الله»، والنفي المراد به: نفي جميع ما يُعبد

من دون الله، وهذا هو الكفر بالطاغوت، والإثبات في قولك «إلَّا الله»، إثبات الألوهية لله ﷻ.

الشرط الثاني: اليقين المُنافِي للشكِّ والريبة، يقول العبد «لا إله إلا الله» بيقين ليس عنده شكٌّ ولا تردد، فإن شكَّ وتردد فهو منافق، فلا بُدَّ من اليقين في قول هذه الكلمة، يتيقَّن أن الله هو المعبود الحقُّ، وأن كل معبود سواه فهو معبود بالباطل.

الشرط الثالث: الإخلاص المُنافِي للشرك، لا بُدَّ أن يقولها عن إخلاص بحيث لا يقع في عمله شرك ولا ناقض من نواقض الإسلام، فإن وقع في قوله شرك قولي أو اعتقادي أو عملي بطلت هذه الكلمة.

الشرط الرابع: الصِّدق المانع من النِّفاق، بمعنى: أنه يقولها بلسانه ويُصدِّقها بقلبه، فاللسان ينطق، والقلب يُصدِّق، فإن قالها بلسانه وكَذَّبَ بها بقلبه أو شكَّ فلا تنفعه هذه الكلمة؛ لأنه ليس عنده صدق، بل قالها عن كذب كما قال الله تعالى عن المنافقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة: ٨]، فأثبت لهم الإيمان باللسان ونفى عنهم الإيمان بالقلب، وقال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون: ١] فهم يشهدون بألسنتهم وقلوبهم مُكذِّبة.

الشرط الخامس: المحبَّة لها المُنافِية للبُغض، فيُحبُّ هذه الكلمة وأهلها فلا يبغضهم، بل يُواليهم وينصرهم ويُؤيِّدهم.

الشرط السادس: الانقياد المُنافِي لضده، فيقول: «لا إله إلَّا الله» بلسانه، وينقاد قلبه للإتيان بحقوقها، وهي الأعمال الواجبة

طاعةً لله وابتغاء مرضاته.

الشرط السابع: القبول المُنافِي للترك، فقد يقولها بعض الناس ولكن لا يُقبلها ممن دعاه إليها تعصُّبًا وتكبُّرًا.

وزاد **بعضهم**: الكفر بما يُعبد من دون الله كما ثبت في «صحيح مسلم»[1] عَنْ أَبِي مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: **«مَنْ قَالَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ»**، وقد بَيَّنَ **الإمام المجدِّد محمد بن عبدالوهاب** رحمه الله هذا الحديث **«وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ»** في «كتاب التوحيد»[2] فقال: «وهذا من أعظم ما يُبيِّن معنى «لا إله إلا الله»؛ فإنه لم يجعل التلفُّظ بها عاصِمًا للدَّم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لَفْظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يَحْرُمُ ماله ودمه حتى يُضِيفَ إلى ذلك الكفْرَ بما يعْبُدُ من دون الله، فإن شَكَّ أو توقَّفَ لم يَحْرُمْ ماله ودمُه، فيالها من مسألة ما أعْظَمها وأجَلَّها ؟!، ويالَهُ من بيانٍ ما أوْضَحَهُ؟!، وحجّةٍ ما أقطَعَهَا للمنازع؟!».

وقد جمعها **أهل الفضل** في هذا البيت فقالوا:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ... محبة وانقياد والقبول لها
وزيد ثامنها الكفران منك بما ... سوى الإله من الأشياء قد ألها



---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٣).

(٢) «كتاب التوحيد» (ص ٢٦).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إِذَا عَرَفْتَ مَا قُلْتُ لَكَ مَعْرِفَةَ قَلْبٍ، وَعَرَفْتَ الشِّرْكَ بِاللَّهِ الَّذِي قَالَ اللهُ فِيهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] الْآيَةَ، وَعَرَفْتَ دِينَ اللهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ الرُّسُلَ مِنْ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ سِوَاهُ، وَعَرَفْتَ مَا أَصْبَحَ غَالِبَ النَّاسِ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ بِهَذَا أَفَادَكَ فَائِدَتَيْنِ».



أي: إذا عرفتَ معنى ما قلتُه لك معرفةَ قلب، وعرفتَ الشِّرك الذي وقع فيه الناس، وعرفتَ التوحيد الذي أوجبه الله على العباد، وعرفتَ أن غالب الناس لم يعرفوا هذا الأمر أفادك فائدتين.

۞۞۞

﴿ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«الأُولَى: الْفَرَحُ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ [يونس: ٥٨] الْآيَةَ».

الشَّرح

الفائدة الأولى: أن تفرح بفضل الله وبرحمته؛ حيث وفَّقَكَ الله تعالى إلى الإسلام والتوحيد، وليس هذا بحولٍ منك ولا بقوة، ولو شاء الله تعالى لكنتَ مثل هؤلاء المشركين، ولكنَّ الله مَنَّ عليك وهداك ووفَّقَك للإسلام والتوحيد والإيمان، فاشكر الله واحمده، وافرح بفضل الله تعالى وبرحمته عليك، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨]، فعليك أن تفرح وتغتبط بفضل الله وبرحمته عليك، ومع ذلك تسأل الله الثبات والاستقامة على دينه.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وقد جاء الفرح في القرآن على نوعين: مطلق ومُقيَّد.

فالمطلق جاء في الذم كقوله تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ [هود: ١٠].

﴿ والمُقيَّد نوعان أيضًا:

النوع الأول: مُقيَّد بالدنيا يُنْسِي صاحبَه فضلَ الله ومِنَّتَهُ فهو مذموم كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ

(٤٤)﴾ [الأنعام: ٤٤].

النوع الثاني: مُقيَّد بفضل الله وبرحمته، وهو نوعان أيضًا: فضل ورحمة بالسبب وفضل بالمسبب:

فالأول: كقوله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس: ٥٨].

والثاني: كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠]، فالفرح بالله وبرسوله وبالإيمان وبالسنة وبالعلم وبالقرآن من أعلى مقامات العارفين»[(١)].



---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ١٥٧، ١٥٨).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَأَفَادَكَ أَيْضًا: الْخَوْفَ الْعَظِيمَ، فَإِنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الإِنْسَانَ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ يُخْرِجُهَا مِنْ لِسَانِهِ وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ جَاهِلٌ فَلا يُعْذَرُ بِالْجَهْلِ وَقَدْ يَقُولُهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهَا تُقَرِّبُهُ إِلَى اللهِ كَمَا ظَنَّ الْكُفَّارُ».

الشَّرْحُ

الفائدة الثانية: الخوف العظيم، بأن تخاف على نفسك أن تقع فيما وقع فيه غالب الناس، وأن تقع في الشِّرك وأنت لا تشعر، فالذين وقعوا في الشِّرك لهم عقول وأفهام ومع ذلك وقعوا فيه.

وقد يقول الإنسان كلمة يُخرِجها من لسانه وهو لا يظن أن تبلغ به ما بلغته فيكون بها مرتدًّا، كما لو سخِر أو استهزأ بالله أو بكتابه أو برسوله ﷺ أو بدينه، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجل: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء»، فقال رجل في المجلس: «كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ»، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن، قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: فأنا رأيته مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: «يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب»، ورسول الله ﷺ يقول: «﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥﴾ [التوبة: ٦٥]»[1]، فهؤلاء كفروا بكلمة أخرجوها بألسنتهم، وقد يقولها الإنسان جاهلًا وهو لا يظن أن تبلغ ما بلغت.

(١) «تفسير الطبري» (١٠/ ١٧٢).

وعلى العبد أن يخاف على نفسه؛ إذ الخوف يدعوك إلى لزوم الصراط المستقيم، وسؤال الله الثبات على دينه والاستقامة عليه، والحذر من الشِّرك قليله وكثيره، والبحث عن الشِّرك وذرائعه ووسائله حتى تحذره ولا تقع فيه، وفي «الصحيحين»[1] عَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﵁ يَقُولُ: «**كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ** عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي».

وإذا كان **إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام** إمام الحنفاء الذي قال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣]، ووقف عليه الصلاة والسلام وقوف الجبال الراسيات أمام عُبَّاد الأصنام من أبيه وقومه وصمد صمودًا عظيمًا وصبر صبرًا قويًّا حتى ألقوه في النار، وكسَّر الأصنام بيده عليه الصلاة والسلام فرزقه الله ثواب ذلك أبناء أنبياء إسماعيل وإسحاق، ومن سلالة إسماعيل نبينا محمد ﷺ، ومن سلالة إسحاق يعقوب، ومن سلالة يعقوب يوسف عليهم الصلاة والسلام، ومع ذلك يدعو ربَّهُ ويقول: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]، أي: اجْنُبْنِي يا ربِّ واجْنُبْ بَنِيَّ أن نعبد الأصنام، وبنيه أنبياء، فإذا كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام هذا حاله ودعاؤه ويخاف على نفسه وبنيه من عبادة الأصنام فكيف لا نخاف نحن؟!، ومن نحن بالنسبة لإبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم؟!، وكان **إبراهيم التيمي** ﵀

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب «علامات النبوة في الإسلام»، رقم (٣٦٠٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، رقم (١٨٤٧).

يقص ويقول في قصصه: «من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم حين يقول: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥]؟!»[1].

على الإنسان أن يسأل ربَّهُ الثبات والاستقامة، ولزوم الحقِّ والصراط المستقيم، ويعضَّ عليه بنواجذه، ويحذر من الشِّرك وذرائعه ووسائله، ويسأل عنها؛ لئلا يقع فيه وهو لا يشعر.



(١) «تفسير الطبري» (١٣/ ٢٢٨).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«خُصُوصًا إِنْ أَلْهَمَكَ اللهُ تَعَالَى مَا قَصَّ عَنْ قَوْمِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ صَلَاحِهِمْ وَعِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ أَتَوْهُ قَائِلِينَ ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فَحِينَئِذٍ يَعْظُمُ خَوْفُكَ وَحِرْصُكَ عَلَى مَا يُخَلِّصُكَ مِنْ هَذَا وَأَمْثَالِه».

الشَّرْح

يفعل بعض الناس الشِّرك؛ فيسأل الموتى قضاء الحوائج، والمدد، وتفريج الكُرُبات، ويذبح وينذر لهم، ويظنُّ أن هذا يُقَرِّبُه إلى الله تعالى، وأنه محبة للصالحين، وهذا هو الشِّرك الأكبر الذي هو أعظم الذنوب، وصاحبه مُخلَّد في النار لو مات عليه.

حكى الله تبارك وتعالى كيف نجى موسى وقومه من فرعون وملأه، قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦﴾ [الشُّعَرَاء: ٦٠-٦٦].

قال الشيخ السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ أي: اتبع قومُ فرعون قومَ موسى وقت شروق الشمس وساقوا خلفهم محثين على غيظ وحنق قادرين، ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: رأى كلٌّ منهما صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ شاكين لموسى وحزنين: ﴿إِنَّا

لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ فقال موسى مثبتًا لهم ومُخْبِرًا لهم بوعد ربِّهِ الصادق: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم أنكم مُدْرَكُون ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم، ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فضربه ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ اثنى عشر طريقًا ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ﴾ أي: الجبل ﴿ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾، فدخله موسى وقومه ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ﴾ في ذلك المكان ﴿ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: فرعون وقومه وقربناهم وأدخلناهم في ذلك الطريق الذي سلك منه موسى وقومه ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾ استكملوا خارجين لم يتخلَّفْ منهم أحد، ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٦٦] لم يتخلَّفْ منهم عن الغرق أحد»[(١)]، فانطبق البحر على فرعون وجنوده فأهلكهم الله تعالى بالغرق، ونجى الله موسى وقومه، وهم ينظرون وهؤلاء هم الخلاصة والصَّفوة.

ولمَّا مشوا مع موسى عليه الصلاة والسلام مروا على قوم يعبدون أصنامًا لهم، فقالوا لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، فأنكر موسى عليه الصلاة والسلام عليهم، وقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨]؛ أهلك الله عدوكم وأنتم تنظرون ثم تقولون ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾؟!، فإذا كانوا هؤلاء هم الخلاصة ومع علمهم وصلاحهم يطلبون هذا فكيف بغيرهم؟!، ولكن لمَّا زجرهم موسى عليه الصلاة والسلام لم يقعوا في الشِّرك.

وعَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا «ذَاتُ أَنْوَاطٍ» يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«سُبْحَانَ اللهِ، هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى**

---

(١) «تفسير السعدي» (ص ٥٩٢).

﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»(١)، فجعل النبي ﷺ مقالتهم كمقالة هؤلاء؛ لأن العبرة بالمعنى، ولكنهم رضي الله عنهم لم يقعوا في الشِّرك، فلمَّا قالوا هذا عن جهل وزجرهم النبي ﷺ وبَيَّنَ لهم أن هذا شرك لم يفعلوه ولم يقعوا فيه.



(١) أخرجه الترمذي، كتاب الفتن، باب «ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم»، رقم (٢١٨٠)، وأحمد (٥/٢١٨).

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ سُبْحَانهُ مِنْ حِكْمَتِهِ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيًّا بِهَذَا التَّوْحِيدِ إِلَّا جَعَلَ لَهُ أَعْدَاءً كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] الآيَةَ».

الشَّرْح

قد جعل الله تبارك وتعالى من حكمته البالغة أن جعل لكل نبي أعداء شياطين الإنس والجن كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾، فهؤلاء الشياطين أعداء للأنبياء يصُدُّون الناس عن طريق الحقِّ، وكذلك أتباع الأنبياء من الدُّعاة والمُصْلِحين لهم أعداء في كل زمان ومكان.

وهذا من الابتلاء والامتحان؛ فللَّه الحكمة البالغة حتى يتميَّز الصادق في إيمانه من غير الصادق، وليتبيَّن صبر الصابر، ليرفع الله المؤمن درجات بصبره على الأذى وثباته على الدين، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١-٣]، إذًا لا بُدَّ من الصبر والتحمل، ولا بُدَّ من أخذ السِّلاح والعُدَّة والتَّسلُّح بسلاح العلم، ولا بُدَّ من صبر الداعية والعالم والمُصلِح.

ولقد أمر الله تعالى الأنبياء بالصبر، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ

﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وفي «الصحيحين»[(١)] عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ آثَرَ النَّبِيُّ ﷺ أُنَاسًا فِي الْقِسْمَةِ فَأَعْطَى الْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ الْعَرَبِ فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْقِسْمَةِ، قَالَ رَجُلٌ: «وَاللهِ إِنَّ هَذِهِ الْقِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ»، فَقُلْتُ: «وَاللهِ لَأُخْبِرَنَّ النَّبِيَّ ﷺ»، فَأَتَيْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: **«فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!، رَحِمَ اللهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ»**.

وقال الله تعالى في كتابه العظيم: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣]، فلا بُدَّ من الصبر، ولا يستطيع إنسان أن يقوم بالدعوة حتى يصبر، كما أنه لا يستطيع أن يُؤدِّيَ الواجبات ويبتعد عن المُحَرَّمات إلَّا بالصبر، فطريق الدعوة والجنة ليس مفروشًا بالورود، بل عقبات وشدائد.

والعاقبة بعد ذلك للمتقين للأنبياء ولأتباعهم وإن أصابهم في أول أمرهم شدة، في «الصحيحين»[(٢)] عَنْ عَبْدِاللهِ بْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ: **«سَأَلْتُكَ كَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟، فَزَعَمْتَ أَنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ وَدُوَلٌ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ»**؛ لأنه قرأ في الكُتُب السماوية السابقة

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فرض الخمس، باب «ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه»، رقم (٣١٥٠)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٦٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب «قول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]، والحرب سجال»، رقم (٢٨٠٤)، ومسلم، كتاب الجهاد والسير، رقم (١٧٧٣).

فقد كان نصرانيًا، «فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى» يعني: في أول الأمر «ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ»، ويقول الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩].

وكذلك طلب العلم يحتاج إلى صبر، ثم بعد ذلك يذوق حلاوة العلم، لكنه في وقت الطَّلب لا بُدَّ له من الصبر والتَّحمُّلِ، وسهر الليالي، والجثو على الركب أمام العلماء، وقراءة كُتُبهم، والتواضع لهم حتي يستفيد منهم، والتَّخلُّق بخُلُقِ العلم والتَّأدُّب بآدابه، قال الأصمعي: قيل **لبُزُرْجَمْهِر الحكيم**: «بم أدركت ما أدركتَ من العلم؟»، **قال**: «بِبُكورٍ كبُكورِ الغراب،... وصبرٍ كصبرِ الحمار»[1]، وكثير من الشباب يُحِبُّون الخير وعندهم استقامة، لكن لا يوجد عندهم صبر لطلب العلم ولا على حضور الحلقات.

فلا بُدَّ من الصبر والاستمرار والثَّبات؛ فطريق الجنة لو كان مفروشًا بالورود ما تخلَّف أحد، ولسلكه الناس كلهم، ولكنه طريق صعب فيه عقبات لا بُدَّ فيه من الصبر والتَّحمُّل، ويمتحن الإنسان فيه حتى يزول خبثه، ويخرج نقيًّا صافيًا كما يمتحن الذهب على النار ليصْفَى، ويزول عنه الخبث.



(١) «المجالسة وجواهر العلم» لأبي بكر الدينوري (ص ٥٦).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَقَدْ يكُونُ لِأَعْدَاءِ التَّوْحِيدِ عُلُومٌ كَثِيرَةٌ وَكُتُبٌ وَحُجَجٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣] الآيَةَ».

الشرح

قد يكون عند أعداء التوحيد علوم وحجج وشُبَهٌ كثيرة، كبعض عُبَّاد القبور الآن عنده علم وعندهم شُبُهَات، ويستدلون بآيات من القرآن كقوله سبحانه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]، فيُخبر الله تعالى عنهم أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، **فيقولون**: «لا مانع أن نطلب منهم الشفاعة؛ فلهم جاه عند الله»، **ويقولون**: «نطلب منهم الشفاعة ونحن نعلم أنهم لا يخلقون ولا يرزقون، ولا يميتون، ولا يحيون، ولا ينفعون، ولا يضرون، لكن نتوسل إلى الله بهم».

نقول: هذا إذا كان وليًّا فصلاحه وولايته لنفسه، لا تستفيد أنتَ من صلاحه ولا ولايته، بل أخلص لربِّك، وادعُ الله، ولا تدعُ الولي، واعمل مثل عمله الصالح، وكونه وليًّا لا يدعوك إلى أن تدعوه مع الله أو تعبده من دونه.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«إِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ وَعَرَفْتَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى اللهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ أَعْدَاءٍ قَاعِدِينَ عَلَيْهِ أَهْلِ فَصَاحَةٍ وَعِلْمٍ وَحُجَجٍ فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ مِنْ دِينِ اللهِ مَا يَصِيرُ سِلَاحًا تُقَاتِلُ بِهِ هَؤُلَاءِ الشَّيَاطِينَ الَّذِينَ قَالَ إِمَامُهُمْ وَمُقَدَّمُهُمْ لِرَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ [الأعراف: ١٦] الْآيَةَ».

الشرح

عندهم شُبَهٌ ولهم علوم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر: ٨٣]، فلا بُدَّ لطالب العلم أن يتسلَّح بالعلم حتى يُقاتل هؤلاء، ويقابل شبههم، ويدمغها، ويدحضها حتى تزول، ولئلا تنطلي عليه شُبَهُ هؤلاء المشركين.

وإبليس هو مُقدَّم هؤلاء الكُفَّار، فقد كفر ورفض أمر الله عَزَّ وَجَلَّ، وقابل أمر الله بالإباء والاستكبار، فلمَّا تحقَّق كفره وخلوده في النار سأل الله أن يُنْظِرَهُ إلى يوم يبعثون، فأجابه الله، فأخذ إبليس على نفسه ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾ أي: لبني آدم، ﴿ثُمَّ لَـَٔاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ ليَصُدَّهم عن دين الله، ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧].

وقال: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ مما يدل على أن الأقل بقي على الإيمان والتوحيد، وكانوا شاكرين.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَلَكِنْ إِنْ أَقْبَلْتَ عَلَى اللهِ تَعَالَى، وَأَصْغَيْتَ إِلَى حُجَجِ اللَّهِ وَبَيِّنَاتِهِ فَلَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ؛ ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾**».**



هذه بشارة، إذا أقبلتَ على الله وحُجَجِهِ وبيِّناته واستنرت بنور العلم فلا تخفْ من هؤلاء المشركين أعداء الله؛ فإن كيد الشياطين ضعيف، قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ [النساء: ٧٦]، إنما الخوف على الذي يدخل المعركة وليس معه سلاح فهذا إما يُقتل أو يُهْزَم، أما إذا كان معه سلاح فإنه يُدافِع عن نفسه ولا يخاف.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَالْعَامِّيُّ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ يَغْلِبُ الْأَلْفَ مِنْ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصَّافات: ١٧٣]».



الشَّرْحُ

وهذه أيضًا بشارة، فالمُوحِّدُ ولو كان عامِّيًا يغلب ألفًا من علماء المشركين؛ لأنه من جند الله وجند الله هم الغالبون، فببركة توحيده وإيمانه واستقامته يُوفَّق ويغلب هؤلاء المشركين ولو كانوا علماء؛ لأنَّ علمهم فاسد ومنحرف، وليسوا على نور ولا هداية.

۞۞۞

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فَجُنْدُ اللهِ تَعَالَى هُمُ الْغَالِبُونَ بِالْحُجَّةِ وَاللِّسَانِ كَمَا هُمُ الْغَالِبُونَ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، وَإِنَّمَا الْخَوْفُ عَلَى الْمُوَحِّدِ الَّذِي يَسْلُكُ الطَّرِيقَ وَلَيْسَ مَعَهُ سِلَاحٌ».



وهذه أيضًا بشارة، فجند الله هم الغالبون بالحُجَّةِ والبيان؛ كما يغلبون أعداءهم في معركة القتال بالسَّيف والسِّنان.

والسِّلاح هو العلم، ومن دخل المعركة وليس معه سلاح فيُخَاف عليه.

❁❁❁

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا بِكِتَابِهِ الَّذِي جَعَلَهُ ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]».

الشَّرْحُ

لقد مَنَّ الله علينا أعظم مِنَّة حيث أنزل علينا الكتاب الذي جعله ﴿تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]، وبعث لنا هذا الرسول عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤]، فلنتسلَّح أمام الأعداء بنصوص الآيات من كتاب الله تعالى والأحاديثِ من سنة رسول الله ﷺ.





قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَلَا يَأْتِي صَاحِبُ بَاطِلٍ بِحُجَّةٍ إِلَّا وَفِي الْقُرْآنِ مَا يَنْقُضُهَا وَيُبَيِّنُ بُطْلَانَهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣].

قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: «هَذِهِ الآيَةُ عَامَّةٌ فِي كُلِّ حُجَّةٍ يَأْتِي بِهَا أَهْلُ الْبَاطِلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»».

الشرح



وهذه أيضًا بشارة، فلا يأتي مُبطِل بشُبْهَة إلَّا وفي القرآن والسنة ما ينْقُضُهَا إلى يوم القيامة؛ لأن السنة وحي ثانٍ.

ولقد أرشد القرآن إلى العمل بها، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، فالحُجَّةُ في السنة حجة كالقرآن؛ لأن الله تعالى أمر بالأخذ بها.

۞۞۞

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَأَنَا أَذْكُرُ لَكَ أَشْيَاءَ مِمَّا ذَكَر اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ جَوَابًا لِكَلَامٍ احْتَجَّ بِهِ الْمُشْرِكُون فِي زَمَانِنَا عَلَيْنَا.

فَنَقُولُ: جَوَابُ أَهْلِ الْبَاطِلِ مِنْ طَرِيقَيْنِ: مُجْمَلٌ، وَمُفَصَّلٌ.

أَمَّا الْمُجْمَلُ: فَهُوَ الأَمْرُ الْعَظِيمُ وَالْفَائِدَةُ الْكَبِيرَةُ لِمَنْ عَقَلَهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾ [آل عمران: ٧] الْآيَةَ، وَقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ وَيَتْرُكُونَ الْمُحْكَمَ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَاحْذَرُوهُمْ»[1]».

الشَّرْحُ

احتج المشركون في زمن **الإمام** رَحِمَهُ اللَّهُ عليه بكلام، وهو يُرِيد أن يذكر لنا الجواب عليه للفائدة.

وجواب أهل الباطل من طريقين: مجمل ومفصَّل.

أما المجمل فيستطيع كل إنسان ولو كان عامِّيًا ليس عنده علم مفصَّل وكثيرٌ أن يَرُدَّ به علي أيِّ مُشْرِك، لكن لا بُدَّ أن يكون معه شيء من العلم كآية آل عمران، ويعرف الآيات التي أقرَّ بها المشركون بتوحيد الربوبية والآيات التي فيها أن المشركين حينما

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب «﴿مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ﴾»، رقم (٤٥٤٧)، ومسلم، كتاب العلم، رقم (٢٦٦٥) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

دعوا الصالحين قصدوا القُرْبَى والزُّلْفَى والشَّفاعة؛ فيعتمد الجواب على آية آل عمران.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾ [آل عمران: ٧].

يُخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هنَّ أم الكتاب، أي: بيِّنات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، وطريقة أهل الزَّيغ أن يأخذوا المتشابه ويتعلَّقوا به، ويتركوا المحكم الواضح المعنى البيِّن، أما أهل الحقِّ فيأخذون بالمحكم ويردون النصوص المتشابهة إليه، ويُفسِّرُونها به فيتضح المعنى، ويزول الإشكال.



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«مِثَالُ ذَلِكَ: إِذَا قَالَ لَكَ بَعْضُ الْمُشْرِكِين: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس: ٦٢]، أَوْ إِنَّ الشَّفَاعَةَ حَقٌّ، أَوْ إِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ اللهِ، أَوْ ذَكَرَ كَلَامًا لِلنَّبِيِّ ﷺ يَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ بَاطِلِهِ وَأَنْتَ لَا تَفْهَمُ مَعْنَى الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ.

فَجَاوِبْهُ بِقَوْلِكَ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى ذَكَرَ أَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ يَتْرُكُونَ الْمُحْكَمَ وَيَتَّبِعُونَ الْمُتَشَابِهَ.

وَمَا ذَكَرْتُهُ لَكَ مِنْ أَنَّ اللهَ ذَكَرَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يُقِرُّونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَأَنَّهُ كَفَّرَهُمْ بِتَعَلُّقِهِمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَوِ الأَنْبِيَاءِ أَوِ الأَوْلِيَاءِ مَعَ قَوْلِهِمْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وَهَذَا أَمْرٌ مُحْكَمٌ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَ مَعْنَاهُ.

وَمَا ذَكَرْتَهُ لِي أَيُّهَا الْمُشْرِكُ مِنَ الْقُرْآنِ أَوْ كَلَامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا أَعْرِفُ مَعْنَاهُ، وَلَكِنْ أَقْطَعُ أَنَّ كَلَامَ اللهِ لَا يَتَنَاقَضُ، وَأَنَّ كَلَامَ النَّبِيِّ ﷺ لَا يُخَالِفُ كَلَامَ اللهِ ﷻ».

وَهَذَا جَوَابٌ جَيِّدٌ سَدِيدٌ، وَلَكِنْ لَا يَفْهَمُهُ إِلَّا مَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى فَلَا تَسْتَهِنْ بِهِ؛ فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت: ٣٥]».

الشَّرْحُ

إذا جاء أحد من المشركين وقال: «إن الأولياء لهم جاه عند

الله ومنزلة؛ قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]، فأخبر أنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزُّمَر: ٣٤]، وأنا أطلب منهم أن يشفعوا لي عند الله، وينقلوا حوائجي إليه، وأعرف أنهم لا ينفعون ولا يضرون، وهذه الآيات تدل على أنه لا بأس بالتوسل بهم وبدعائهم».

نقول له: عندنا نصوص محكمة واضحة، وهي أن الله تعالى أخبر أن المشركين يُقِرُّون بتوحيد الربوبية، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

وذكر الله ﷻ في كتابه أن شركهم كان بطلب الشفاعة والقُرْبى والجاه، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزُّمَر: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فهذه نصوص محكمة واضحة بيِّنة لا لبس فيها ولا إشكال دلت على أن الكُفَّار كانوا يُقِرُّون بتوحيد الربوبية، وأن شركهم بسبب تعلُّقهم بالصالحين ودعائهم من دون الله، وطلبهم الشفاعة والزُّلفى والقُربى منهم.

أما النصوص التي ذكرتَها فلا أعرف معناها، لكن أجزم بأن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام الرسول ﷺ لا يُنافي كلام الله تعالى، وقد أخبر الله تعالى في كتابه أن الذين في قلوبهم زيغ يتعلَّقون بالمتشابه ويتركون المحكم الواضح، وأن الراسخين في العلم يؤمنون بالجميع.

مثال آخر: إذا قال النصراني: «الآلهة ثلاثة ـ الله، ومريم، وعيسى، أي: الرَّبُّ، والابن، وروح القدس ـ وفي كتابكم دليل على أن الآلهة ثلاثة، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجر: ٩]؛ فـ﴿نَحْنُ﴾ جمع، وهذا دليل على أن الآلهة متعددة، فـ﴿نَحْنُ﴾ هم الله ومريم وعيسى».

نقول له: أنت في قلبك زيغ فتتعلَّق بالمتشابه وتترك المحكم، هناك آيات محكمات، وهي: قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٣﴾ [البَقَرَة: ١٦٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾ [طه: ١٤]، فهذه آيات محكمات وأنا أَرُدُّ المتشابه إليها.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾؛ فـ﴿نَحْنُ﴾ للواحد المُعظِّم نفسه، وهذا معروف في لُغة العرب، فأنا أَرُدُّ الآية التي فيها اشتباه إلى المحكم الواضح المعنى وأُفسِّرها به فيزول الإشكال.

وهذا جواب عظيم، أيُّ شُبهة يأتي بها المُشْرِك يُرِيد أن يُلبِّس بها عليك ويُثبت بها أنه لا بأس بدعاء الصالحين أو الذبح والنذر لهم تُجِيبه بهذا الجواب.

تقول: عندي نصوص واضحة محكمة تدل على كفر من تعلَّق

بغير الله وطلب الشفاعة من غيره، وهي نصوص واضحة ليس فيها إشكال، فلماذا تتعلَّق أنت بالمتشابه وتترك المحكم؟!، هذا دليل على أن في قلبك زيغ، والواجب عليك أن تعمل بالنصوص المحكمة وتُفسِّر بها النصوص التي اشتبهت عليك؛ لتكون من أهل العلم، وأما النصوص التي أتيتَ بها لتُبيِّن بها أن الصالحين لهم جاه فأنا لا أُنكرها، وهي على الرأس والعين، لكني لا أعرف معناها، وأجزم جزمًا قاطعًا بأن النصوص لا تتناقض ولا يُنافي بعضها بعضًا، بل يُوافق بعضها بعضًا، وكلام الله لا يتناقض، وكلام الرسول ﷺ لا يُنافي كلام الله تعالى.

وهذا جواب إجمالي سديد نافع لكل أحد، حتى العاميّ، لكن لا يُوفَّق له كل أحد، فلا يُوفَّق له إلَّا أهل الصبر والبصيرة والحظ العظيم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصّلت: ٣٥]، وسيأتي المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بالجواب التفصيلي.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَأَمَّا الْجَوَابُ الْمُفَصَّلُ: فَإِنَّ أَعْدَاءَ اللهِ لَهُمُ اعْتِرَاضَاتٌ كَثِيرَةٌ عَلَى دِينِ الرُّسُلِ يَصُدُّونَ بِهَا النَّاسَ عَنْهُ.

مِنْهَا: قَوْلُهُمْ: «نَحْنُ لَا نُشْرِكُ باللهِ شَيْئًا، بَلْ نَشْهَدُ أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ وَلَا يَرْزُقُ وَلَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نفعًا وَلَا ضَرًّا، فَضْلًا عَنْ عَبْدِ الْقَادِرِ أَوْ غَيْرِهِ، وَلكِنْ أنَا مُذْنِبٌ وَالصَّالِحُونَ لَهُمْ جَاهٌ عِنْدَ اللهِ، وَأَطْلُبُ مِنَ اللهِ بِهِمْ».

فَجَاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ، وَهُوَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِمَا ذَكَرْتَ لِي أَيُّهَا الْمُبْطِلُ، وَمُقِرُّونَ أَنَّ أَوْثَانَهُمْ لَا تُدَبِّرُ شَيْئًا، وَإِنَّمَا أَرَادُوا مِمَّنْ قَصَدُوا الْجَاهَ وَالشَّفَاعَةَ، وَاقْرَأْ عَلَيْهِ مَا ذَكَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَوَضَّحَهُ».

الشَّرْحُ

هذه الشُّبَهة الأولى، والجواب المفصَّل عنها.

إذا قال لك: «أنا أعترف وأُقِرُّ بأنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر إلَّا الله، واعتقد أن محمدًا ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، وغيره من باب أولى كعبد القادر الجيلاني، أو السيد البدوي، أو الدسوقي، أو نفيسة، أو زينب، أو ابن علوان، أو غيرهم، لكن الصالحين لهم جاه عند الله، وأنا مُذنِب وهم أقرب مني إلى الله فأتوسل بهم، وأطلب من الله عن طريقهم، ويُقرِّبُوني إلى الله، ويشفعوا لي عنده، وينقلون حوائجي إليه».

فقل له: حالك حال المشركين سواء بسواء، فالمشركون الذين قاتلهم الرسول ﷺ وكفَّرهم واستحل دماءهم وأموالهم يعتقدون أنه لا يخلق ولا يرزق ولا ينفع ولا يضر إلَّا الله، وأن أوثانهم لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، وإنما يطلبون منها القُربى والشفاعة فقط.

واقرأ عليه قولَ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقولَ الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فهم يطلبون منهم القُربى والشفاعة إلى الله، ولم يقولوا أنهم يخلقون، أو يرزقون، أو يضرون، أو ينفعون، فحالك كحال المشركين سواء بسواء، فبطلت هذه **الشُّبَهة**.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فَإِنْ قَالَ: «إِنَّ هَؤُلَاءِ الآيَاتِ نَزَلَتْ فِيمَنْ يَعْبُدُ الأَصْنَامَ، كَيْفَ تَجْعَلُونَ الصَّالِحِينَ مِثْلَ الأَصْنَامِ؟!، أَمْ كَيْفَ تَجْعَلُونَ الأَنْبِيَاءَ أَصْنَامًا؟!».

فَجَاوِبْهُ بِمَا تَقَدَّمَ، فَإِنَّهُ إِذَا أَقَرَّ أَنَّ الْكُفَّارَ يَشْهَدُونَ بِالرُّبُوبِيَّةِ كُلِّهَا للهِ، وَأَنَّهُمْ مَا أَرَادُوا مِمَّا قَصَدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ، وَلكِنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ فِعْلِهِمْ وَفِعْلِهِ بِمَا ذَكَرَ فَاذْكُرْ لَهُ أَنَّ الْكُفَّارَ، مِنْهُمْ: مَنْ يَدْعُو الأَصْنَامَ، وَمِنْهُمْ: مَنْ يَدْعُو الأَوْلِيَاءَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، وَيَدْعُونَ عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥- ٧٦] الآيَةَ.

وَاذْكُرْ لَهُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦] الآيَةَ، فَقُلْ لَهُ: «أَعَرَفْتَ أَنَّ اللهَ كَفَّرَ مَنْ قَصَدَ الأَصْنَامَ، وَكَفَّرَ أَيْضًا مَنْ قَصَدَ الصَّالِحِينَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟»».

الشَّرْحُ

هذه الشُّبَهة الثانية، والجواب المفصَّل عنها.

إذا قال لك: «أن هذه الآيات التي هي قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، وقول الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا

يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] إنما هي في عُبَّاد الأصنام اللَّات والعزى والأوثان، وأنا لا أعبد الأصنام والأوثان حتى تجعلني مثلهم، أنا أتوسل بالصالحين وأطلب منهم ولا أتوسل بالأصنام والأوثان، فكيف تجعل الصالحين كالأصنام والأوثان؟!، وكيف تجعلني مثل عُبَّادَ الأصنام والأوثان؟!، فأنا أشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، ولا أعبد ولا أدعو الأصنام ولا الأوثان، وإنما أطلب من الصالحين فقط الزُّلفى لأني مذنب، وأطلب منهم نقل حوائجي إلى الله».

فقل له: إنَّ الكفار في زمن النبي ﷺ كانت عبادتهم متنوعة فليس كلهم يعبدون الأصنام والأوثان فقط، بل **منهم** من يعبدها، **ومنهم** من يعبد الأنبياء والصالحين، **ومنهم** من يعبد الملائكة، وكلهم قصدهم كقصدك، يقصدون التَّقرُّب والتوسل بهم والزُّلْفَى والشفاعة.

واقرأ عليه قول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾ [الإسراء: ٥٧] يعني: هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله يطلبون القُرب من الله ويدعون الله ويخافونه ويرجونه.

واقرأ عليه قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦]، فهذا عيسى نبيٌّ عليه الصلاة والسلام وأُمُّه الصِّدِّيقة ومع ذلك عُبِدَا من دون الله وما هم بأصنام، ولهذا قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾

[المائدة: ٧٥] يعني: كيف يعبدون المسيح ومريم عليهما السلام وهما بشران يحتاجان للطعام؟!؛ فالمعبود لا بُدَّ أن يكون كاملًا لا يحتاج لأحد ولا لشيء، بل هو مستغنٍ، يُوصل النفع إلى عابده، والمسيح وأُمُّه يحتاجان إلى الطعام، وإذا تركا الطعام ماتا فلا يصلحان أن يكونا إلهين، ولا يصلحان للعبادة، وهو دليل على بشريتهما ونقصهما وعدم استحقاقهما للعبادة.

وقد عُبِدت كذلك الملائكة وليست بأصنام ولا أوثان، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

وحكم الرسول ﷺ عليهم بحكم واحد بأن كفَّرهم جميعًا، واستحل دمائهم وأموالهم، واعتبرهم مشركين، وبهذا تبطل **هذه الشُّبَهة** وتزول.

۞ والفرق بين الشُّبهتين:

أن الأولى هي دعوى التوسل بالصالحين لا عبادتهم.

والثانية اعتراض على تعميم أدلة عبادة الأصنام على المتوسِّل.

• **والجواب**: أنَّ الأدلة لم تُفرِّق بين من عبد الملائكة والأنبياء والصالحين وتوسل بهم وبين من عبد الأحجار والأشجار والأصنام، أو توسل بها، فكلها عبادة لغير الله، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

۞۞۞

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَإِنْ قَالَ: «الْكُفَّارُ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُ الْمُدَبِّرُ، لَا أُرِيدُ إِلَّا مِنْهُ، وَالصَّالِحُونَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ، وَلَكِنْ أَقْصُدُهُمْ أَرْجُو مِنَ اللَّهِ شَفَاعَتَهُمْ».

فَالْجَوَابُ: «أَنَّ هَذَا قَوْلُ الْكُفَّارِ سَوَاءً بِسَوَاءٍ، فَاقْرَأْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزُّمَر: ٣]، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يُونس: ١٨]».

وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الشُّبَهَ الثَّلَاثَ هِيَ أَكْبَرُ مَا عِنْدَهُمْ، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ وَضَّحَهَا فِي كِتَابِهِ وَفَهِمْتَهَا فَهْمًا جَيِّدًا فَمَا بَعْدَهَا أَيْسَرُ مِنْهَا».

الشَّرْحُ

هذه **الشُّبَهة الثالثة**، والجواب المفصَّل عنها.

إذا قال لك: «الكفار السابقون يُرِيدون من معبوداتهم النفع والضر، وأنا لا أريد من الصالحين أن ينفعوني أو يضروني، إنما أعتقد أنَّ النافع والضار هو الله، لكني أُرِيد من الصالحين الشفاعة والقُرْبَى فقط؛ فهم أقرب مني إلى الله ولهم جاه ومنزلة عنده فهم ينقلون حوائجي إليه ويُقرِّبُوني منه».

قل له: مقالتك هذه هي مقالة المشركين السابقين سواء بسواء؛ فالكفار السابقون لا يُرِيدون منهم النفع والضر، ولا يعتقدون أنهم

يخلقون أو يرزقون أو يُدبِّرون، والدليل: قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]، فهم يعتقدون أن الله هو الذي يُدبِّر الأمر ويرزق ويُحيي ويُميت، ولكن يطلبون منهم الشفاعة والقُرْبَى، وتقرأ عليه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، والآية الأخرى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣].

يقول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الشُّبَهَ الثَّلَاثَ هِيَ أَكْبَرُ مَا عِنْدَهُمْ، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ وَضَّحَهَا فِي كِتَابِهِ وَفَهِمْتَهَا فَهْمًا جَيِّدًا فَمَا بَعْدَهَا أَيْسَرُ مِنْهَا**».

۞ خلاصة الشُّبَهِ الثلاث:

الأولى: قولهم إنا نُقِرُّ بأن الله ﷻ هو الخالق الرازق المُدبِّر، وبأنَّ الملائكة والأنبياء والصالحين لا ينفعون ولا يضرون، ولأننا مذنبون فنتوسل بجاههم ومكانتهم عند الله ليُقرِّبُونا إليه ويشفعوا لنا عنده.

وجوابها: أنَّ هذا هو طلب المشركين من معبوداتهم كما ذكر الله ذلك عنهم في القرآن.

الثانية: اعتراضهم على تعميم أدلة عُبَّاد الأصنام عليهم، مع أنهم لا يعبدون الأصنام، وإنما يتوسلون بالملائكة والأنبياء والصالحين.

وجوابها: أنَّ الآيات لم تُفرِّق بين من عبد الأصنام وبين من دعا الملائكة والأنبياء والصالحين، فكلها عبادة لغير الله.

الثالثة: قولهم أنَّ عُبَّاد الأصنام رجو من معبوداتهم النفع والضر، أما نحن فلم نطلب إلَّا شفاعتهم لنا عند الله وأن يُقرِّبُونا إليه.

وجوابها: أنَّ مقالتهم هذه هي نفس مقالة المشركين سواء بسواء، والآيات تشهد بذلك.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فَإِنْ قَالَ: «أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللهَ، وَهَذَا الالْتِجَاءُ إِلَيْهِمْ وَدُعَاؤُهُمْ لَيْسَ بِعِبَادَةٍ»، فَقُلْ لَهُ: «أَنْتَ تُقِرُّ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْكَ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ؟»».

الشَّرْح

هذه شُّبَهة.

إذا قال لك: «أنا لا أعبد إلَّا الله، والالتجاء إلى الصالحين ودعاؤهم وطلب الشفاعة منهم ليس عبادة، فأنا لست بمُشْرِك، وإنما هو محبة كما يقول بعضهم: «محبة للصالحين وتوسل وتشفع ليست بعبادة»، أما أنا فأشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وأصلي، وأصوم، وأحج، وأتبرأ من الشِّرك».

فقل له: «إن الله تعالى فرض عليك العبادة، بل فرضها على الثقلين الجنِّ والإنس في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وهو حقُّه عليك، أتعترف بهذا ؟».



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فَإِذَا قَالَ: «نَعَمْ»، فَقُلْ لَهُ: «بَيِّنْ لِي هَذَا الَّذِي فَرَضَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ وَهُوَ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ، وَهُوَ حَقُّهُ عَلَيْكَ»؛ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادَةَ وَلَا أَنْوَاعَهَا، فَبَيِّنْهَا لَهُ بِقَوْلِكَ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف: ٥٥] الْآيَةَ

فَإِذَا أَعْلَمْتَهُ بِهَذَا فَقُلْ لَهُ: «هَلْ هُوَ عِبَادَةٌ للهِ تَعَالَى؟»، فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: «نَعَمْ، وَالدُّعَاءُ مِنَ الْعِبَادَةِ».

فَقُلْ لَهُ: «إِذَا أَقْرَرْتَ أَنَّهَا عِبَادَةٌ، وَدَعَوْتَ اللهَ لَيْلًا وَنَهَارًا خَوْفًا وَطَمَعًا، ثُمَّ دَعَوْتَ فِي تِلْكَ الْحَاجَةِ نَبِيًّا أَوْ غَيْرَهُ، هَلْ أَشْرَكْتَ فِي عِبَادَةِ اللهِ غَيْرَهُ؟»، فَلَا بُدَّ أَنْ يَقُولَ: «نَعَمْ».

فَقُلْ لَهُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ [الكوثر: ٢]»، فَإِذَا أَطَعْتَ اللهَ وَنَحَرْتَ لَهُ هَلْ هَذِهِ عِبَادَةٌ؟»، فَلَا بُدَّ أن يَقُولَ: «نَعَمْ».

فَقُلْ لَهُ: «إِذَا نَحَرْتَ لِمَخْلُوقٍ نَبِيٍّ أَوْ جِنِّيٍّ أَوْ غَيْرِهِمَا هَلْ أَشْرَكْتَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ غَيْرَ اللَّهِ؟»، فَلَا بُدَّ أن يُقِرَّ، ويَقُولَ: «نَعَمْ».

وَقُلْ لَهُ أَيْضًا: «الْمُشْرِكُونَ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ هَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْمَلَائِكَةَ وَالصَّالِحِينَ وَاللَّاتَ وَغَيْرَ ذَلِكَ؟»، فَلَا بُدَّ أن يَقُولَ: «نَعَمْ».

فَقُلْ لَهُ: «وَهَلْ كَانَتْ عِبَادَتُهُمْ إِيَّاهُمْ إِلَّا فِي الدُّعَاءِ وَالذَّبْحِ وَالالْتِجَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ؟، وَإِلَّا فَهُمْ مُقِرُّونَ أَنَّهُمْ عَبِيدُهُ وَتَحْتَ قَهْرِ اللهِ،

وَأَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يُدَبِّرُ الأَمْرَ، وَلكِنْ دَعَوْهُمْ وَالْتَجَؤُوا إِلَيْهِمْ لِلجَاهِ والشَّفَاعَةِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جِدًّا»».

الشَّرْحُ

فيقول: «نعم، الله فرض عليَّ أن أعبده».

فقل له: ما هذه العبادة التي فرضها الله عليك؟، ولا يُوجِب الله تعالى على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ولا يُبيِّن لهم هذه العبادة.

وقل له: بيِّنْ لي هذا الأمر الذي أوجبه الله على العباد؟، فإذا لم يعرف فاقرأ عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البَقَرَة: ١٨٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف: ٥٥]، ﷺ أمر بالدعاء، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠]، فسَمَّى الله تعالى الدعاء عبادة، **فيقول**: «نعم»، ولا بُدَّ أن يعترف.

فقل له: إذا دعوت الله ليلًا ونهارًا خوفًا وطمعًا، ثم بعد ذلك دعوت بعض الأحياء كعبدالقادر، وقلت: «يا عبدالقادر الجيلاني أغثني، وفرج كربتي»، أو «مدد يا سيدي البدوي»، أو «مدد يا دسوقي»، أو «مدد يا سيدة نفيسة»، أو غيرهم فهل صرفت الدعاء لغير الله أم لا؟، **فيقول**: «نعم».

فقل له: لقد وقعت في الشِّرك ولو كنت تدعو الله؛ لأنك دعوت غيره معه.

وقل له: يقول الله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢]

وهذا أمر بأن تُصلِّي لله وتنحر وتذبح له، فإذا ذبحت خروفًا أو عجلًا أو بعيرًا أو دجاجة للرسول ﷺ أو لعبد القادر الجيلاني أو للبدوي أو للحسين أو للنجم أو للقمر وتقرَّبت إليه بذلك فهل وقعت في الشِّرك وخالفت قوله ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: ٢]؟، فلا بُدَّ أن **يقول**: «نعم».

وإذا أنكر أن يكون دعاؤه للصالحين والذبح والنذر لهم عبادة، **فقل له**: «بيِّنْ لي العبادة ؟»، فإذا لم يعرف فاشرح له ذلك.

وقل له: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، فهي كل ما أمر به الشرع أو نهى عنه، وهي فعل الأوامر وترك النواهي تعبُّدًا لله، فالدعاء والذبح والنذر والطواف بالبيت عبادة، وغير ذلك، فالعبادة متنوعة، ومن أعظمها: الدعاء، فإذا صرفتَ شيئًا منها لغير الله وقعت في الشِّرك.

واقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ۝٢١٣﴾ [الشعراء: ٢١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦﴾ [يونس: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر: ١٣-١٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾ [المؤمنون: ١١٧]، والنصوص كثيرة في النهي عن الدعاء لغير الله؛ لأن الدعاء من أعظم العبادات، وأنت أيُّها المُشْرِك لم تعرف العبادة التي خلقك الله لأجلها حيث زعمتَ أنَّ الالتجاء

إلى الصالحين ودعائهم ليس من العبادة، بل هو العبادة؛ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ**»، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝﴾ [غافر: ٦٠]»[1].

ولو جئتَ إلى عُبَّاد القبور **وقلت لهم**: «لا يجوز لكم أن تدعوا غير الله، ولا أن تذبحوا لأصحاب القبور».

يقولون لك: هذا ليست عبادة، نحن لا نعبد إلَّا الله، فنصلي ونصوم لله، ويظنُّون أن الدعاء والذبح ليس بعبادة، إنما العبادة هي الصوم والصلاة فقط، وكونهم يذبحون وينذرون لهم ويدعوهم ويطلبون منهم المدد هذا توسل ومحبة للصالحين وتشفُّع، وأنت لا تحب الصالحين بل تبغضهم، ولا تعرف لهم حرمة ولا قدرًا.

نقول له: نحن نحب الصالحين ونعرف قدرهم، لكن لا نرفعهم فوق منزلتهم، ولا نعبدهم مع الله، وأعظم الخلق الرسول ﷺ ونعرف له حقَّه، ونُطِيعه ونتبعه، ونحبه أكثر من محبتنا لأنفسنا وأهلينا، لكن لا نعبده؛ فالعبادة والطاعة حقُّ الله، والرسول ﷺ حقُّه الطاعة والاتباع والتعظيم والمحبة، والصالحون حقُّهم الموالاة، والدعاء لهم، والاقتداء بأعمالهم الطيبة، لكن لا يُعبدون من دون الله.

وقد أخبر الله تعالى بأن هؤلاء الصالحين الذين تدعونهم من

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب «الدعاء»، رقم (١٤٧٩)، والترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة المؤمن»، رقم (٣٢٤٧) ـ واللفظ له ـ، وابن ماجه، كتاب الدعاء، باب «فضل الدعاء»، رقم (٣٨٢٨)، وأحمد (٤/٢٦٧).

وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».

وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». «المستدرك» (١/٦٦٧).

وقال ابن حجر: «أخرجه أصحاب السنن بسند جيد». «فتح الباري» (١/٤٩).

دون الله هم أنفسهم يدعون الله ويبتغون إليه الوسيلة، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]، يعني: هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله وتعبدونهم هم يطلبون القُرْبَى إلى الله بطاعته ويدعون الله ويخافونه ويرجونه، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥] يعني: كيف يعبدون المسيح ومريم وهما بشران يحتاجان للطعام؟!، لا بُدَّ أن يكون الإله كاملًا لا يحتاج لأحد، بل هو يُوصِل النفع إلى عابده، والمسيح وأُمُّه يحتاجان إلى الطعام، والذي يحتاج إلى الطعام إذا تركه مات، وهذا لا يصح للألوهية والعبادة، فكون عيسى وأُمّه يأكلان الطعام دليل على بشريتهما ونقصهما وعدم استحقاقهما للعبادة.

وإنما الإله المعبود بحقٍّ هو الله تعالى الذي لا يحتاج إلى شيء، فهو قائم بنفسه المُقيم لغيره سبحانه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص: ١-٢]، فهو صمد في نفسه وتصمد إليه الخلائق في حوائجها فلا يحتاج إلى أحد، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فهو القائم بنفسه سبحانه

المُقِيم لغيره، قامت السماوات والأرض بالله، بل قام هذا الكون والخلق كله به سبحانه، وليس له قيام إلَّا بالله ﷻ، فهو مستحق للعبادة بحقٍّ، وغيره لا يستحق العبادة.

والعبادة متنوعة، وهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، تفعل الأوامر وتترك النواهي تعبُّدًا لله، فالدعاء عبادة، والذبح عبادة، والنذر عبادة، والطواف بالبيت عبادة، والتوكل على الله عبادة، والرغبة عبادة، والرهبة عبادة، والخوف عبادة، والرجاء والصدق والمحبة عبادة، والصلاة والزكاة والصوم والحج عبادة، وبرُّ الوالدين عبادة، وصلة الرحم عبادة، والإحسان إلى الناس عبادة، وكذلك ترك المُحَرَّمات تعبُّدًا لله عبادة، فتترك الزنا والسرقة وشرب الخمر والتعامل بالربا وتكفُّ نفسك عن العدوان على الناس في دمائهم وأموالهم وأعراضهم تعبُّدًا لله عبادة، فإذا صرفت شيئًا منها لغير الله وقعتَ في الشِّرك، ومن أعظم العبادة الدعاء؛ بل هو العبادة.

إذًا وضحتْ الشُّبْهَةُ الآن، وهي أنهم يجهلون أو يتجاهلون أنواع العبادات فيصرفون جزءًا كبيرًا منها لغير الله ظانِّين أنها ليست عبادة وأنهم يعبدون الله ولا يشركون به شيئًا، فالله تعالى حقُّه العبادة، والرسول ﷺ حقُّه الطاعة والمحبة والاتباع والتعظيم، والصالحون حقُّهم المولاة والمحبة، والاقتداء بأعمالهم الصالحة، أما العبادة فهي محض حقِّ الله تعالى لا يستحقها أحد غيره ﷻ، فالله هو المعبود بحقٍّ، وكل ما عُبِدَ من دونه فهو الباطل.



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَإِنْ قَالَ: «أَتُنْكِرُ شَفَاعَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَتَبْرَأُ مِنْهَا ؟»».

فَقُلْ: «لَا أُنْكِرُهَا وَلَا أَتَبَرَّأُ مِنْهَا، بَلْ هُوَ ﷺ الشَّافِعُ الْمُشَفَّعُ، وَأَرْجُو شَفَاعَتَهُ».

الشَّرْح

وإيضاح هذه الشُّبَهة أن المُشْرِك **يقول**: «أنتَ أنكرتَ طلب الشفاعة من الأولياء والأنبياء والصالحين، أليس النبي ﷺ هو الشافع والمُشفَّع في المحشر، أَتُنْكِر هذا؟!، فكيف تمنعني أن أطلب الشفاعة من الرسول ﷺ وأقول «يا رسول الله، اشفع لي»؟!، معنى هذا: أنك تُنْكِر أنَّ الرسول ﷺ هو الشافع مع أنه قد جاءت النصوص الصريحة الواضحة بأنه ﷺ هو الشافع المشفَّع في المحشر، قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩]».

فقل له: أنا لا أُنْكِر شفاعته، بل هو الشافع المشفَّع في المحشر، وأرجو من الله شفاعته.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَلَكِنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا للهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزُّمَر: ٤٤]، وَلَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ إِذْنِ اللهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، وَلَا يَشْفَعُ فِي أَحَدٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وَهُوَ لَا يَرْضى إِلَّا التَّوْحِيدَ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عِمرَان: ٨٥]، فَإِذَا كَانَتِ الشَّفَاعَةُ كُلُّهَا لِلَّهِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ إِذْنِهِ، وَلَا يَشْفَعُ النَّبِيُّ ﷺ وَلَا غَيرُهُ فِي أَحَدٍ حَتَّى يَأْذَنَ اللهُ فِيهِ، وَلَا يَأْذَنُ اللهُ تَعَالَى إِلَّا لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ تبَيَّنَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا للهِ، وَأَطْلُبُهَا مِنْهُ سَبْحَانَهُ فَأَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنِي شَفَاعَتَه، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ»، وَأَمْثَالَ هَذَا».

الشَّرْحُ

وقل له: الشفاعة ملك لله ﷻ كما قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزُّمَر: ٤٤]، ولا يشفع النبي ﷺ في أحد يوم القيامة حتى يأذن الله له كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٥]، والشفاعة العظمى هي المقام المحمود يوم القيامة الذي يغبطه عليها الأولون والآخرون، ولا تكون إلَّا بعد أن يأذن الله تعالى له، فإن الناس يصيبهم كرب عظيم في موقف القيامة، وتدنو الشمس من الرؤوس، وتزداد حرارتها، ويموج الناس بعضهم في بعض كما ثبت في الأحاديث الصحيحة.

في «الصحيحين»[١] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِلَحْمٍ فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَشَ مِنْهَا نَهْشَةً، ثُمَّ قَالَ: **«أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟، يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: «أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟، أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟»، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: «عَلَيْكُمْ بِآدَمَ»، فَيَأْتُونَ آدَمَ عليه السلام فَيَقُولُونَ لَهُ: «أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟، أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟»، فَيَقُولُ آدَمُ: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ»، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: «يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟»، فَيَقُولُ: «إِنَّ رَبِّي ﷻ قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ»، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: «يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟»، فَيَقُولُ لَهُمْ: «إِنَّ رَبِّي قَدْ**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب «﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣]»، رقم (٤٧١٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٩٤).

غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى»، فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: «يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟»، فَيَقُولُ: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ»، فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: «يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟»، فَيَقُولُ عِيسَى: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا - نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ»، فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا فَيَقُولُونَ: «يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، وَخَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟» فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: «يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»».

وقوله: «فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ: «يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟»، فَيَقُولُ لَهُمْ: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذِبَاتٍ»»، وهذه الكذبات إنما هي في الحقيقة تورية وليست بصريحة، وكان

يُجَادِل بهنَّ عن دين الله، في «الصحيحين»(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ ﷺ قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ كَذَبَاتٍ، ثِنْتَيْنِ فِي ذَاتِ اللهِ، قَوْلُهُ**: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ ۝﴾ [الصافات: ٨٩] وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وَوَاحِدَةٌ فِي شَأْنِ سَارَةَ، فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ، فَقَالَ لَهَا: «إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ، فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ»»، فانظر إلى ما يعتذر به إبراهيم ﷺ يوم القيامة.

وقوله: «**فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُونَ: «يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟»، فَيَقُولُ: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا**»»، وهذه النفس التي قتلها هي القبطي الذي قتله قبل النبوة، قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥].

وقوله: «**فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: «يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا،**

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب «قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝﴾ [النساء: ١٢٥]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]، وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ۝﴾ [التوبة: ١١٤]»، رقم (٣٣٥٨)، ومسلم، كتاب الفضائل، رقم (٢٣٧١) ـ واللفظ له ـ.

اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ؛ أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟»، فَيَقُولُ عِيسَى: «إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ قَطُّ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ - وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا -»»، في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُ: «إِنِّي عُبِدْتُ مِنْ دُونِ اللهِ»[1].

وقوله: «فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي» فيأتيه الإذن من الله تعالى: «ثُمَّ يُقَالُ: «يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ»» فيُشفِّعه الله في الخلائق والقضاء بينهم، وهذا هو المقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون.

والشاهد: أنه ما شفع أولًا حتى جاءه الإذن من الله تعالى له.

۞ الشفاعة لا تكون إلَّا بشرطين:

الأول: الإذن من الله للشافع.

الثاني: الرضا عن المشفوع له، فلا يأذن الله لأحد أن يُخْرِجَ من النار إلَّا العصاة المُوحِّدين، ولا يرضى الله إلَّا على أهل التوحيد والإخلاص، وأما الكافر فلا يرضى الله عنه، ولا يمكن أن يأذن لأحد أن يشفع فيه، فمن مات على الشِّرك ولم يمت على التوحيد فلا نصيب له في الشفاعة، قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

والذي يملك الشفاعة هو الله تعالى فهي منه وإليه، فاطلبها من الله ولا تطلبها من الرسول ﷺ، قل: «يا رب، شفِّع فيَّ نبيك،

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب «ومن سورة بني إسرائيل»، رقم (٣١٤٨).
قال الترمذي: «هذا حديث حسن».

اللهم لا تحرمني شفاعته».

وطلب الناس الشفاعة من الرسول ﷺ يوم القيامة فذلك لأنه حي ليس بميت، والحي إذا كان قادرًا فلا بأس، كأن تقول لحيٍّ: «اشفع لي عند فلان» فيتوسط لك.

وقد شفع الرسول ﷺ في حياته، فقد شفع في بَرِيرَةَ أن ترجع إلى زوجها مُغيث وكان عبدًا أسودًا، في «صحيح البخاري»(١) عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ «مُغِيثٌ» كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعبَّاس: **«يَا عَبَّاسُ، أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا؟»**، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«لَوْ رَاجَعْتِهِ»**، قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللهِ تَأْمُرُنِي؟»، قَالَ: **«إِنَّمَا أَنَا أَشْفَعُ»**، قَالَتْ: «لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ»، وهذا يدل على أن الإنسان قد يشفع ولا تُقبل شفاعته ولو كان كبيرًا، لكن حصل له الأجر والثواب، فلو عرفتَ فقيرًا وشفعتَ له عند غني ليُعطِيه شيئًا من الصدقة أو الزكاة أو عند أحد من المسئولين ليُعطِيه شيئًا من بيت المال ولم تُقبل شفاعتك فقد حصل لك الأجر؛ في «الصحيحين»(٢) عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ قَالَ: **«اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ»**.

أما بعد الممات فلا تقول: «اشفع لي يا رسول الله»؛ لأنه ﷺ ميت، قال تعالى في حقِّه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزُّمَر: ٣٠].

۞۞۞

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الطلاق، باب «شفاعة النبي ﷺ في زوج بريرة»، رقم (٥٢٨٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب «التحريض على الصدقة والشفاعة فيها»، رقم (١٤٣٢)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، رقم (٢٦٢٧).

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَإِنْ قَالَ: «النَّبِيُّ ﷺ أُعْطِيَ الشَّفَاعَةَ، وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ».

فَالْجَوَابُ: «أَنَّ اللهَ أَعْطَاهُ الشَّفَاعَةَ وَنَهَاكَ عَنْ هَذَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾ [الجن: ١٨]، وَطَلَبُكَ مِنَ اللَّهِ شَفَاعَةَ نَبِيِّهِ ﷺ عِبَادَةٌ، وَاللَّهُ نَهَاكَ أَنْ تُشْرِكَ فِي هَذِهِ الْعِبَادَةِ أَحَدًا، فَإِذَا كُنْتَ تَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُشَفِّعَهُ فِيكَ فَأَطِعْهُ فِي قَوْلِهِ ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾»».

الشَّرْحُ

هذه شُبَهة متفرِّعة عن الشُّبَهة السابقة.

إذا قال: «إن النبي ﷺ أُعطي الشفاعة، وأنا أطلبها ممن أعطاه الله».

يُقال له: نعم، الرسول ﷺ أُعطِي الشفاعة، لكنَّ الله نهاك أن تطلبها من الرسول ﷺ، بل أمرك أن تطلبها من الله.

فإذا قال: «أين الدليل الذي يدل على أن الله نهاني عن أن أطلبها من الرسول ﷺ؟».

يُقال له: قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ۝١٨﴾، وطلب الشفاعة دعاء، والدليل عام.

فإذا قال: «هذا نهي عن الدعاء».

يُقال له: طلب الشفاعة دعاء، فلا يجوز لأحد أن يدعو غير الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]، كل هذا نهي عن دعاء غير الله.

وقد حكم الله على من دعا غيره بالكفر، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧] فسَمَّاهُ كافرًا، وفي الآية أخرى سَمَّاهُ مُشرِكًا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣-١٤].

وقد يشتبه على بعض الناس **ويقول**: «طلب الشفاعة ليس بدعاء»، **نقول له**: لا، بل هو دعاء.

وإذا كنت ترجو أن يُشفِّع الله فيك نَبيَّه ﷺ فأطعْ ربك في أوامره ونواهيه، ومن النواهي التي نهاك عنها: قوله ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن: ١٨] فإن الشفاعة لا تكون إلّا لأهل التوحيد، فإذا دعوتَ غير الله لم تكن منهم فلا يكون لك نصيب من الشفاعة.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَأَيْضًا: فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ أُعْطِيَهَا غَيْرَ النَّبِيِّ ﷺ، فَصَحَّ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ يَشْفَعُونَ، وَالْأَفْرَاط يَشْفَعُونَ، وَالْأَوْلِيَاءَ يَشْفَعُونَ.

أَتَقُولُ: «إِنَّ اللهَ أَعْطَاهُمُ الشَّفَاعَةَ فَأَطْلُبُهَا مِنْهُمْ؟».

فَإِنْ قُلْتَ هَذَا رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَإِنْ قُلْتَ: «لَا»، بَطَلَ قَوْلُكَ «أَعْطَاهُ اللَّهُ الشَّفَاعَةَ، وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّه»».

الشَّرْح

ليست الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ، بل يشاركه فيها غيره، فقد ثبت أن الملائكة والأولياء يشفعون[1]، والأفراط - وهم الأطفال الذين ماتوا دون البلوغ - يشفعون[2]، فهل تقول: «إن هؤلاء أُوتوا الشفاعة فأدعوهم حتى يشفعوا لي؟»، نقول له: «لا يجوز ذلك».

ومن الشفاعة الخاصة بالرسول ﷺ التي لا يُشارِكه فيها أحد:

١- **الشفاعة الأولى لنبينا محمد ﷺ**، وهي أعظم الشفاعات، وهي الشفاعة العظمى في موقف القيامة لإراحة الناس لفصل

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب «قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]»، رقم (٧٤٣٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب «ما قيل في أولاد المسلمين»، رقم (١٣٨١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

القضاء، وهي المقام المحمود الذي ذكره الله عزَّ وجلَّ له ووعده إياه، وهي التي يغبطه عليه الأولون والآخرون، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩].

٢- شفاعته ﷺ في استفتاح باب الجنة، في «صحيح مسلم»[(١)] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ يَشْفَعُ فِي الْجَنَّةِ، وَأَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعًا»**.

٣- شفاعته ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه، وليست لإخراجه من النار، في «الصحيحين»[(٢)] عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِالْمُطَّلِبِ رضي الله عنه قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟»، قَالَ: **«هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»**، أي: أنَّ شفاعته ﷺ في التخفيف عنه، ولا تنفعه في إخراجه من النار، وأما غيره من الكافرين فليس له نصيب من الشفاعة، قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨]، نسأل الله السَّلامة والعافية.

○ قوله **«أَتَقُولُ: «إِنَّ اللهَ أَعْطَاهُم الشَّفَاعَةَ فَأَطْلُبُهَا مِنْهُمْ»، فَإِنْ قُلْتَ هَذَا رَجَعْتَ إِلَى عِبَادَةِ الصَّالِحِينَ الَّتِي ذَكَرَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَإِنْ قُلْتَ: «لَا»، بَطَلَ قَوْلُكَ «أَعْطَاهُ اللهُ الشَّفَاعَةَ، وَأَنَا أَطْلُبُهُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللهُ»»**.

الخلاصة: أنه يقول: إن الشفاعة ليست خاصة بالرسول ﷺ، بل تكون للشهداء والصالحين والأفراط والملائكة.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٩٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب «قصة أبي طالب»، رقم (٣٨٨٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٠٩).

نقول له: «فهل تقول: أنا أُرِيد أن أدعوهم وأطلب منهم الشفاعة لأن الله أعطاهم الشفاعة؟»، فإن قلت ذلك رجعتَ إلى عبادة الصالحين وهي الشِّرك، وإن قلت: «لا»، نقول: فكذلك الرسول ﷺ لا تطلب الشفاعة منه ولا من غيره، بل اطلبها من الله تعالى.



﴿ قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَإِنْ قَالَ: «أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا حَاشَا وَكَلَّا، وَلكِنَّ الالْتِجَاءَ إِلَى الصَّالِحِينَ لَيْسَ بِشِرْكٍ».

فَقُلْ لَهُ: «إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ اللهَ حَرَّمَ الشِّرْكَ أَعْظَمَ مَنْ تَحْرِيمِ الزِّنا، وَتُقِرُّ أَنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُهُ، فَمَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي عَظَّمَهُ اللهُ وَذَكَرَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ؟»؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي.

فَقُلْ لَهُ: «كَيْفَ تُبَرِّئُ نَفْسَكَ مِنَ الشِّرْكِ وَأَنْتَ لَا تَعْرِفُهُ؟!، كَيْفَ يُحَرِّمُ اللهُ عَلَيْكَ هَذَا وَيَذْكُرُ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُهُ وَلَا تَسْأَلُ عَنْهُ وَلَا تَعْرِفُهُ؟!، أَتَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحَرِّمُهُ وَلَا يُبَيِّنُهُ لَنَا؟!»».

الشَّرْحُ

هذه شُبهة أخرى.

يقول: «أنا لا أشرك بالله شيئًا حاشا وكلَّا، لكن الالتجاء إلى الصالحين ليس بشرك، فكوني أدعوهم وأطلبهم ليس بشرك».

يُقال له: ما هو الشِّرك؟، وهل تعرفه؟، ألَّا تُقِرُّ أن الله تبارك وتعالى حَرَّمَ الشِّرك؟، **فيقول:** «بلى».

يُقال له: إن الله حَرَّمَ الشِّرك أعظم من تحريمه الزنا والسرقة وشرب الخمر وقتل النفوس، أليس كذلك؟، وصاحب الشِّرك لا يُغفر له فهو مُخَلَّدٌ في النار إذا مات على ذلك، وهو يُحْبِط الأعمال، ويُخْرِج من مِلَّةِ الإسلام، فما هو هذا الشيء العظيم الذي

لا شيء أعظم منه ولا أكبر منه من الذنوب؟، هل تظن أن الله يُحَرِّمَ علينا هذا الأمر العظيم ولا يُوضِّحه لنا في كتابه؟!، هذا لا يمكن، بل لا بُدَّ أن يكون بيانه أعظم من بيان كل شيء؛ لأنه أخطر أمر وأعظم مصيبة تنزل بالإنسان، فكيف لا يُبيِّنه الله لنا؟!، وهذا جواب عظيم.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَإِنْ قَالَ: «الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ، وَنَحْنُ لَا نَعْبُدُ الأَصْنَامَ».

فَقُلْ لَهُ: «مَا مَعْنَى عِبَادَةِ الأَصْنَامِ؟، أَتَظُنُّ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ تِلْكَ الأَحْجَارَ وَالأَخْشَابَ تَخْلُقُ وَتَرْزُقُ وَتُدَبِّرُ أَمْرَ مَنْ دَعَاهَا؟!، فَهَذَا يُكَذِّبُهُ القُرْآنُ»».

الشَّرْحُ

يقول: «الشِّرك عبادة الأصنام».

يُقال له: ما هي عبادة الأصنام؟، هل معناها الاعتقاد بأنها تخلق وترزق وتنفع وتضر؟، هذا يُكذِّبه القرآن والواقع؛ فإن المشركين يعبدون الأصنام ولا يعتقدون أنها تخلق وترزق وتنفع وتضر».

واقرأ عليه هذه الآيات، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [يونس: ٣١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ

﴿تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

إذًا فهم يعترفون بأن الله هو الخالق الرازق المُدبِّر، ربُّ السماوات والأرض وربُّ العرش العظيم، بيده ملكوت كل شيء، خالق الناس والخلق جميعًا ومع ذلك هم مشركون، فدل على أنهم يعتقدون أن الأصنام لا تخلق ولا ترزق ولا تنفع ولا تضر، إنما شركهم في دعائهم إيَّاها من دون الله وصرف أنواع العبادة لها.

وتوضَّح له أن معنى عبادة الأصنام هو دعاؤها من دون الله، أو الذبح أو النذر لها، أو صرف أيِّ نوع من أنواع العبادة لها، فإذا صرفتَ الدعاء أو الذبح أو الركوع أو السجود أو غير ذلك من أنواع العبادة لغير الله وقعتَ في الشِّرك.



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَإِنْ قَالَ: «هُوَ مَنْ قَصَدَ خَشَبَةً أَوْ حَجَرًا أَوْ بِنْيَةً عَلَى قَبْرٍ أَوْ غَيْرِهِ يَدْعُونَ ذَلِكَ وَيَذْبَحُونَ لَهُ، يَقُولُونَ: «إِنَّهُ يُقَرِّبُنَا إِلَى اللهِ زُلْفَى، وَيَدْفَعُ عَنَّا اللهُ بِبَرَكَتِهِ، وَيُعْطِينَا بِبَرَكَتِهِ».

فَقُلْ: «صَدَقْتَ، وَهَذَا هُوَ فِعْلُكُمْ عِنْدَ الْأَحْجَارِ وَالْأَبْنِيَةِ الَّتِي عَلَى الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا».

فَهَذَا أَقَرَّ أَنَّ فِعْلَهُمْ هَذَا هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ، وَهُوَ الْمَطْلُوبُ»».

الشَّرْحُ

اعترف هنا.

قال: «الشِّرك هو من قصد حجرًا أو شجرًا أو خشبة أو بِنْيَةً يدعوها أو يذبح أو ينذر لها، أو يطلب البركة بها أو منها».

فقل له: صدقتَ، هذا هو فعلكم عند القبور، أنتم تفعلون هذا عند قبور الصالحين والأولياء فتذبحون لهم وتدعونهم، ترجون بهم أوْ منهم البركة، وأن يدفع الله بهم عنكم المصائب، وهذا هو الشِّرك بعينه، وبهذا فقد أقررتَ أن عبادة الأصنام هو دعاؤها من دون الله والذبح لها، وهذا هو المطلوب.

والواجب إخلاص الدين لله، قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزُّمَر: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البَيِّنَة: ٥]، و﴿ٱلدِّينَ﴾ معناه: العبادة، فيُطلق على العبادة وعلى الجزاء والحساب، مثل قوله تعالى: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفَاتِحَة: ٤] أي: مالك يوم الجزاء والحساب.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَأَيْضًا قَوْلُكَ «الشِّرْكُ عِبَادَةُ الأَصْنَامِ» هَلْ مُرَادُكَ أَنَّ الشِّرْكَ مَخْصُوصٌ بِهَذَا، وَأَنَّ الاعْتِمَادَ عَلَى الصَّالِحِينَ وَدعُاءَهُمْ لَا يَدْخُلُ فِي ذَلِكَ؟».

فَهَذَا يَرُدُّهُ مَا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ مِنْ كُفْرِ مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ أَوْ عِيسَى أَوِ الصَّالِحِينَ، فَلَا بُدَّ أَنْ يُقِرَّ لَكَ أَنَّ مَنْ أَشْرَكَ فِي عِبَادَةِ اللهِ أَحَدًا مِنَ الصَّالِحِينَ فَهُوَ الشِّرْكُ الْمَذْكُورُ فِي الْقُرْآنِ، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ».

الشَّرْح

يُقال له في شرك عبادة الأصنام: «هل المقصود بأن الشِّرك خاص بعبادة الأصنام، وأن عبادة غير هذه الأصنام لا يكون شركًا؟».

فإن هذا كان مرادك فهذا يُكذِّبه القرآن والواقع، فالواقع أن الكفار في زمن النبي ﷺ عبادتهم متنوعة.

منهم: من يعبد الأصنام كاللَّات والعُزى.

ومنهم: من يعبد الأشجار والأحجار.

ومنهم: من يعبد الشمس والقمر.

ومنهم: من يعبد الملائكة والمسيح وعزير، وكلهم سَمَّاهم الله كُفَّارًا، وكَفَّرهم النبي ﷺ، واستحل دماءهم وأموالهم، فليس الشِّرك

خاصًا بعبادة الأصنام، بل كل من دعا غير الله أو ذبح لغيره سواء كان صنمًا أو غير صنم، جنيًّا أو قبرًا أو مَلَكًا، أو صرف أي نوع من أنواع العبادة لغير الله فهو مُشرك، ويكون هذا الشيء الذي صرفتَ له العبادة معبودًا من دون الله.



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَسِرُّ الْمَسْأَلَةِ: أَنَّهُ إِذَا قَالَ: «أَنَا لَا أُشْرِكُ بِاللهِ»، فَقُلْ لَهُ: «وَمَا الشِّرْكُ بِاللهِ؟، فَسِّرْهُ لِي».

فَإِنْ قَالَ: «هُوَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ»، فَقُلْ لَهُ: «وَمَا عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ؟، فَسِّرْهَا لِي».

فَإِنْ قَالَ: «أَنَا لَا أَعْبُدُ إِلَّا اللهَ»، فَقُلْ لَهُ: «مَا مَعْنَى عِبَادَةِ اللهِ؟، فَسِّرْهَا لِي»».

الشَّرْحُ

هذا القائل عنده حيدة عن الجواب.

إذا قال: «أنا لا أشرك بالله»، **فقل له:** «ما الشِّرك بالله؟، فسِّرِ الشِّرك».

فإذا قال: «الشِّرك عبادة الأصنام»، **فقل له:** «ما هي عبادة الأصنام؟».

فإذا قال: «أنا لا أعبد إلَّا الله»، **قل له:** «ما هي عبادة الله؟» - تدرَّج معه - «فسرها لي؟»؛ فهو يحيد عن الجواب وينتقل منه إلى آخر؛ لأنه لا يعلم، ويُريد أن يجعل دعاء الأولياء والصالحين ليس بشرك، ويخص الشِّرك بدعاء الأصنام والأحجار والأوثان.



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَإِنْ فَسَّرَهَا بِمَا بَيَّنَهُ اللهُ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ الْمَطْلُوبُ، وَإِنْ لَمْ يَعْرِفْهُ فَكَيْفَ يَدَّعِي شَيْئًا وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ؟!».



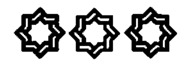
يعني: إذا فَسَّرَ العبادة كما ذكر الله فهو المطلوب، وإذا لم يُفسِّرها **نقول له**: «كيف تُبرِّئ نفسك من شيء وأنت لا تعرفه؟!».

وتشرح له أن العبادة كل ما أمر الله أو رسوله ﷺ به، أو نهى الله أو رسوله ﷺ عنه، وهي فعل الأوامر وترك النواهي طاعة لله وتعظيمًا وإجلالًا وخشية له، وإذا صرفتَ شيئًا من هذه العبادات لغير الله فقد أشركتَ.

۞۞۞

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَإِنْ فَسَّرَهُ بِغَيْرِ مَعْنَاهُ بَيَّنْتَ لَهُ الآيَاتِ الْوَاضِحَاتِ فِي مَعْنَى الشِّرْكِ بِاللهِ وَعِبَادَةِ الأَوْثَانِ أَنَّهُ الَّذِي يَفْعَلُونَه فِي هَذَا الزَّمَانِ بِعَيْنِهِ».



وإن فَسَّرَه بغير معناه الصحيح بَيَّنتَ له الآيات الواضحات في معنى الشِّرك بالله وعبادة الأوثان، وأنه هو الذي يفعلونه في هذا الزمان بعينه.

✿✿✿

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَأَنَّ عِبَادَةَ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ هِيَ الَّتِي يُنْكِرُونَ عَلَيْنَا، وَيَصِيحُونَ مِنْهُ كَمَا صَاحَ إِخْوَانُهُمْ حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]».

الشَّرْح

إخلاص الدين لله وعبادته هي التي أنكرها أهل الشِّرك على **الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب** رَحِمَهُ اللهُ، فهم يُرِيدون أن يتبركوا بالصالحين ويدعونهم من دون الله، ويذبحوا وينذروا لهم، فلمَّا أمرهم **الشيخ** رَحِمَهُ اللهُ بإخلاص العبادة لله ونهاهم عن دعاء غير الله أنكروا عليه وصاحوا كما صاح إخوانهم من قبل، كفار قريش ومشركو مكة.

والمعنى: هؤلاء المشركين صاحوا على **الشيخ محمد بن عبدالوهاب** رَحِمَهُ اللهُ كما صاح إخوانهم السابقون مشركو قريش على النبي ﷺ وأنكروا عليه أن تكون العبادة لله وحده، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَإِنْ قَالَ: «إِنَّهُمْ لَمْ يَكْفُرُوا بِدُعَاءِ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّمَا كَفَرُوا لَمَّا قَالُوا «الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ»، وَنَحْنُ لَمْ نَقُلْ إِنَّ عَبْدَ الْقَادِرِ وَلَا غَيْرَهُ ابنُ اللهِ».

فَالْجَوَابُ: «أَنَّ نِسْبَةَ الْوَلَدِ إِلَى اللهِ تَعَالَى كُفْرٌ مُسْتَقِلٌّ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص: ١-٢]، وَالْأَحَدُ: الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، وَالصَّمَدُ: الْمَقْصُودُ فِي الْحَوَائِجِ، فَمَنْ جَحَدَ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ وَلَوْ لَمْ يَجْحَدْ آخِرَ السُّورَةِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص: ٣] فَمَنْ جَحَدَ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ وَلَوْ لَمْ يَجْحَدْ أَوَّلَ السُّورَةِ، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] الْآيَةَ فَفَرَّقَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ، وَجَعَلَ كُلًّا مِنْهُمَا كُفْرًا مُسْتَقِلًّا، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام: ١٠٠] الْآيَةَ فَفَرَّقَ بَيْنَ الْكُفْرَيْنِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَيْضًا: أَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِدُعَاءِ اللَّاتِ مَعَ كَوْنِهِ رَجُلًا صَالِحًا لَمْ يَجْعَلُوهُ ابْنَ اللهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعِبَادَةِ الْجِنِّ لَمْ يَجْعَلُوهُمْ كَذَلِكَ.

وَكَذَلِكَ الْعُلَمَاءُ أَيْضًا وَجَمِيعُ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ يَذْكُرُونَ فِي «بَابِ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ» أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا زَعَمَ أَنَّ للهِ وَلَدًا فَهُوَ مُرْتَدٌّ، وَإِنْ أَشْرَكَ بِاللهِ فَهُوَ مُرْتَدٌّ، فَيُفَرِّقُونَ بَيْنَ النَّوْعَيْنِ، وَهَذَا فِي غَايَةِ الْوُضُوحِ».

الشَّرْحُ

إذا قالوا: «إنهم إنما كفروا باعتقادهم أن الملائكة بنات الله».

فقل له: هذا كفر مستقل، مَنْ نسب البنوة إلى الله فقد كفر كفرًا مستقلًا، بخلاف دعاء الصالحين وعبادتهم من دون الله فهذا كفر آخر، ومَنْ نسب الولد إلى الله فقد كفر كفرًا مستقلًا، هذا كفر وهذا كفر، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٥٥ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ۝١٥٦ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝١٥٧﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۝٨٨﴾ [مريم: ٨٨] وبَيَّنَ أن هذا أمر عظيم، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩﴾ [مريم: ٨٩]، قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٠-٩٣]، فكل من في السماوات والأرض سيأتي يوم القيامة عبدًا مُذلَّلًا مقهورًا لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فليس لله ولد ـ تعالى الله عما يقولون عُلُوًّا كبيرًا ـ، فَمَنْ نسب إلى الله الولد أو قال: «الملائكة بنات الله» فقد كفر، ومن دعا الصالحين أو ذبح أو نذر لهم فقد كفر، وهذا كفر وهذا كفر، فالكفر أنواع وليس نوعًا واحدًا، نسأل الله السَّلامة والعافية.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَإِنْ قَالَ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس: ٦٢].

فَقُلْ: «هَذَا هُوَ الْحَقُّ، وَلَكِنْ لَا يُعْبَدُونَ، وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ إِلَّا عِبَادَتَهُمْ مَعَ اللهِ، وَإِشْرَاكَهُمْ مَعَهُ، وَإِلَّا فَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ حُبُّهُمْ، وَاتِّبَاعُهُمْ، وَالْإِقْرَارُ بِكَرَامَاتِهِمْ، وَلَا يَجْحَدُ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ إِلَّا أَهْلُ الْبِدَعِ وَالضَّلَالَاتِ، وَدِينُ اللهِ وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، وَهُدًى بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ، وَحَقٌّ بَيْنَ بَاطِلَيْنِ».

الشرح

فأولياء الله هم المؤمنون المتقون، وحبهم وموالاتهم من الدين، ومحبة رسول الله ﷺ ومحبة أولياء الله تابعة لمحبة الله.

فالواجب على المسلم موالاة أولياء الله ومعاداة أعداء الله، فالمؤمن يوافق ربه؛ يوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه.

والحب في الله والبغض في الله من أوثق عرى الإيمان، كما قال الطحاوي: «ومحبتهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»[1].

۞۞۞

---

(١) «العقيدة الطحاوية» (ص ٥٣).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ هَذَا الَّذِي يُسَمِّيهُ الْمُشْرِكُونَ فِي زَمَنِنَا «الاعْتِقَادَ» هُوَ الشِّرْكُ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ وَقَاتَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ عَلَيْهِ فَاعْلَمْ أَنَّ شِرْكَ الْأَوَّلِينَ أَخَفُّ مِنْ شِرْكِ أَهْلِ وَقْتِنَا بِأَمْرَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّ الْأَوَّلِينَ لَا يُشْرِكُونَ، وَلَا يَدْعُونَ الْمَلَائِكَةَ أَوِ الْأَوْلِيَاءَ أَوْ الأَوْثَانَ مَعَ اللهِ إِلَّا فِي الرَّخَاءِ، وَأَمَّا فِي الشِّدَّةِ فَيُخْلِصُونَ الدِّينَ للهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]».

الشرح

العبرة بالحقائق والمعاني وإن اختلفت تسمية ما يُدعَى من دون الله في الزمن القديم والمعاصر، حيث يُسمَّى في زمن **الشيخ محمد ابن عبدالوهاب** رَحِمَهُ اللهُ بـ«الاعتقاد» أو «السيد»؛ لأنه يُقصد بالدعاء من دون الله فيعتقدون فيه أنه يشفع لهم أو يقربهم إلى الله، وهذا هو الشِّرك بعينه.

وشرك الأولين أخف من شرك المتأخرين بأمرين:

الأمر الأول: أن الأولين إنما يشركون في وقت الرخاء والسِّعة، فإذا كانوا في البرية وليس عندهم شدة أشركوا ودعوا آلهتهم، فإذا أصابتهم شدة وكربة كما إذا ركب أحدهم البحر

وتلاطمت به الأمواج أخلص العبادة لله ونسي معبوداته، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ﴾ يعني: العبادة ﴿نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وزالت الشدة ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يعني: زالت المعبودات ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وهذا يدل على صحة عقلهم وخفة شركهم.

أما المشركون المتأخرون فيُشرِكون في الرَّخاء والشدة ولا يُبالون، بل إن بعضهم يزداد لهجًا بمعبوده وتعلُّقًا به إذا نزلت به الشدة، فإذا تلاطمت به الأمواج قال: «يا علي، يا علي، يا علي»، أو «يا حسين، يا حسين»، أو «يا عبد القادر، يا عبدالقادر»، أو «مدد مدد يا بدوي»، أو «يا نفيسة»، وهكذا.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الأنعام: ٤٠- ٤١]».



الشَّرْح

هذا حال المشركين الأوَّلين في الشِّدَّة، إِنْ أتاهم عذاب الله أو أتتهم الساعة لا يدعون إلَّا الله، وتكون عبادتهم لغير الله في حال الرخاء، أما في حال الشِّدَّة فيُخلِصُون العبادة لله.

۞۞۞

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزُّمَر: ٨] الْآيَةَ».

الشَّرْحُ

في قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزُّمَر: ٨] بيان أن الإنسان إذا مسَّهُ الضر أخلص العبادة والدعاء لله، فإذا كان في حال السِّعة أشرك بالله وجعل لله أندادًا ليضل عن سبيله، فقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ فجعله الله من أصحاب النار؛ لأنه يدعو غير الله في حال الرخاء.

إذا كان الذي يدعو الله في حال الشِّدَّة ويُخلص له الدعاء يكون مُشركًا وقال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾ فكيف بالذي يُشرك بالله في حال الشِّدَّة والرخاء؟!، فيكون أعظم شركًا وأشد.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ [لقمان: ٣٢] الْآيَةَ».

الشَّرْحُ

يتأكد من النص «ذكر الله تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج كالظلل فوقهم بأنهم يُخْلِصُون الدعاء لله والعبادة له، ثم قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّنْهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ وانقسموا فريقين: ﴿فَمِنْهُم﴾ فريق ﴿مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: لم يقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم، وفريق كافر بنعمة الله جاحد لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ أي: غدار، ومن غدره: أنه عاهد ربه لئن أنجيتنا من البحر وشدته لنكونن من الشاكرين، فغدر هذا الفريق ولم يفِ بذلك، وهو ومع ذلك ﴿كَفُورٍ ۝٣٢﴾ [لقمان: ٣٢] بنعم الله، فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشِّدَّة إلَّا القيام التام بشكر نعم الله؟!»[1].

والآيات في هذا كثيرة تُبيِّن أن المشركين الأولين يُخلِصُون العبادة والدعاء لله في حال الشدائد والمصائب والنكبات والملمات، وفي حال الرخاء يُشركون به سبحانه.

۞۞۞

(١) «تفسير السعدي» (ص ٦٥٢).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَمَنْ فَهِمَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ الَّتِي وَضَّحَهَا اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَهِيَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُونَ اللهَ وَيَدْعُونَ غَيْرَهُ فِي الرَّخَاءِ، وَأَمَّا فِي الشِّدَّةِ فَلَا يَدْعُونَ إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ وَيَنْسَوْنَ سَادَاتِهِمْ تَبَيَّنَ لَهُ الْفَرْقُ بَيْنَ شِرْكِ أَهْلِ زَمَانِنَا وَشِرْكِ الْأَوَّلِينَ، وَلَكِنْ أَيْنَ مَنْ يَفْهَمُ قَلْبُهُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فَهْمًا رَاسِخًا؟، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ».



تُبيِّنُ له الفرق في الغلظة والخِفَّة، وأن شرك الأولين أخف وشرك المتأخرين أغلظ وأشد وإن كان كل منهم مشرك، لكن الشِّرك يتفاوت، فبعضه أغلظ من بعض.

۞۞۞

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَالْأَمْرُ الثَّانِي: أَنَّ الْأَوَّلِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ أُنَاسًا مُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللهِ إِمَّا نَبِيًّا، وإِمَّا وَلِيًّا، وَإِمَّا مَلَائِكَةً، أَوْ يَدْعُونَ أَحْجَارًا وَأَشْجَارًا مُطِيعَةً للهِ تَعَالَى لَيْسَتْ بِعَاصِيَةٍ، وَأَهْلُ زَمَانِنَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ أُنَاسًا مِنْ أَفْسَقِ النَّاسِ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَحْكُونَ عَنْهُمُ الْفُجُورَ مِنَ الزِّنَا، وَالسَّرِقَةِ، وَتَرْكِ الصَّلَاةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالَّذِي يَعْتَقِدُ فِي الصَّالِحِ وَالَّذِي لَا يَعْصِي - مِثْلِ الْخَشَبِ وَالْحَجَرِ - أَهْوَنُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ فِيمَنْ يُشَاهَدُ فِسْقُهُ وَفَسَادُهُ وَيُشْهَدُ بِهِ».

الشرح

الأمر الثاني: أن المشركين السابقين إنما يدعون الأنبياء أو الملائكة أو الأولياء أو الصالحين، أو يدعون جمادات لا تُشرك بالله شيئًا فيدعون حجرًا أو شجرًا، فهم إما يدعون صالحين أو أنبياء، أو أحجارًا أو أشجارًا ليس عليها ذنوب، وأما المشركون المتأخرون فصاروا يعبدون كُفَّارًا وفُسَّاقًا وفُجَّارًا معروف عنهم الجرائم، فيدعو المجرمين المعروف عنهم في حياتهم الإجرام أو الزنا أو السرقة أو شرب الخمر أو الكفر أو الفسوق فزادوا عليهم.

وإن كان كل منهم مُشرِكًا لكن من يدعو نبيًّا أو وليًّا أو حجرًا أخف شركًا ممن يدعو كافرًا أو فاسقًا، فتبيَّن بهذا أن شرك المتأخرين أغلظ من شرك المُتقدِّمين، فصار بذلك أهل الشرك الأوائل أصح عقولًا وأخف شركًا من المتأخرين.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إِذَا تَحَقَّقْتَ أَنَّ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَصَحُّ عُقُولًا وَأَخَفُّ شِرْكًا مِنْ هَؤُلَاءِ فَاعْلَمْ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ شُبْهَةً يُورِدُونَهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ شُبَهِهِمْ، فَاصْغِ سَمْعَكَ لِجَوَابِهَا.

وَهِيَ: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: «إِنَّ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيُكَذِّبُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَيُنْكِرُونَ الْبَعْثَ، وَيُكَذِّبُونَ الْقُرْآنَ، وَيَجْعَلُونَهُ سِحْرًا، وَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَنُصَدِّقُ الْقُرْآنَ، ونُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ، وَنُصَلِّي، وَنَصُومُ، فَكَيْفَ تَجْعَلُونَنَا مِثْلَ أولئِكَ؟!».

الشَّرْحُ

هذه الشُّبَهة كما قال **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ من أقوى شُبَهِهِمْ، فأصغِ لها سمعك وانتبه.

خلاصة هذه الشُّبَهة: أن المشركين كانوا في زمن النبي ﷺ يُنْكِرون الوحدانية، ولا يشهدون أن لا إله إلَّا الله، ويُنْكِرون أن محمدًا رسول الله ﷺ، ويُنْكِرون البعث، ويُكذِّبون بالقرآن، ويقولون سحرًا، ولا يصلُّون، ولا يصومون، ولا يتصدَّقُون، ونحن نخالفهم في هذا كله، فنحن نشهد أنه لا إله إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، ونصلي، ونصوم، ونحج، ونؤمن بالبعث، ونُصدِّق بالقرآن، لكننا نتوسل بالصالحين فنطلب من الله بهم فقط، فكيف تجعلوننا مثل أولئك؟!



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّهِمْ أنَّ الرَّجُلَ إِذَا صَدَّقَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي شَيْءٍ وَكَذَّبهُ فِي شَيْءٍ أَنَّهُ كَافِرٌ لَمْ يَدْخُلْ فِي الْإِسْلَامِ، وَكَذَلِكَ إِذَا آمَنَ بِبَعْضِ الْقُرْآنِ وَجَحَدَ بَعْضَهُ كَمَنْ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ، أَوْ أقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ وَالصَّلَاةِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الزَّكَاةِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّوْمِ، أَوْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ وُجُوبَ الْحَجِّ، وَلَمَّا لَمْ يَنْقَدْ أنَاسٌ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِلحَجِّ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٧]».

الشَّرْح

الجواب الأول: أجمع العلماء على أن الإنسان إذا فعل ناقضًا واحدًا من نواقض الإسلام فإنه يكفر، ويبطل توحيده وإيمانه، ويخرج من المِلَّةِ، ولو كان يصلي أو يصوم أو يحج، ولو كان يشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، ولو كان يؤمن بالبعث.

مثال ذلك: ما ذكره **المؤلف** رَحِمَهُ اللهُ لو كان هناك مسلم يشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، ويصلي، ويصوم، ويحج، ويؤمن بالبعث، ثم أنكر وجوب الصلاة، وقال: «ليست الصلاة واجبة» حتى ولو صَلَّى، أو أعتقد أنه إن شاء صَلَّى وإن شاء لم يُصلِّ وأنه بالخيار كفر؛ لأنه أنكر أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة.

ولو قال: «ليست الزكاة واجبة» فهذا كافر **بإجماع المسلمين**،

أو قال: «ليس الصوم واجبًا»، أو قال: «ليس الحج واجبًا»، أو قال: «الزنا مباح وليس بحرام، لكني لا أزني»، أو قال: «يجوز للإنسان أن يزني أو يترك الزنا»، أو قال: «الربا حلال ليس بحرام، ويجوز للإنسان أن يفعل الربا، ويجوز أن يتركه»، أو قال: «عقوق الوالدين حلال»، أو قال: «قطيعة الرحم حلال» أو غير ذلك كفر بشرط أن يكون هذا الشيء الذي أنكره يكون معلومًا من الدين بالضرورة.

○ وقوله: «**ولمَّا لم يَنْقَدْ أناس فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ لِلحَجِّ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِمْ**» هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ﴾ يعني: بترك الحج ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٧].

لكن إذا كان في المسألة خلاف فلا يكفر؛ لأن له شُبْهَة.

مثال ذلك: وجوب الوضوء من أكل لحم الإبل، فهذا مختلف فيه[(١)] قال بعض العلماء: يجب الوضوء منه، وهو **الصواب**؛ في «صحيح مسلم»[(٢)] عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ «أَأَتَوَضَّأُ مِنْ لُحُومِ الْغَنَمِ؟»، قَالَ: «**إِنْ شِئْتَ فَتَوَضَّأْ، وَإِنْ شِئْتَ فَلَا تَوَضَّأْ**»، قَالَ: «أَتَوَضَّأُ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ؟»، قَالَ: «**نَعَمْ، فَتَوَضَّأْ مِنْ لُحُومِ الْإِبِلِ**»، **وقال بعضهم**: لا يجب الوضوء منه، ولا يكفر من أخذ بالقول الثاني.

وكذا من قال: «الدخان ليس بحرام» لا يكفر؛ لكونه ليس أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة؛ فهذا له فيه شُبْهَة، وإن كان **الصواب** أن

---

(١) انظر: «المغني» لابن قدامة (١/ ١٢١).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الحيض، رقم (٣٦٠).

الدخان حرام.

فإذا أنكر أمرًا من الدين معلومًا بالضرورة وجوبه، فقال : «ليس بواجب» كفر، أو أنكر أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة تحريمه، فقال: «هو حلال» كفر.

ويقال له: «إذا كنتَ تُقِرُّ أن الإنسان إذا أنكر أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة وجوبه أو تحريمه كفر، فكيف لا يكفر إذا أنكر التوحيد؟!»؛ إذا أنكر فرعًا من فروع الإسلام مجمع على وجوبه أو تحريمه كفر فكيف لا يكفر إذا أنكر التوحيد الذي أنزل الله به الكُتُب وأرسل به الرُّسُل؟!.

أنتم أنكرتم التوحيد الذي هو إخلاص الدين لله، وأنتم لا تخلصون الدين لله وإنما تدعون غيره، فكيف تُقِرُّون أن الإنسان إذا أنكر وجوب الصلاة أو الزكاة أو الصوم أو الحج كفر، أو أنكر تحريم الزنا أو الربا أو الخمر كفر وإذا أنكر وجوب التوحيد لا يكفر؟!.

سبحان الله؛ أيهما أعظم؟!، وجوب التوحيد أو وجوب الزكاة أو الحج ؟!، فإذا كان الذي يُنْكِر فرعًا من فروع الدين يكفر فالذي يُنْكِر أصل الدين وأساس المِلَّةِ من باب أولى أن يكون كافرًا.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَمَنْ أَقَرَّ بِهَذَا كُلِّهِ وَجَحَدَ الْبَعْثَ كَفَرَ بِالْإِجْمَاعِ، وَحَلَّ دَمُهُ وَمَالُهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ الْآيَةَ، فَإِذَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ صَرَّحَ فِي كِتَابِهِ أَنَّ مَنْ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ فَهُوَ كَافِرٌ حَقًّا زَالَتْ هَذِهِ الشُّبْهَةُ.

وَهَذِهِ هِيَ الَّتِي ذَكَرَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْأَحْسَاءِ فِي كِتَابِهِ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْنَا[1]».

الشَّرْح

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]، نص في ذلك.

من آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، أو آمن ببعض الرُّسُل وكفر ببعضهم، أو آمن ببعض الكُتُب وكفر ببعضها، أو آمن ببعض القرآن وكفر ببعضه، أو آمن ببعض ما جاء به الرُّسُول وكفر ببعضه فهو كافر **بالإجماع**، وكافر بالجميع، ولا يُفيده كونه آمن بالبعض.

وزالت به هذه الشُّبْهَة التي أوردها هذا القائل، وهي قوله «أننا نشهد أن لا إله إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله، ونؤمن بالبعث،

---

(١) انظر: «مجموعة الرسائل والمسائل النجدية» (٤/ ٤٢٦).

ونُصدِّق الرسول ﷺ ونحج ونصوم ونتصدَّق».

نقول له: لا ينفعك هذا؛ لأنك إذا دعوتَ غير الله انتقض توحيدك وإيمانك، فإذا دعوتَ الصالحين، وقلت: «يا سيدي البدوي أغثني»، أو «يا سيدي يا رسول الله»، أو «يا عبد القادر مدد مدد»، أو ذبحت أو نذرت لهم كفرت، وأشركت بالله، وخرجت من مِلَّةِ الإسلام، وصرت مُشرِكًا، وبطل توحيدك وإيمانك.

مثال ذلك: إنسان توضأ وأحسن الوضوء ثم خرج منه بول أو غائط أو ريح فلا يكون على طهارة، بل بطلت؛ أبطلها الحدث، فكذلك الإنسان إذا قال: «أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله»، وصلى وصام، ثم ذبح لغير الله أو دعا غيره بطل توحيده وزال بهذا الشِّرك، فالشِّرك يُبْطِلُ التوحيد والإيمان كما أن الحدث يُبْطِلُ الطهارة ويُفسِدها، نسأل الله السَّلامة والعافية.



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ ﷺ فِي شَيْءٍ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ فَهُوَ كَافِرٌ حَلَالُ الدَّمِ وَالْمَالِ بِالْإِجْمَاعِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيْءٍ إِلَّا الْبَعْثَ، وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وَجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ وَصَدَّقَ بِذَلِكَ كُلِّه لَا يُجْحَدُ هَذَا وَلَا تَخْتَلِفُ الْمَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ كَفَرَ وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لَا يَكْفُرُ؟!.

سُبْحَانَ اللهِ، مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلَ!!».

الشَّرْحُ

الجواب الثاني: «وَيُقَالُ أَيْضًا: «إِذَا كُنْتَ تُقِرُّ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الرَّسُولَ ﷺ فِي شَيْءٍ وَجَحَدَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ فَهُوَ كَافِرٌ حَلَالُ الدَّمِ وَالْمَالِ بِالْإِجْمَاعِ»» وهذا بالإجماع.

إذا أَقرَّ بكل شيء إلَّا أنه أنكر وجوب الصلاة فإنه كافر **بالإجماع**، وإنما الخلاف فيما إذا تركها كسلًا وتهاونًا ولم يجحد وجوبها، أما إذا جحد وجوبها وقال: «ليست واجبة، وإن شاء الإنسان صلَّى، وإن شاء لم يُصلِّ» فهذا كافر **بالإجماع**، ولو صلَّى لا تُفِيده الصلاة؛ لكونه اعتقد أنها غير واجبة.

○ قوله: «وَكَذَلِكَ إِذَا أَقَرَّ بِكُلِّ شَيءٍ إِلَّا الْبَعْثَ» يعني لو أقرَّ بكل شيء إلَّا أنه أنكر البعث كفر **بالإجماع**.

○ قوله: «وَكَذَلِكَ لَوْ جَحَدَ وَجُوبَ صَوْمِ رَمَضَانَ وَصَدَّقَ بِذَلِكَ كُلِّه لَا يُجْحَدُ هَذَا وَلَا تَخْتَلِفُ الْمَذَاهِبُ فِيهِ، وَقَدْ نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ كَمَا قَدَّمْنَا» أي: كذلك إذا قال: «صوم رمضان ليس بواجب، والإنسان إن شاء صام، وإن شاء لم يصم» فهذا يكفر **بالإجماع**.

وإذا قال: «الصوم واجب» وترك الصوم، وقيل له: «لِمَا لا تصم؟»، قال: «اعتقد أنه واجب، لكن غلبتني نفسي وهواي والشيطان» فهل يكفر أو لا يكفر؟ محل خلاف، فهناك فرق بين الأمرين.

○ قوله: «فَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ أَعْظَمُ فَرِيضَةٍ جَاءَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الصَلَاةِ، والزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، فَكَيْفَ إِذَا جَحَدَ الْإِنْسَانُ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الأُمُورِ كَفَرَ وَلَوْ عَمِلَ بِكُلِّ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَإِذَا جَحَدَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ لَا يَكْفُرُ؟!» فإذا كان الذي يجحد وجوب الصلاة أو الزكاة أو الصوم أو الحج يكفر، والتوحيد أعظم الفرائض التي جاء بها الإسلام، فكيف لا يكفر من جحده؟!، بل نقول: إن من جحد وجوب إفراد الله بالتوحيد كفر بالإجماع من باب أولى.

○ قوله: «سُبْحَانَ اللهِ، مَا أَعْجَبَ هَذَا الْجَهْلِ!!» نعم، سبحان الله، كيف الذي يجحد وجوب الزكاة أو الصوم أو الحج يكفر والذي يجحد وجوب إخلاص التوحيد لله لا يكفر؟!، هذا عجب؛ أيهما أعظم الصلاة والزكاة والصوم والحج أم التوحيد؟، لا شكَّ أن التوحيد أعظم.

ولا يقول أحد أن الذي يجحد وجوب الصلاة أو الزكاة يكفر **بالإجماع** والذي يجحد وجوب توحيد الله لا يكفر إلَّا جاهل بدين الإسلام؛ معلوم أن التوحيد هو أعظم فريضة جاء بها النبي ﷺ، وهو أعظم من الصلاة والزكاة والصوم والحج، فكيف إذا جحد الإنسان شيئًا من هذه الأمور كفر ولو عمل بكل ما جاء به الرسول ﷺ وإذا جحد التوحيد الذي هو دين الرُّسُل كلهم لا يكفر؟!، سبحان الله، ما أعجب هذا الجهل.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَيُقَالُ أَيْضًا لِهَؤُلَاءِ: «أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ وَقَدْ أَسْلَمُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَيُصَلُّونَ، وَيُؤَذِّنُونَ».

فَإِنْ قَالَ: «إِنَّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ نَبِيٌّ».

قُلْنَا: «هَذَا هُوَ الْمَطْلُوبُ، إِذَا كَانَ مَنْ رَفَعَ رَجُلًا إِلَى رُتْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ كَفَرَ، وَحَلَّ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَلَمْ تَنْفَعْهُ الشَّهَادَتَانِ وَلَا الصَّلَاةُ، فَكَيْفَ بِمَنْ رَفَعَ شَمْسَانَ أَوْ يُوسُفَ، أَوْ صَحَابِيًّا، أَوْ نَبِيًّا فِي مَرْتَبَةِ جَبَّارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ؟!.

سُبْحَانَهُ مَا أَعْظَمَ شَأْنَهُ، ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الرُّوم: ٥٩]».

الشَّرْحُ

هذا هو الجواب الثالث.

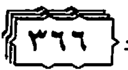
أن يُقال: إن أصحاب النبي ﷺ قاتلوا بني حنيفة[(١)] وهم يشهدون أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، ويُصلُّون، ويُؤذِّنون، ويصومون؛ لقولهم «إن مسيلمة نبي» فكفروا بهذا الاعتقاد؛ لأنهم رفعوا مسيلمة إلى مقام النبوة ورتبة النبي ﷺ، فإذا كان الذي يرفع رجلًا إلى رتبة النبي ﷺ يكفر ولا تنفعه شهادة أن لا إله إلَّا الله

(١) في معركة اليمامة.

وأن محمدًا رسول الله، ولا كونه يُؤذِّن أو يُصلِّي أو يصوم، فكيف بالذي يرفع صاحب قبر إلى رتبة الله مثل : **شمسان ويوسف** وغيرهم من المقبورين في زمن **الشيخ محمد بن عبدالوهاب** رَحِمَهُ اللهُ؟!، فيكون كافرًا من باب أولى.

إذا كان الذي يرفع شخصًا إلى رتبة النبي ﷺ يكفر فمن باب أولى الذي يرفع شخصًا إلى رتبة الله ومقام الألوهية، ولا ينفعه كونه يصوم أو يُصلِّي أو يتصدَّق؛ لأنه انتقض إسلامه ودينه بهذا الاعتقاد والعمل الشِّركي.





قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَيُقَالُ أَيْضًا: الَّذِينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالنَّارِ كُلُّهُمْ يَدَّعُونَ الْإِسْلَامَ، وَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ، وَلَكِنِ اعْتَقَدُوا فِي عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِثْلَ الاعْتِقَادِ فِي يُوسُفَ وَشَمْسَانَ وَأَمْثَالِهِمَا، فَكَيْفَ أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى قَتْلِهِمْ وَكُفْرِهِمْ؟، أَتَظُنُّونَ الصَّحَابَةَ يُكَفِّرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟!، أَمْ تَظُنُّونَ أَنَّ الاعْتِقَادَ فِي «تَاجٍ» وَأَمْثَالِهِ لَا يَضُرُّ وَالاعْتِقَادُ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُكَفِّرُ؟!».

الشَّرح

هذا الجواب الرابع.

أن يُقال: إن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعوا على قتال الغُلَّاة من الخوارج الذين اعتقدوا في علي رضي الله عنه أنه الإله، وقد حرَّقهم علي رضي الله عنه[1]، وخدَّ لهم الأخدود، وشقَّ لهم حفرًا في الأرض وأضرمها نارًا؛ لأنهم اعتقدوا فيه الألوهية[2]، وقد تعلموا العلم من الصحابة لكنهم غلوا في علي رضي الله عنه فرفعوه إلى رتبة الله، **فأجمع الصحابة** على قتالهم وكفرهم، وحرَّقهم علي رضي الله عنه بالنار،

(١) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب «لا يعذب بعذاب الله»، رقم (٣٠١٧).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣٥/ ١٨٥).

فكذلك من رفع **يوسف** أو **شمسان** أو **تاج**(١) إلى رتبة الله بأن دعاهم من غير الله، أو دعاهم معه، أو ذبح لهم.

هل تظنون أن الصحابة يُكفِّرون المسلمين؟!، أم تظنون أن الاعتقاد في علي رضي الله عنه يكفِّر والاعتقاد في تاج وشمسان لا يُكفِّر؟!، هما سواء، فهذا كفر وهذا كفر.



(١) سُئِلَ **الشيخ محمد بن إبراهيم** رحمه الله عن ما جاء في «كشف الشبهات» من ذكر **يوسف وشمسان وتاج**، وهل هي معتقدات أم أسماء مواضع أم أسماء أشخاص؟، وعن تاريخ كل منها، ومن هم الذين كانوا يعتقدون فيها؟

أجاب رحمه الله: «**يوسف وشمسان وتاج** أسماء أناس كفرة طواغيت، وليست أسماء مواضع، فأما **تاج** فهو من أهل الخرج تُصرف إليه النذور ويُدْعَى، ويُعتقد فيه النفع والضر، وكان يأتي إلى أهل الدرعية من بلده الخرج لتحصيل ماله من النذور، وقد كان يخافه كثير من الناس الذين يعتقدون فيه.

وأما **شمسان** فالذي يظهر من رسائل **إمام الدعوة** رحمه الله أنه لا يبعد عن العارض، وله أولاد يعتقد فيهم.

وأما **يوسف** فقد كان على قبره وثن يُعتقد فيه، ويظهر أن قبره في الكويت أو الأحساء كما يُفهم من بعض **رسائل الشيخ** رحمه الله.

أما تاريخ وجودهم فهو قريب من عصر **إمام الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب** رحمه الله، وقد ذكرهم في كثير من رسائله؛ لأنهم من أشهر الطواغيت التي يعتقد فيها أهل نجد وما يقاربها، وكانوا يعتقدون فيهم الولاية، ويصرفون لهم شيئًا من العبادة، وينذرون لهم النذور، ويرجون بذلك نظير ما يرجوه عباد اللّات والعزى».

«فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبداللطيف آل الشيخ» (١/ ١٣٤، ١٣٥).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَيُقَالُ أَيْضًا: بَنُو عُبَيْدٍ الْقَدَّاحِ الَّذِينَ مَلَكُوا الْمَغْرِبَ وَمِصْرَ فِي زَمَنِ بَنِي الْعَبَّاسِ كُلُّهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَيَدَّعُونَ الْإِسْلَامَ، وَيُصَلُّونَ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ، فَلَمَّا أَظْهَرُوا مُخَالَفَةَ الشَّرِيعَةِ فِي أَشْيَاءَ دُونَ مَا نَحْنُ فِيهِ أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى كُفْرِهِمْ وَقِتَالِهِمْ، وَأَنَّ بِلَادَهُمْ بِلادُ حَرْبٍ، وَغَزَاهُم الْمُسْلِمُونَ حَتَّى اسْتَنْقَذُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ».



هذا الجواب الخامس.

معروف عن **بني عبيدة القدَّاح** أنهم روافض باطنية، وأن اعتقادهم خبيث وفاسد، ويُظْهِرُون الإسلام ويُبْطِنُون الكفر المحض، وقد **أجمع العلماء** على قتالهم وغزوهم، وجعلِ بلادهم بلادَ حرب؛ لأنهم فعلوا ناقضة من نواقض الإسلام، ولم ينفعهم كونهم يشهدون أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، وكونهم يُصلُّون الجمعة والجماعة، فكذلك من شهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، وصام وزكَّى وحج ثم دعا غير الله أو ذبح لغيره فقد أشرك وانتقض إسلامه ودينه، ولا ينفعه ما كان يفعله من الإسلام.



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَيُقَالُ أَيْضًا: إِذَا كَانَ الْأَوَّلُونَ لَمْ يَكْفُرُوا إِلَّا لِأَنَّهُمْ جَمَعُوا بَيْنَ الشِّرْكِ وَتَكْذِيبِ الرُّسُلِ وَالْقُرْآنِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَمَا مَعْنَى البَابِ الَّذِي ذَكَرَهُ الْعُلَمَاءُ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ «بَابُ حُكْمِ الْمُرْتَدِّ» وَهُوَ الْمُسْلِمُ الَّذِي يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ، ثُمَّ ذَكَرُوا أَنْوَاعًا كَثِيرَةً، كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا يُكَفِّرُ وَيُحِلُّ دَمَ الرَّجُلِ وَمَالَهُ، حَتَّى إِنَّهُمْ ذَكَرُوا أَشْيَاءَ يَسِيرَةً عِنْدَ مَنْ فَعَلَهَا، مِثْلَ: كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا بِلِسَانِهِ دُونَ قَلْبِهِ، أَوْ كَلِمَةٍ يَذْكُرُهَا عَلَى وَجْهِ الْمَزْحِ وَاللَّعِبِ؟».

الشرح

هذا الجواب السادس.

يقولون في هذه الشُّبُهة: «نحن نشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، ونصلي، ونصوم، ونُصدِّق الرسول ﷺ والقرآن، بخلاف الكفار السابقين فإنهم يكذِّبون الرسول ﷺ والقرآن، ويُنْكِرون البعث».

كأنهم **يقولون**: «إن الإنسان لا يكفُر حتى يجمع بين الأمرين، حتى يضم إلى دعاء الصالحين التكذيبَ بالقرآن وبالرسول ﷺ».

يقال لهم: لو كان الإنسان لا يكفُر حتى يجمع بين الأمرين لمَا كان هناك فائدة من «باب حكم المرتد» الذي يذكره **العلماء** في كل مذهب، وهو الذي يكفُر بعد الإسلام، وهذا موجود في كُتُب الفقه في المذاهب كلها.

وذكروا أشياء يسيرة من فعلها كفر، حتى ذكر **الأحناف** ما يُقارِب أربع مئة ناقض، **وقال بعضهم**: لو قال «مُسَيْجِدٌ» أو صَغَّرَ لفظ «المصحف» كفر(١)، فكيف يكفر بهذا ولا يكفر إذا دعا غير الله أو ذبح لغيره؟!.



(١) انظر: «إعلام الموقعين» لابن القيم (٣/ ١٧٩)، وبدائع الفوائد (٣/ ١٣٠).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَيُقَالُ أَيْضًا: الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤]، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ كَفَّرَهُمْ بِكَلِمَةٍ مَع كَوْنِهِمْ في زَمَنِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيُجَاهِدُونَ مَعَهُ، وَيُصَلُّونَ مَعَهُ، وَيُزَكُّونَ، وَيَحُجُّونَ، وَيُوَحِّدُونَ؟!.

وَكَذَلِكَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦]، فَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ صَرَّحَ اللهُ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَهُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكٍ قَالُوا كَلِمَةً ذَكَرُوا أَنَّهُمْ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَزْحِ.

فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الشُّبْهَةَ، وَهِيَ قَوْلُهُمْ «تُكَفِّرُونَ الْمُسْلِمِينَ وَهمْ أُنَاسٌ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيُصَلُّونَ، وَيَصُومُونَ؟!»، ثُمَّ تَأَمَّلْ جَوَابَهَا؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَنْفَعِ مَا فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ».

الشرح

هذا الجواب السابع.

أن يُقال: قد دلَّ القرآن على كفر أناسٍ يشهدون أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، ويصلُّون، ويزكُّون، ويحجون، ويجاهدون مع النبي ﷺ؛ لأنهم فعلوا ناقضًا من نواقض الإسلام، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾، فأخبر الله تعالى أنهم كفروا بعد إسلامهم بسبب كلمة قالوها.

عن عبدالله بن عمر ﷺ قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء»، فقال رجل في المجلس: «كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ»، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: «يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب»، ورسول الله ﷺ يقول: «﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥﴾ [التوبة: ٦٥]»[١]، فنزَلَ القرآن بتكفيرهم.

إذا كان هؤلاء الذين جاهدوا مع النبي ﷺ وصلوا وصاموا ومع ذلك لَمَّا تكلموا بهذه الكلمة أخبر الله تعالى أنهم كفروا بعد إيمانهم، وهم يشهدون أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، فكيف لا يكفر من دعا غير الله أو ذبح أو نذر لغيره؟!، أيُّهما أشد كلمة يُتكلَّم بها أم عبادة تُصرف لغير الله؟!.



---

(١) تقدَّم تخريجه.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى ذَلِكَ أَيْضًا: مَا حكَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ إِسْلَامِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَصَلَاحِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وَقَوْلُ أُنَاسٍ مِنَ الصَّحَابَةِ «اجْعَلْ لَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَاتَ أَنْوَاطٍ»، فَحَلَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَنَّ هَذَا مِثْلَ قَوْلِ بنِي إِسْرَائِيلَ ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾».

الشرح

فَصَّلَ **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا الدليل، ويصلح أن يكون **جوابًا ثامنًا**.

وهو أن بني إسرائيل المؤمنين الذين كانوا مع موسى عليه الصلاة والسلام مع صلاحهم وعلمهم، وهم الخلاصة من بني إسرائيل، كان قائدهم موسى عليه الصلاة والسلام، ولما أقبل جيش فرعون وتراءى الجمعان وخاف بنو إسرائيل، فقالوا: «يا موسى، إنا لمدرَكون؛ فرعون خلفنا والبحر أمامنا»، قال موسى: «كلا، لستم بمدرَكين»، قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦٠-٦٢]، وأمر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام أن يضرب بعصاه البحر فانفلق فصار اثني عشر طريقًا يبسًا في الحال، وصار كالطود العظيم فكانت أمواج البحر كالجبال عن يمين الداخل وشماله، والوسط يابس كأنه طريق مُعَبَّد، وسلكت كل قبيلة طريقًا وسط البحر، وهذا من الدلائل العظيمة على أن الله على كل شيء قدير.

ولـمَّا جاء فرعون وقومه يتبعونهم ويريدونهم دخلوا البحر،

وخرج موسى وقومه من الجهة الأخرى وتكاملوا خارجين، وتكامل فرعون وقومه داخلين، عندها أمر الله البحر أن يعود إلى حاله فانطبق على فرعون وجنوده فغرقوا كلهم فصارت أجسامهم للغرق وأرواحهم للنار والحرق نعوذ بالله، وقوم موسى ينظرون.

ولمَّا خرج بهم موسى وجعلوا يمشون مرُّوا على أناسٍ يعبدون صنمًا، قال لموسى عليه السلام: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فاستعظم موسى عليه السلام هذا، وأنكر وغلَّظ عليهم، فقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٣٩ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَـٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٤٠﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

بنو إسرائيل مع صلاحهم وعلمهم ومشاهدتهم إغراق الله لفرعون ومن معه قالوا هذه المقالة فأنكر عليهم موسى، وبَيَّن لهم أن هذا أمر عظيم وأنه من الشرك الأعظم، فهم مع صلاحهم وعِلْمهم وكونهم مع نبيهم لو فعلوا كما فعل أولئك الذين لهم إله لكفروا مثلهم.

ومثله: عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا «ذَاتُ أَنْوَاطٍ» يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ»، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ، هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ**»(١)، فأنكر ﷺ عليهم وغلَّظ، وبيَّن أن هذه المقالة مثل مقالة بني إسرائيل؛ لأن العبرة بالمعاني والحقائق وإن كانت مختلفة الألفاظ لكن المعنى واحد، فأولئك طلبوا إلهًا وأنتم طلبتم شجرة تتبركون بها كما يتبرك المشركون، وهم مع النبي ﷺ يجاهدون، ولو فعلوا ذلك لكانوا مثل أولئك.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

ملخص الشُّبْه السابقة وأجوبتها

خلاصة الشبهة: يقولون: نحن نشهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله، ونؤمن ونُؤدِّي أركان الإسلام والإيمان كاملة، فكيف تجعلونا مشركين بسبب الالتجاء للصالحين ودعائهم؟!، بل كيف تجعلونا كالمشركين في زمن النبي ﷺ الذين لم يؤمنوا ولم ينطقوا بالشهادتين وكذَّبوا الله ورسوله ﷺ وبكل ما جاء به القرآن؟!.

◉ **الجواب**:

جواب عام: وهو أن من فعل ناقضًا من نواقض الإسلام انتقض إسلامه ودينه مطلقًا، ولا ينفعه كونه يتلفَّظ أو يُقِرُّ بالشهادتين، أو يصلي أو يصوم أو يزكّي كالمتطهِّر من الحدث يُنتقض طهوره إذا أحدث ولو بالريح.

جواب تفصيلي: لا خلاف بين العلماء أن من صدَّق ببعض ما جاء به الرسول ﷺ وكذَّب ببعض فقد كفر، وإذا كنتم مُتَّفِقِين معنا على أنه من جحد شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ من فروع الدين كالصلاة والصيام والحج ونحوهما يكفر، فكيف لا يكفر من جحد وجوب التوحيد الذي هو أصل الدين وأساسه؟!.

في قتال الصحابة لبني حنيفة مع أنهم يشهدون أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيمون شعائر الإسلام وقد قلتم لأنهم رفعوا مسليمة إلى مقام النبي ﷺ، وهذا حقٌّ، فكيف وأنتم قد رفعتم من تدعونهم من الأولياء والصالحين إلى مقام الله عزَّ وجلَّ فتدعونهم من دون الله؟!، أيهما أعظم؟!.

اتفق العلماء على أنه من فعل ناقضًا من نواقض الإسلام أو فرَّق بين ما جاء به الرسول ﷺ فصدَّق ببعضه وأنكر بعضه وكذلك

من جحد أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة كفر، فمن باب أولى من جحد أصل الدين وأساسه.

حرَّق الإمام علي رضي الله عنه بعض أصحابه ممن رفعوه فوق مقامه إلى مقام الألوهية، وأقرَّه الصحابة على ذلك، فكيف بالذي يرفع صاحب القبر إلى مقام الله فيدعوه من دون الله أو يذبح له؟!، فهل لا يجوز الاعتقاد في علي رضي الله عنه ويجوز في غيره؟!.

أجمع العلماء على جواز قتال بني عبيد القدَّاح وهم من الباطنية مع أنهم كانوا يُؤدُّون شعائر الإسلام من صلاة وزكاة ونحوها عند ما أظهروا شيئًا مما يخالف الشريعة، ودل على أنهم كانوا يُبطِنُون الكفر ويظهرون الإسلام.

دل القرآن على كفر أناس يشهدون أن لا إله إلَّا الله بكلمة قالوها، قال تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤]، فأثبت لهم الكفر بعد إسلامهم، وكذلك ما حصل في غزوة تبوك حيث قال المنافقون كلمات يلمزون بها النبي ﷺ وأصحابه، بقولهم: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء»، ونزل فيهم قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

ذكر **العلماء** في كتب الفقه «باب حكم المرتد»، قالوا : والمرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه، وذكروا فيه الأمور التي يصير بها المسلم مرتدًا عن الدين، وذكروا أشياء كثيرة يصير بها المسلم مرتدًا.



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَلَكِنْ لِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ يُدْلُونَ بِهَا عِنْدَ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَكْفُرُوا بِذَلِكَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ».

فَالجَوَابُ: «أَنْ تَقُولَ: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَفْعَلُوا، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَفْعَلُوا، وَلَا خِلَافَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَوْ فَعَلُوا ذَلِكَ لَكَفَرُوا، وَلَا خِلَافَ أَنَّ الَّذِينَ نَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ لَوْ لَمْ يُطِيعُوهُ وَاتَّخَذُوا ذَاتَ أَنْوَاطٍ بَعْدَ نَهْيِهِ لَكَفَرُوا، وَهَذَا هُوَ الْمَطْلُوب»».

الشَّرْح

وهذه شُبْهَة للمشركين يذكرونها.

يقولون: «إن بني إسرائيل لم يكفروا وكذا الصحابة وهم قد طلبوا أن يفعلوا الشِّرك».

* **والجواب**: أن بني إسرائيل لم يفعلوا؛ لأن موسى عليه السلام زجرهم فانزجروا ولم يفعلوا، ولو فعلوا لكانوا مشركين، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم الذين طلبوا الشجرة للتبرك لم يفعلوا، فلو تركوا قول النبي ﷺ وتبرَّكوا بالشجرة مثل المشركين لكانوا مثلهم ولكنهم لم يفعلوا، وهذا دليل على أن الإنسان إذا لم يفعل الشِّرك لا يكون مُشرِكًا، وإذا تكلَّم بكلام كفر جاهلًا واستغفر الله وتاب فلا يضره، ويُعذر في هذا بالجهل.

وهذا يُفِيد الحذر، وأن المسلم قد يقع في الشِّرْك وهو لا يشعر، بل قد يكون عنده بعض العلم ويقع في نوع من الشِّرك،

فليحذر الإنسان، وليتعرَّف على أنواع الشِّرك، وأسبابه، والذرائع المُوصِلة إليه؛ حتى لا يقع في شيء من ذلك وهو لا يشعر.

روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «**إنما تُنْقض عُرى الإسلام عروة عروة إذا دخل في الإسلام من لا يعرف الجاهلية**»[(١)]، بخلاف الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا مشركين قبل الإسلام فلا يقعون في الشِّرك؛ لأنهم خبروه، وذاقوا مرارته، وعرفوا أنواعه، ثم هداهم الله تعالى إلى الإسلام، ومَنَّ عليهم بالإيمان فلا يقعون فيه، ولذلك الصحابة رضي الله عنهم أكمل إيمانًا وعلمًا وتُقًى من أبنائهم، بخلاف مَنْ بعدَهم؛ فقد وُلِدُوا في الإسلام، وبعضهم قد لا يعرف أنواع الشِّرك وقد يقع في شيء منه وهو لا يظن أنه شرك، كما هو الواقع الآن من عُبَّاد القبور الذين يطوفون حول قبر البدوي أو الحسين أو السيدة زينب أو نفيسة في مصر، أو بعض القبور في الشام، أو في ليبيا، أو في باكستان، أو في أفريقيا، أو في إيران، أو في غيرها من البلدان فتجدهم يطوفون حول القبور، ويذبحون وينذرون لها، وإذا أنكرت عليهم قالوا: «ليس هذا بِشِرْك، هذه محبة للصالحين، تشفُّع، التجاء للصالحين»؛ فهم لم يعرفوا الشِّرك.

۞۞۞

---

(١) لم أجده بلفظه، وذكره **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله في مواضع من كتبه، منها: «منهاج السنة النبوية» (٤/ ٥٩٠)، «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٣٠١)، وكذا **ابن القيم** رحمه الله في «مدارج السالكين» (١/ ٣٤٣)، و«مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٩٥).

وهو بمعناه عند ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٤١٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٧٥) عن المستظل بن حصين قال: خطبنا عمر بن الخطاب فقال: «قد علمت ورب الكعبة متى تهلك العرب»، فقام إليه رجل من المسلمين فقال: «متى يهلكون يا أمير المؤمنين؟»، قال: «حين يسوس أمرهم من لم يعالج أمر الجاهلية ولم يصحب الرسول ﷺ».

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَلَكِنْ هَذِهِ الْقِصَّةُ تُفِيدُ: أَنَّ الْمُسْلِمَ بَلْ الْعَالِمَ قَدْ يَقَعُ فِي أَنْوَاعٍ مِنَ الشِّرْكِ لَا يَدْرِي عَنْهَا، فَتُفِيدُ التَّعْلِيمَ وَالتَّحَرُّزَ، وَمَعْرِفَةَ أَنَّ قَوْلَ الْجَاهِلِ «التَّوْحِيدُ فَهِمْنَاهُ» أَنَّ هَذَا مِنْ أَكْبَرِ الْجَهْلِ وَمَكَائِدِ الشَّيْطَانِ».

الشَّرْحُ

ينبغي على الإنسان التَّحرُّز والحذر من الشِّرك وأنواعه ولو كان مؤمنًا مُوحِّدًا، ولو كان عنده بعض العلم، فلا بُدَّ من التَّحرُّز والحذر، والتَّعرُّف على أسباب الشِّرك وأنواعه؛ حتى لا يقع في شيء منها.

وعليه أن يَصْدُقَ في الالتجاء إلى الله ويبتهل ويتضرع في أن يُجنِبَه الله الشِّرك وأسبابه، ولهذا سأل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وهو والد الأنبياء وإمام الحنفاء ربَّهُ ودعاه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦]، وهو الذي كَسَّرَ الأصنام وصمد صمود الجبال الراسيات أمام المشركين الوثنيين من أبيه وقومه، ثم بعد ذلك يخاف على نفسه وبنيه الذين هم أنبياء إسماعيل وإسحاق، وأبناؤهم أنبياء فنبينا ﷺ من ذرِّية إسماعيل، سلالة أنبياء، وإسحاق أنجب يعقوب نبيًّا، ويعقوب أنجب يوسف نبيًّا، سلالة أنبياء، وهو القدوة عليه السلام ومع ذلك يسأل ربَّهُ ويقول: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾

[إبراهيم: ٣٥-٣٦]، ولهذا يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣]، وكان **إبراهيم التيمي** رحمه الله يقص ويقول في قصصه: «من يأمن من البلاء بعد خليل الله إبراهيم حين يقول: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]»(١).



(١) «تفسير الطبري» (١٣/٢٢٨).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

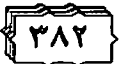
«وَتُفِيدُ أَيْضًا: أَنَّ الْمُسْلِمَ الْمُجْتَهِدَ الَّذِي إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامِ الْكُفْرِ وَهُوَ لَا يَدْرِي فَنُبِّهَ عَلَى ذَلِكَ وَتَابَ مِنْ سَاعَتِهِ أَنَّهُ لَا يَكْفُرُ كَمَا فَعَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَالَّذِينَ سَأَلُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ».

الشرح

إذا تكلَّم المسْلم المجتهد بكلمة الكُفْر جاهلًا لا يدري عنها، ثم نُبِّه وتاب من ساعته فلا يضرُّه هذا؛ لأنه تكلَّم عن جهل.

وبنو إسرائيل مع صلاحهم وعلمهم طلبوا عن جهل ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ثم نبَّهَهُم موسى عليه السلام وتابوا من ساعتهم ولم يفعلوا، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم لَمَّا طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم شجرة يتبركون بها كما للمشركين شجرة فنبَّهَهُم ﷺ ونصحهم فتابوا من ساعتهم، فإن كان الكلام هذا عن جهل فلا يضرهم.





قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَتُفِيدُ أَيْضًا: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكْفُرْ فَإِنَّهُ يُغَلَّظُ عَلَيْهِ الْكَلَامُ تَغْلِيظًا شَدِيدًا كَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ».



الشَّرْحُ

غلَّظ النبي ﷺ على الصحابة رضي الله عنهم، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ، هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[1]، وغَلَّظ موسى عليه السلام على بني إسرائيل، فقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨]، فوصفهم بالجهل مع صلاحهم وعلمهم بسبب هذه المقالة، فهذا يُفيد أن الإنسان يُغلَّظ عليه حتى يرتدِع وينزجِر.

❁❁❁

(١) تقدَّم تخريجه.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَلِلْمُشْرِكِينَ شُبْهَةٌ أُخْرَ: «يَقُولُوْنَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَنْكَرَ عَلَى أَسَامَةَ رضي الله عنه قَتْلَ مَنْ قَالَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَقَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟!»»، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَكَذَلِكَ أَحَادِيثُ أُخْرَى فِي الْكَفِّ عَمَّنْ قَالَهَا.

وَمرُادُ هَؤُلَاءِ الْجَهَلَةِ: أَنَّ مَنْ قَالَهَا لَا يَكْفُرُ وَلَا يُقْتَلُ وَلَوْ فَعَلَ مَا فَعَلَ.

فَيُقَالُ لِهَؤُلَاءِ الجَهَلَةِ الْمُشْرِكِينَ: «مَعْلُومٌ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَاتَلَ الْيَهُودَ وَسَبَاهُمْ وَهُمْ يَقُولُونَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَأَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَاتَلُوا بَنِي حَنِيفَةَ وَهُمْ يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَيُصَلُّونَ، وَيَدَّعُونَ الإِسْلَامَ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ حَرَّقَهُمْ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه بِالنَّارِ»».

الشَّرح

خلاصة هذه الشُّبهة: احتجاجهم بقصة أسامة رضي الله عنه، في «الصحيحين»[1] عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رضي الله عنهما يَقُولُ: بَعَثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» فَكَفَّ الأَنْصَارِيُّ

(١) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب «بعث النبي أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة»، رقم (٤٢٦٩)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٩٦).

فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؟!**»، قُلْتُ: «كَانَ مُتَعَوِّذًا»، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ.

يقولون: في حديث أسامة رضي الله عنه دليل على أن من قال «لا إله إلَّا الله» صار مُوحِّدًا، وأنه لو فعل الشِّرك يُكَفُّ عنه.

ويستدلون كذلك بما في «الصحيحين»(١) عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**».

قالوا: هذا دليل على أن الإنسان إذا شهد أن لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله وجب الكفُّ عنه؛ لأنه مسلم، ولا يضره بعد ذلك شيء.

يُقال لهم: قاتل النبي ﷺ اليهود وهو يقولون «لا إله إلَّا اللَّه»؛ لأنهم ينقضونها بعدم الشهادة للنبي ﷺ بالرسالة، وكذلك قاتل الصحابةُ بني حنيفة وهم يقولون «لا إله إلَّا الله» ويُصلُّون ويصومون؛ لأن إسلامهم انتقض باعترافهم بنبوة مسيلمة، وكذلك حَرَّقَ علي بن أبي طالب رضي الله عنه قومًا بالنار لمَّا غلوا فيه ورفعوه إلى مقام الرَّبِّ ومرتبة الألوهية فكفروا وانتقض إسلامهم ودينهم.

❁❁❁

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب «﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]»، رقم (٢٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (٢٢).

❁ **قَالَ المُؤَلِّفُ** رَحِمَهُ اللهُ:

«وَهَؤُلَاءِ الْجَهَلَةُ مُقِرُّونَ أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ كَفَرَ وَقُتِلَ وَلَوْ قَالَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَأَنَّ مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ كَفَرَ وَقُتِلَ وَلَوْ قَالَهَا، فَكَيْفَ لَا تَنْفَعُهُ إِذَا جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْفُرُوعِ وَتَنْفَعُهُ إِذَا جَحَدَ التَوْحِيدَ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ دِينِ الرُّسُلِ وَرَأْسُهُ ؟!.

وَلكِنَّ أَعْدَاءَ اللهِ مَا فَهِمُوا مَعْنَى الأَحَادِيثِ».



يقول الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: إن هؤلاء الذين أوردوا هذه الشُّبْهة من المشركين مُقِرُّون بأن الإنسان لو جحد الصلاة لم تنفعه «لا إله إلَّا الله» وانتقض إسلامه ودينه، وكذا إذا جحد الزكاة أو الصوم، فكيف إذا جحد فرعًا من فروع الدين يكفر وإذا جحد التوحيد لا يكفر؟!؛ والتوحيد هو أصل الدين وهو إفراد الله تعالى بالعبادة.

❁❁❁

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«فَأَمَّا حَدِيثُ أُسَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ قَتَلَ رَجُلًا ادَّعَى الإِسْلَامَ بِسَبَبِ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّهُ مَا ادَّعَاهُ إِلَّا خَوْفًا عَلَى دَمِهِ وَمَالِهِ، وَالرَّجُلُ إِذَا أَظْهَرَ الإِسْلَامَ وَجَبَ الْكَفُّ عَنْهُ حَتَى يَتَبَيَّنَ مِنْهُ مَا يُخَالِفُ ذَلِكَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي ذَلِكَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤] الآيَةَ، أَيْ: تَثَبَّتُوا، فَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَجِبُ الْكَفُّ عَنْهُ وَالتَّثَبُّتُ، فَإِنْ تَبَيَّنَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ مَا يُخَالِفُ الإِسْلَامَ قُتِلَ لِقَوْلِهِ ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾، وَلَوْ كَانَ لَا يُقْتَلُ إِذَا قَالَهَا لَمْ يَكُنْ لِلتَّثَبُّتِ مَعْنًى».

الشَّرْح

هناك فرق بين من دخل في الإسلام من جديد وبين من كان مسلمًا قبل ثم فعل ناقضًا من نواقض الإسلام.

الذين دخلوا في الإسلام من جديد إذا قالوا: «لا إله إلَّا اللَّه» وجب الكفُّ عنهم، ثم ينظر بعد ذلك، فإن استمروا على الإسلام وفعلِ ما يدل على إيمانهم وإسلامهم وما تقتضيه «لا إله إلَّا الله» صاروا مسلمين، وإن فعلوا ما يناقضها حُكِمَ بكفرهم وقُوتِلوا، بدليل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ﴾ [النساء: ٩٤]، ولو كانوا لا يُقاتلون بعد ذلك لما كان هناك فائدة في التبيُّن.

أما من كان يقول «لا إله إلَّا الله وأن محمدًا رسول الله» في الأول، ويُزكِّي، ويصوم، ثم فعل ما يناقضها كأن دعا غير الله، أو

ذبح لغيره، أو أنكر وجوب الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج فهذا يدل على كفره؛ لأنَّه فعل ما يُناقض هذه الكلمة.



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَكَذٰلِكَ الْحَدِيثُ الآخَرُ وَأَمْثَالُهُ مَعْنَاهُ: مَا ذَكَرْتُ أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ الإِسْلَامَ وَالتَّوْحِيدَ وَجَبَ الْكَفُّ عَنْهُ، إِلَّا أَنْ يَتَبَيَّنَ مِنْهُ مَا يُنَاقِضُ ذٰلِكَ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ الَّذِي قَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»؟!»، وَقَالَ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» هُوَ الَّذِي قَالَ فِي الْخَوَارِجِ: «أَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»».

الشَّرح

وهذا بسبب عقيدتهم الفاسدة الخبيثة وتكفيرهم المسلمين بالمعاصي، قالوا: «من زنا كفر»، و«من سرق كفر»، و«من شرب الخمر كفر».

ويتعبد **الخوارج** بعبادات عظيمة فيُصلُّون بالليل، ويصومون النهار، ويُجاهِدون بشجاعة وبسالة، حتى إن الصحابة يحقِرُون صلاتهم مع صلاتهم وصيامهم مع صيامهم وجهادهم مع جهادهم[1]، فهم رهبان بالليل أسود بالنهار.

وفي «الصحيحين»[2] عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب «إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به»، رقم (٥٠٥٨)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٦٤) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب «علامات النبوة في الإسلام»، رقم (٣٦١١)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٦٦).

يَقُولُ: «يَأْتِي فِي آخِرِ الزَّمَانِ قَوْمٌ حُدَثَاءُ الْأَسْنَانِ سُفَهَاءُ الْأَحْلَامِ، يَقُولُونَ مِنْ خَيْرِ قَوْلِ الْبَرِيَّةِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَا يُجَاوِزُ إِيمَانُهُمْ حَنَاجِرَهُمْ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ؛ فَإِنَّ قَتْلَهُمْ أَجْرٌ لِمَنْ قَتَلَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وفيهما[1] عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ»، وفي لفظ: «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ثُمَّ لَا يَعُودُونَ فِيهِ حَتَّى يَعُودَ السَّهْمُ إِلَى فُوقِهِ»[2]، وقوله «يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ» يعني: يخرجون من الإسلام.

وكفر الخوارج فيه خلاف بين أهل العلم[3]، ومن يقول: إنهم كفار أدلته قوية.



---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب «قول الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقوله جل ذكره: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]»، رقم (٧٤٣٢)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٦٤).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب «قراءة الفاجر والمنافق وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم»، رقم (٧٥٦٢)، ومسلم، كتاب الزكاة، رقم (١٠٦٤).

(٣) انظر: «فتح الباري» (١٢/٢٩٩، ٣٠٠).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«مَع كَوْنِهِمْ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ عِبَادَةً وتَهْلِيلًا، حَتَّى إِنَّ الصَّحَابَةَ يَحْقِرُونَ أَنْفُسَهُمْ عِنْدَهُمْ، وَهُمْ تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَلَمْ تَنْفَعْهُمْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، وَلَا كَثْرَةُ الْعِبَادَةِ، وَلَا ادِّعَاءُ الإِسْلَامِ لَمَّا ظَهَرَ مِنْهُمْ مُخَالَفَةُ الشَّرِيعَةِ».



وظاهر كلام **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ القول بتكفيرهم، وهو ليس بصريح، لكن يظهر من كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ أنه اختار القول بتكفيرهم، وهو القول **المشهور عند أهل العلم**، ولهذا قال: «**فَلَمْ تَنْفَعْهُمْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»**».

۞۞۞

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَكَذلِكَ مَا ذَكَرْنَا مِنْ قِتَالِ الْيَهُودِ، وَقِتَالِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ بَنِي حَنِيفَةَ، وَكَذَلِكَ أرَادَ النَّبِيُ ﷺ أَنْ يَغْزُوَ بَنِي الْمُصْطَلِقْ لَمَّا أَخْبَرَهُ رَجُلٌ مِنْهُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ، حَتَّى أَنْزَلَ اللهُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ [الحجرات: ٦][1]، وَكَانَ الرَّجُلُ كَاذِبًا عَلَيْهِمْ، فَكُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الأحَادِيثِ الَّتِي احْتَجُّوا بِهَا مَا ذَكَرْنَاهُ».

الشَّرْحُ

يقول المؤلف رحمه الله: إن اليهود يقولون «لا إله إلَّا الله» ولم تنفعهم؛ لأنهم لم يحققوا الشهادة الثانية التي هي لازمة لها، حتى إن بعضهم يقول: «إن محمدًا نبيٌّ للعرب خاصة»، وهذا غلط، بل هو رسول الله للعالمين.

۞۞۞

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٦/١٢٣).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَلَهُمْ شُبْهَة أُخْرَى، وَهِيَ مَا ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْتَغِيثُونَ بِآدَمَ، ثُمَّ بِنُوحٍ، ثُمَّ بِإِبْرَاهِيمَ، ثُمَّ بِمُوسَى، ثُمَّ بِعِيسَى فَكُلُّهُمْ يَعْتَذِرُون، حَتَى يَنْتَهُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالُوا: فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الاسْتِغَاثَةَ بِغَيْرِ اللَّهِ لَيْسَتْ شِرْكًا.

فَالْجَوَابُ: أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَ مَنْ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِ أَعْدَائِهِ ؟!، فَإِنَّ الاسْتِغَاثَةَ بِالْمَخلُوقِ عَلَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ لَا نُنْكِرُهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، وَكَمَا يَسْتَغِيثُ إِنْسَانٌ بِأَصْحَابِهِ فِي الْحَرْبِ وَغَيْرِهَا فِي أَشْيَاءَ يَقْدِرُ عَلَيْهَا الْمَخْلُوقُ.

وَنَحْنُ أَنْكَرْنَا اسْتِغَاثَةَ الْعِبَادَةِ الَّتِي يَفْعَلُونَهَا عِنْدَ قُبُورِ الْأَوْلِيَاءِ أَوْ فِي غَيْبَتِهِمْ فِي الأَشْيَاءِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

إِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ فَالاسْتِغَاثَة بِالأَنْبِيَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرِيدُونَ مِنْهُمْ أَنْ يَدْعُوا اللَّهَ أَنْ يُحَاسِبَ النَاسَ حَتَّي يَسْتَرِيحَ أَهْلُ الْجَنَةِ مِنْ كَرْبِ الْمَوْقِفِ، وَهَذَا جَائِزٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَنْ تَأْتِيَ عِنْدَ رَجُلٍ صَالِحٍ يُجَالِسُكَ وَيَسْمَعُ كَلَامَكَ، تَقُولُ لَهُ: «ادْعُ لِي»، كَمَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ في حَيَاتِهِ، وَأَمَّا بَعْدَ مَوْتِهِ فَحَاشَا وَكَلَّا أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ ذَلِك عِنْدَ قَبْرِهِ، بَلْ أَنكَرَ السَّلَفُ عَلَى مَنْ قَصَدَ دُعَاءَ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِهِ، فَكَيْفَ دُعَاؤهُ نَفْسِهِ ؟!».

الشَّرْحُ

خلاصة هذه الشُّبْهة: أنهم يستدلون على الاستغاثة في العبادة بسؤال الناس الأنبياءَ يوم القيامة وطلبهم منهم أن يشفعوا لهم عند

الله، فإن الناس إذا وقفوا بين يدي الله يوم القيامة واشتد بهم الكرب ودنت الشمس من الرؤوس حصل للناس شدة وكرب، فيموج الناس بعضهم في بعض، ويستغيثون بالأنبياء أن يشفعوا لهم عند الله، فيأتون آدم فيعتذر، ثم نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى فيعتذر جميعهم، ثم يأتون إلى نبينا محمد ﷺ، قال ﷺ: «**فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: «يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ**»»[(١)]، **قالوا: وهذا يدل على أنه يجوز للإنسان أن يأتي عند القبر ويقول: «يا فلان أغثني»**.

والجواب ـ كما يقول **المؤلف** رحمه الله ـ: هناك فرق بين الحي القادر وبين الميت، حينما يستغيث الناس بالأنبياء يوم القيامة فهم أحياء أمامهم حاضرون قادرون أن يشفعوا، ونحن لا نُنكِر الاستغاثة بالحي الحاضر القادر كما في قصة موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥]، لمَّا خرج موسى عليه السلام ووجد رجلين يقتتلان، أحدهما من شيعته من بني إسرائيل، والثاني قبطي، فاستغاث الإسرائيلي بموسى على القبطي فأغاثه فضرب القبطي فقضى عليه، فهذا لا نُنكِره؛ لأنها استغاثة بالحي القادر.

والاستغاثة بالأنبياء يوم القيامة يريدون منهم أن يدعو الله أن يحاسب الناس حتى يستريح أهل الجنة من كرب الموقف، أما الكفار فلا يستريحون، بل يزداد عذابهم وينتقلون من الموقف إلى النار.

---

(١) تقدَّم تخريجه.

وكما كان الصحابة الكرام ﷺ يسألون رسول الله ﷺ في حياته أن يشفع لهم، وهي كثيرة، وتقدَّم ذكر شفاعته ﷺ في بَرِيرَةَ أن ترجع إلى زوجها مُغِيث وكان عبدًا أسودًا[١]، أما بعد مماته فلم يكونوا يستغيثون به حاشا وكلَّا، بل أنكر **السلف** كون الإنسان يأتي ويدعو الله عند قبره فكيف بدعائه النبي ﷺ نفسه؟!.

إذًا المنكر هي استغاثة العبادة، كالاستغاثة بالميت، أو بالغائب، أو بالحي الحاضر غير القادر، أما الاستغاثة بالحي الحاضر القادر الذي معه أسباب ظاهرة وتراه ويسمع كلامك ويقدر فلا بأس في ذلك، مثل: لو استغاث غريق بسبَّاح يُجِيد السِّباحة، فقال: «أغثني»، أو كان هناك حريق فاستغاث بمن يُنقِذه ويستطيع ذلك.



(١) تقدَّم تخريجه.

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَلَهُمْ شُبْهَةٌ أُخْرَى، وَهِيَ: قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أُلْقِيَ فِي النَّارِ اعْتَرَضَ لَهُ جِبْرَائِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْهَوَاءِ، فَقَالَ: «أَلَكَ حَاجَةٌ؟»، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا»، قَالُوا: «فَلَوْ كَانَتِ الاسْتِغَاثَةُ بِجِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شِرْكًا لَمْ يَعْرِضْهَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ».

فَالْجَوَابُ: أَنَّ هَذَا مِنْ جِنْسِ الشُّبْهَةِ الأُولَى، فَإِنَّ جِبْرَائِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَمْرٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: ٥]، فَلَوْ أَذِنَ اللَّهُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ نَارَ إِبْرَاهِيمَ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الأَرْضِ وَالْجِبَالِ وَيُلْقِيَهَا فِي الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لَفَعَلَ، وَلَوْ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَضَعَ إِبْرَاهِيمَ فِي مَكَانٍ بَعِيدٍ لَفَعَلَ، وَلَوْ أَمَرَهُ أَنْ يَرْفَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ لَفَعَلَ.

وَهَذَا كَرَجُلٍ غَنِيٍّ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ يَرَى رَجُلًا مُحْتَاجًا فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ أَنْ يُقْرِضَهُ أَوْ يَهَبَهُ شَيْئًا يَقْضِي بِهِ حَاجَتَهُ فَيَأْبَى ذَلِكَ الرَّجُلُ الْمُحتَاجُ أَنْ يَأْخُذَ، وَيَصْبِرُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اللَّهُ بِرِزْقٍ لَا مِنَّةَ فِيهِ لِأَحَدٍ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ اسْتِغَاثَةِ الْعِبَادَةِ وَالشِّرْكِ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ؟!».

الشَّرْحُ

هذه الشُّبْهة من جنس الشُّبْهة السابقة.

يستدلون على جواز الاستغاثة بالميت بقصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام لمَّا أُلقِي في النار، وكانوا قد جمعوا له حطبًا عظيمًا،

وأججوا نارًا، وألقوا إبراهيم عليه السلام، فلما كان في الجو عرض له جبريل، قال: «ألك حاجة؟» أي: هل تُريد أن أساعدك؟، قال إبراهيم من قوة توحيده وإيمانه وتعلُّقه بالله: «أما إليك فلا»[(١)]، أي: وأمَّا إلى الله فنعم، فجاءه الفرج من الله أسرع من إغاثة جبريل، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩]، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، فصار جو النار معتدلًا، **قال ابن عباس وأبو العالية**: «لولا أن الله ﷻ قال ﷺ لآذى إبراهيم بردها»[(٢)].

قالوا: وهذا دليل على جواز الاستغاثة بالميت؛ لأن جبريل عليه السلام عرض لإبراهيم عليه السلام في الجو وعرض عليه الاستغاثة.

والجواب: أن الاستغاثة من الحي الحاضر القادر لا بأس بها، فجبريل عليه السلام حي حاضر قادر، وقد أعطاه الله القوة والقدرة، كما قال الله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٥]، وفي «الصحيحين»[(٣)] عَنِ الشَّيْبَانِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ زِرَّ بْنَ حُبَيْشٍ عَنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم: ٩] قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ مَسْعُودٍ «**أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ**» فهو حي حاضر قادر، ولو أذن الله له أن يأخذ نار إبراهيم وما حولها من الأرض والجبال ويلقيها في المشرق أو المغرب لفعل، ولو أمره الله تعالى أن يضع إبراهيم في مكان بعيد لفعل، ولو أمره أن يرفعه إلى السماء لفعل، فهو حي حاضر قادر، وهذا لا ينكر كونك تستغيث بحي حاضر قادر، ولكن إبراهيم عليه

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٢٩).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٥).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب «ذكر الملائكة»، رقم (٣٢٣٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، رقم (١٧٤) ـ واللفظ له ـ.

الصلاة والسلام لم يرد الاستغاثة بالمخلوق أبدًا مهما كان ولو كان قادرًا، بل يُرِيد أن يتعلّق بالله فقط ولا يتعلق بغيره.

وضرب المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ مثلًا لهذا، فقال: «**وَهَذَا كَرَجُلٍ غَنِيٍّ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ يَرَى رَجُلًا مُحْتَاجًا فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ أَن يُقْرِضَهُ أَوْ يَهَبَهُ شَيْئًا يَقْضِي بِهِ حَاجَتَهُ فَيَأْبَى ذَلِكَ الرَّجُلُ الْمُحتَاجُ أَنْ يَأْخُذَ، وَيَصْبِرُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اللَّهُ بِرِزْقٍ لَا مِنَّةَ فِيهِ لأَحَدٍ**» فكذلك جبريل هو حي حاضر ويجوز لإبراهيم أن يستغيث به، لكنه أراد الإغاثة من الله لا من أحد من المخلوقين.

وهذا جواب الشُّبَهة على فرض ثبوت هذه القصة والقول بصحتها، وإذا لم تصح صارت لاغية ساقطة من أساسها.

وفي «صحيح البخاري»[1] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣]»، و﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ يعني: كافينا الله.

۞۞۞

(١) أخرجه البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب «﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣] الآية»، رقم (٤٥٦٣).

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَلْنَخْتِمِ الْكِتَابَ بِذِكْرِ آيَةٍ عَظِيمَةٍ مُهِمَّةٍ تُفْهَمُ مما تَقَدَّمَ، وَلكِنْ نُفْرِدُ لَهَا الْكَلَامَ لِعِظَمِ شَأْنِهَا وَلِكَثْرَةِ الْغَلَطِ فِيهَا، فَنَقُولُ: لَا خِلَافَ أَنَّ التَّوْحِيدَ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْعَمَلِ، فَإِنْ اخْتَلَّ شَيْءٌ مِنْ هَذَا لَمْ يَكُنِ الرَّجُلُ مُسْلِمًا.

فَإِنْ عَرَفَ التَّوْحِيدَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَهُوَ كَافِرٌ مُعَانِدٌ كَفِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ وَأَمْثَالِهِمَا.

وَهَذَا يَغْلَطُ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النَاسِ، يَقُولُونَ: «هَذَا حَقٌّ، وَنَحْنُ نَفْهَمُ هَذَا، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَلَكِنْ لَا نَقْدِرُ أَنْ نَفْعَلَهُ، وَلَا يَجُوزُ عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِنَا إِلَّا مَنْ وَافَقَهُمْ»، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأَعْذَارِ.

وَلَمْ يَعْرِفِ الْمِسْكِينُ أَنَّ غَالِبَ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَلَمْ يَتْرُكُوهُ إِلَّا لِشَيْءٍ مِنَ الأَعْذَارِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩] وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ كَقَوْلِهِ ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فَإِنْ عَمِلَ بِالتَّوْحِيدِ عَمَلًا ظَاهِرًا وَهُوَ لَا يَفْهَمُه وَلَا يَعْتَقِدُهُ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مَنَافِقٌ، وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْكَافِرِ الْخَالِصِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]».

الشرح

هذه مسألة عظيمة، ختم بها **المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الرسالة المفيدة القيمة، وهي أن الإيمان والإسلام والتوحيد لا بُدَّ أن يكون بالقلب

واللسان والعمل، فإن ترك شيئًا منها لم يكن مؤمنًا.

فإذا عرف الإنسان الإيمان والتوحيد بقلبه، لكنه لم يعمل بجوارحه صار إيمانه كإيمان فرعون وإبليس، فإبليس قابل أمر الله بالاعتراض والإباء والاستكبار ورفض العمل بدليل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، وإن كان القلب مُعترِفًا مُصدِّقًا بدليل قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤]، وفرعون وقومه حين ردُّوا على موسى وهارون عليهما السلام قال تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المؤمنون: ٤٧-٤٨].

وهذه مسألة كبيرة مهمة كما قال المؤلف رحمه الله: «**يَقُولُونَ: «هَذَا حَقٌّ، وَنَحْنُ نَفْهَمُ هَذَا، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَلكِنْ لَا نَقْدِرُ أَنْ نَفْعَلَهُ، وَلَا يَجُوزُ عِنْدَ أَهْلِ بَلَدِنَا إِلَّا مَنْ وَافَقَهُمْ»، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْذَارِ**».

قال رحمه الله: «**وَلَم يَعْرِفِ الْمِسْكِينُ أَنَّ غَالِبَ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ يَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَلَمْ يَتْرُكُوهُ إِلَّا لِشَيْءٍ مِنَ الأَعْذَار كَمَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [التوبة: ٩]» يعني: اعتاضوا عن آيات الله ثمنًا قليلًا وهي الدنيا، فاعتاضوا بالمال أو بالرياسة أو بالجاه أو بالمنصب أو غير ذلك.

○ وقوله: «**وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ كَقَوْلِهِ** ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]» والمعنى: أنهم يعرفون أنه ﷺ رسول الله حقًّا لكن ذلك لم ينفعهم؛ لأنهم ما اتبعوه ولا انقادوا له.

○ وقوله: «**فَإِنْ عَمِلَ بِالتَّوْحِيدِ عَمَلًا ظَاهِرًا وَهُوَ لَا يَفْهَمُه وَلَا يَعْتَقِدهُ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مَنَافِقٌ، وَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْكَافِرِ الْخَالِصِ كَمَا قَالَ تَعَالَى:** ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]» فلو عمل

الإنسان بجوارحه فصلَّى وصام، وزكَّى وحجَّ، ولكنه لم يُصدِّق بالباطن ولم يؤمن بقلبه صار إسلامه كإسلام المنافقين.

من عرف الإيمان والتوحيد بقلبه ولم يعمل بجوارحه صار إيمانه كإيمان إبليس وفرعون، ومن عمل بجوارحه ولم يُصدِّق بقلبه صار إسلامه كإسلام المنافقين، فلا بُدَّ في الإِيمان من إسلام وعملٍ يتحقق به هذا الإِيمان، ولا بُدَّ في الإسلام من إيمانٍ يصح به هذا الإِسلام.



قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ طَوِيلَةٌ تَبِينُ لَكَ إِذَا تَأَمَّلْتَهَا فِي أَلْسِنَةِ النَّاسِ، تَرَى مَنْ يَعْرِفُ الْحَقَّ وَيَتْرُكُ الْعَمَلَ به لِخَوْفِ نَقْصِ دنيَاهُ، أَوْ جَاهِهِ، أَوْ مُلْكِهِ».



كل من ترك العمل بالتوحيد والإيمان فأعذاره مردودة، إما عذر خوف من نقص دنيا كنقص المال أو الجاه، أو الخوف من مخالفة الآباء والأجداد، أو شحٌّ بمنصبه أو بماله أو بوطنه، فيخاف أن يضيع عليه شيء من حطام الدنيا الفانية، وهذه المسألة مسألة كبيرة طويلة، وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ هي مسألة عظيمة.

قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَتَرَى مَنْ يَعْمَل بِهِ ظَاهِرًا لَا بَاطِنًا، فَإِذَا سَأَلْتَهُ عَمَّا يَعْتَقِدُهُ بِقَلْبِهِ إِذَا هُوَ لَا يَعْرِفُه».



كالمنافق، يعمل في الظاهر لكنه في الباطن غير مُصدِّق ولا يعرفه، يقول: «أنا أعمل لأجل موافقة للناس»، وهذا لا ينفعه.

۞۞۞

قَالَ الْمُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِفَهْمِ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى:

أُولَاهُمَا: مَا تَقَدَّمَ، وَهِيَ قَوْلُهُ ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، فَإِذَا تَحقَّقَ أَنَّ بَعْضَ الصَّحَابَةِ الَّذِينَ غَزَوا الرُّومَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ كَفَرُوا بِسَبَبِ كَلِمَةٍ قَالُوهَا عَلَى وَجْهِ الْمَزْحِ تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّ الَّذِي يَتكَلَّمُ بِالْكُفْرِ أَوْ يَعْمَلُ بِهِ خَوْفًا مِنْ نَقْصِ مَالٍ أَوْ جَاهٍ أَوْ مُدَارَاةً لِأَحَدٍ أَعْظَمُ مِمَّنْ يَتكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ يَمْزَحُ بِهَا».

الشَّرْحُ

هذه المسألة مهمة.

يقول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: تدبر هذه الآية في الصحابة الذين تكلَّموا بهذه الكلمات في غزوة تبوك.

عن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء»، فقال رجل في المجلس: «كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ»، فبلغ ذلك النبي ﷺ ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر: فأنا رأيته مُتَعَلِّقًا بِحَقَبِ ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: «يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب»، ورسول الله ﷺ يقول: «﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥﴾ [التوبة: ٦٥]»[1]،

---

(١) تقدَّم تخريجه.

قالوا هذا الكلام على وجه المزح واللعب حتى يقطعوا الطريق فلم يعذرهم الله، وكَفَّرَهم بعد إيمانهم، فإذا تكلَّم الإنسان بكلمة كفر على وجه المزح واللعب يكون كافرًا ولا يُعْذر، فكيف بالذي يتكلَّم بكلمة الكفر خوفًا من نقص مال أو جاه أو مداراة أو مداهنة؟!، هذا من باب أولى، ويكون كفره أعظم.



قَالَ المُؤَلِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

«وَالآيَةُ الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾ [النحل: ١٠٦- ١٠٧] الآيَةُ، فَلَمْ يَعْذُرُ اللهُ مِنْ هَؤُلَاءِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ مَعَ كَوْنِ قَلْبِهِ مُطْمَئِنًّا بِالْإِيمَانِ، وَأَمَّا غَيْرُ هَذَا فَقَدْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِه سَوَاءً فَعَلَهُ خَوْفًا، أَوْ طَمَعًا، أَوْ مُدَارَاةً لأَحَدٍ، أَوْ مَشَحَّةً بِوَطَنِهِ، أَوْ أَهْلِهِ، أَوْ عَشِيرَتِهِ، أَوْ مَالِهِ، أَوْ فَعَلَهُ عَلَى وَجْهِ الْمَزْحِ، أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الأَغْرَاضِ إِلَّا الْمُكْرَهَ.

وَالآيَةُ تَدُلُّ عَلَى هَذَا مِنْ جِهَتَيْنِ:

الأُولَى: قَوْلُهُ: ﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ فَلَمْ يَسْتَثْنِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يُكْرَهُ إِلَّا عَلَى الْعَمَلِ أَوْ الْكَلَامِ أَوْ الْفِعْلِ، وَأَمَّا عَقِيدَةِ الْقَلْبِ فَلَا يُكْرَهُ عَلَيْهَا أَحَدٌ.

الثَّانِيَةُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧] فَصَرَّحَ أَنَّ الْعَذَاب لَمْ يَكُنْ بِسَبَبِ الاعْتِقَادِ، أَوْ الْجَهْلِ، أَوَ الْبُغْضِ لِلدِّينِ، أَوْ مَحَبَّةَ الْكُفْرِ، وَإِنَّمَا سَبَبُهُ أَنَّ لَهُ فِي ذَلِكَ حَظًّا مِنْ حُظُوظِ الدُّنْيَا فَآثَرَهُ عَلَى الدِّينِ، وَاللهُ أَعْلَمُ».

الشَّرْحُ

هذه آية عظيمة يجب على المسلم أن يتدبَّرها، وهي قول الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ

مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٦-١٠٧]، والمعنى: أن من كفر فإنه لا يعذر في الكفر إلَّا في حالة واحدة، وهي الإكراه، بشرط أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان، فإذا أُكْرِه بأن وضع السيف على رقبته، وقيل له: «أكفر وإلَّا قتلناك»، أو هدَّدَهُ سلطان ظالم قادر على التنفيذ، جاز له أن يتكلَّم بكلمة الكفر أو يفعل الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان؛ وهذا معذور، فإن انشرح صدره للكفر ـ والعياذ بالله ـ كَفَر ولو انشرح صدره للكفر بعد الإكراه، أما غير المكره فلا يكون معذورًا وإن كان في حال الخوف.

والآية تدل على هذا من وجهين:

الوجه الأول: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ فلم يستثنِ إلَّا المُكْره، فغيره كالخائف وغير الخائف لا يكون معذورًا.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يعني: أن الذي حملهم على ذلك حظوظ الدنيا، فبَيَّن أن كفرهم ليس عن جهلٍ ولا اعتقادٍ ولا بغضٍ للدين، وإنما الذي حملهم على ذلك أن لهم حظًّا من حظوظ الدنيا.

ومعلوم أن الإنسان لا يُكْره إلَّا على الكلام أو العمل أو الفعل، لكنه لا يُكْره على عقيدة القلب؛ فعقيدة القلب لا يقدر عليها أحد إلَّا الله ﷻ، فإذا أُكرِهَ وتكلَّم بكلمة الكفر أو عمل أو فعل الكفر فلا بُدَّ أن يكون قلبه مطمئنًا ومُنْشرِحًا بالإيمان، فإن كان كذلك فلا يضره ما صدر منه من كفر مع الإكراه، فإن لم يطمئن قلبه بالإيمان وانشرح صدره بالكفر كفر حتى مع الإكراه.

وإذا تكلَّم بكلمة الكفر لا من أجل الإكراه، بل من أجل الشح بأهله، أو بوطنه، أو بماله، أو بعشيرته كفر ولا يكون معذورًا؛ لأنه لم يأتِ الاستثناء إلَّا في هذه الصورة، وهو الإكراه بشرط اطمئنان القلب بالإيمان، فلا بد من الأمرين: الإكراه واطمئنان القلب بالإيمان، فإذا تخلَّف واحد منهما بأن أُكْرِه ولم يطمئن قلبه بالإيمان كفر، وإذا اطمئن قلبه بالإيمان وتكلَّم بكلمة الكفر لا عن إكراه كفر.

▣ **مسألة: ما هو حدُّ الإكراه؟**

● **الجواب**: إذا هدَّدَهُ إنسان بالقتل ويغلب على الظنِّ قدرته على التنفيذ، كأن يقول له: «افعل أو أقتلك» فهذا مُكْرَهٌ، فإذا تكلَّم بكلمة الكفر أو فعل ما هو كفر وقلبه مطمئن بالإيمان لا يضره، أما إذا كان غير قادر على التنفيذ أو هدَّدَهُ بأخذ ماله فلا يُعدُّ إكراهًا.

▣ **مسألة: هل الأفضل أن يأخذ الإنسان بالرخصة فيتكلَّم بكلمة الكفر أو بالعزيمة ولا يترخَّص؟**

● **الجواب**: إذا كان الأخذ بالعزيمة يعود على الدين والأمة بالنفع والخير فالأفضل الأخذ بها ولو قُتِلَ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ»**[1].

ومثال ذلك: عند ما تعرض **الإمام أحمد** رحمه الله لمحنة خلق

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الملاحم، باب «الأمر والنهي»، رقم (٤٣٤٤)، والترمذي، كتاب الفتن، باب «ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، رقم (٢١٧٤)، وابن ماجه، كتاب الفتن، باب «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، رقم (٤٠١١)، وأحمد (٣/ ١٩).

قال الترمذي: «وهذا حديث حسن غريب من هذا الوجه».

القرآن، وقيل له ترخص، وقد ترخص قرناؤه وأمثاله من العلماء، لكنه لمَّا رأى الناس ينتظرون كلامه ومعهم الأقلام والأوراق يريدون أن يكتبوا ما يقول خشي أن يضل الناس فصبر على الفتنة، وكان له رخصة.

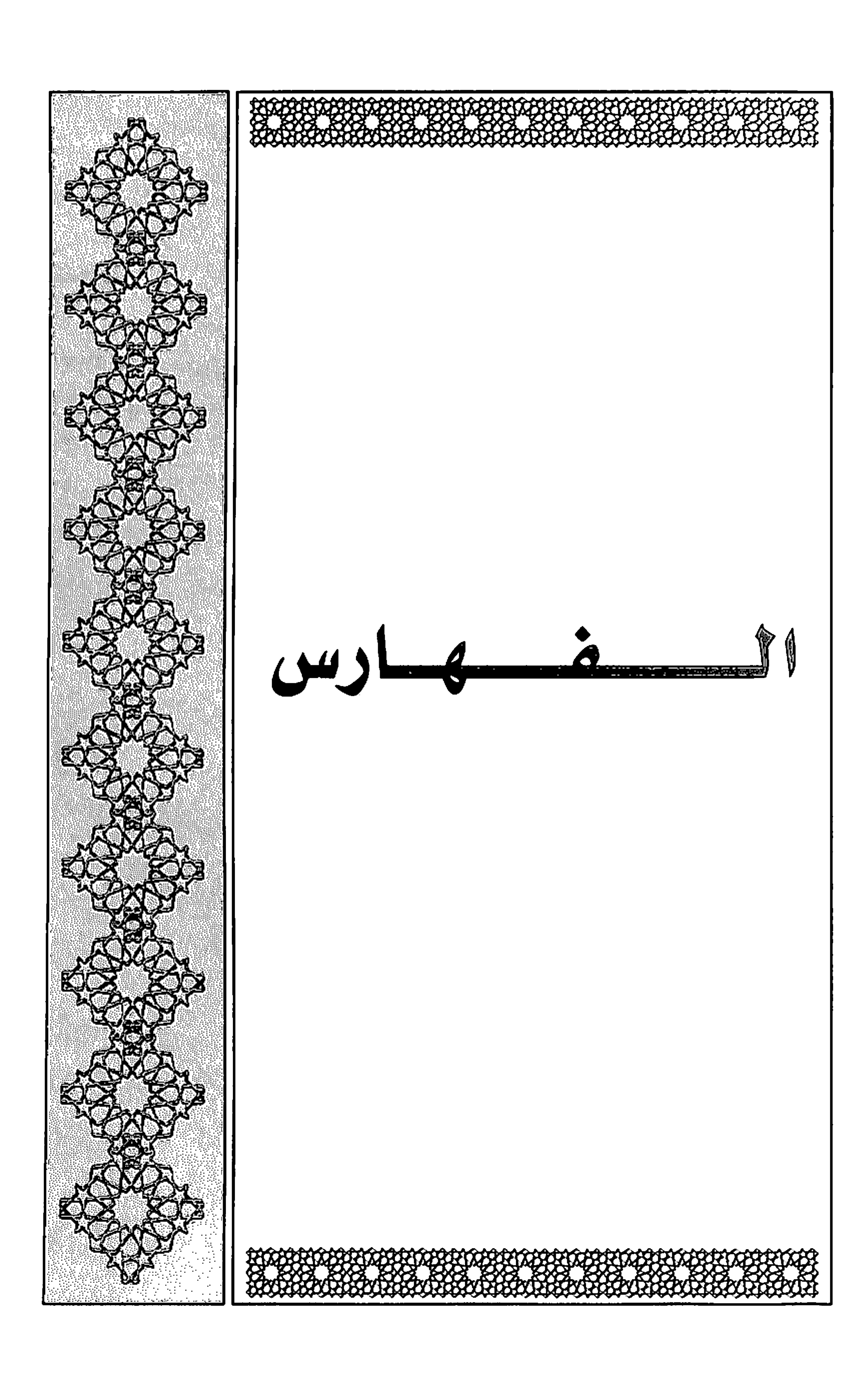
فإذا أراد شخص أن يحمل نفسه على الشدة ويتخير الأمر الأشد فلا بأس، فلو قال له إنسان: «اكفر وإلَّا قتلتك»، قال: «لن أكفر، اقتلني ولا أكفر»، فهذا لم يعمل بالرخصة وعمل بالأمر الأشد، وأجره على الله.



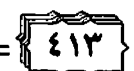
الخاتمة

أسأل الله أن يثبتنا على دينه القويم، وأن يهدينا صراطه المستقيم، وأن يعيذنا من مضلات الفتن، إنه سبحانه خير مسؤول.

وصَلَّى الله وسَلَّمَ وبارك على عبدالله ورسوله نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.



الفهارس



فهرس عام

الموضوع	رقم الصفحة

فهرس الموضوعات والفوائد كتاب فضل الإسلام

الموضوع | رقم الصفحة

الموضوع رقم الصفحة

فهرس الموضوعات والفوائد لكتاب كشف الشبهات

الموضوع رقم الصفحة

الموضوع | رقم الصفحة